تأليف
لانكستر هاردنج

آثار الأردن

تعريب
سليمان موسى

من منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر

أخرجته: مجلة «رسالة المعلم»

اهداءات ٢٠٠٠
ا.د.رشيد سالم الناضورى
أستاذ التاريخ القديم
جامعة الإسكندرية

آثار الأردن

تأليف

لانكستر هاردنج

تعريب

سليمان موسى

من منشورات اللجنة الأردنية للتعريب والترجمة والنشر
اخرجته مجلة "رسالة المعلم"

عن العددين: (١ ـ ٢) من السنة الثامنة

الطبعة الاولى

كانون الثاني

١٩٦٥

راجع هـذا الكتاب ، وتحرّى ما فيـه من حقائق ، الأساتذة :

١ — زوفان الهنداوي

٢ — محمود سليمان العابدي

٣ — الدكتور محمد حسين علي



نقل هذا التعريب عن كتاب :

The Antiquities of Jordan

by

G. Lankester Harding

الذي قامت باصداره دار النشر البريطانيــة :

Lutterworth Press London, 1959

كلمـــة المعرب

دفعني الى نقل هذا الكتاب الى اللغة العربية ما يتضمنه من معلومات عن آثار بلادنا . واقد قضى مؤلفه المستر لانكستر هاردنج عشرين عاماً في الاردن مسؤولا عن دائرة الآثار ، فأتيح له ان يتعرّف عليها ويعكف على دراستها ، بحيث جاء كتابه مرجعاً علمياً موثوقـاً لم يظهر حتى الآن في اللغة العربية ما يغني عنه او يماثله . وقد يكون من المفيد ان اذكر هنا ان هذا الكتاب ترجم ونشر في اللغات الفرنسية والالمانية والهولندية ، وطبـع بالانجليزية اربع مرات حتى الآن .

ولما كانت معالم بلادنا الاثرية من الاهمية بمكانة عالمية ، ولها أثر عظيم في اجتذاب السياح من مختلف الاقطار ، فقد اصبح من الواجب الوطني والثقافي ان تزداد معرفتنا بهذه الآثار التي تمثل الحضارات العديدة للشعوب المختلفة التي تعاقبت عبر العصور على الاقامة في بلادنا وقد شجعني على ترجمة الكتاب انني كنت نشرت بعض فصوله في مجلة (رسالة الاردن) التي تصدرها دائرة المطبوعات والنشر ، فلقيت اهتماماً من بعض ذوي العلم والفضل ، وحضّني الكثيرون منهم على القيام بترجمة الكتاب كله ونشره استتماماً للغاية المتوخاة .

ويلاحظ القارىء انني حرصت على وضع بعض الملاحظات الضرورية على هوامش الصفحات ، من اجل فائدة المواطن العربي وخدمة للحقيقة والعلم .

وليس هذا الكتاب سوى بحث موجز عن الآثار في الاردن ، لذلك ارجو ان ينهد المترجمون الغيارى الى ترجمة الكتب التفصيلية الاخرى التي كتبها الاجانب ، باعتبارها ثروة علمية ثمينة لا غنى عنها للباحث والمؤرخ . ولما كانت الحضارة تراثاً عالمياً مشتركاً فلا بد من الترجمة حتى يظهر من بيننا علماء يشتركون في حمل مشعل الحضارة مع اقرانهم من العلماء الاجانب .

ولا يسعني هنا الا ان اعبّر عن امتناني لجميع الذين اعانوني في تنقيح المعلومات وترجمة بعض المصطلحات الفنية ، واني اخصّ بالذكر الدكتور عوني الدجاني والاستاذ محمود العابدي والسيد فرح معايعة ؛ واذا كنت قد قمت بالترجمة ، فان الفضل في نشر الكتاب يعود الى اللجنة الاردنية للتعريب والترجمة والنشر المنبثقة عن وزارة التربية والتعليم الجليلة ، تلك اللجنة التي قرّر اعضاؤها الافاضل تبنّي الكتاب ونشره وتعميمه .

واخيراً ، ارجو ان يكون في هذا الجهـد المتواضع ما ينال رضى القـراء ويشجّع المتحمسين منهم على المزيد من الاستقصاء .

كانون الثاني ١٩٦٥

معرب الكتـاب

سليمان موسى

مقدمة المؤلف

لقد قضيت في الأردن سنوات عديدة، حتى لم يعد في مقدوري ان اؤلف عنها كتاباً جيداً، وذلك لأن المعرفة الوثيقة بمكان ما لفترة طويلة من الزمن، تمحو الانطباعات التي يكوّنها المرء في البداية، الا اذا احتفظ بمذكرات يومية، وهو ما لم أقم به مطلقاً.

اضف الى هذا ان المرء مع مرور الوقت يفقد القدرة على تكوين فكرة عامة عن البلاد، بسبب انصرافه الى التفاصيل. ولما كنت قد قمت بزيارتي الاولى للاردن عام ١٩٣٢ وبدأت اقامتي فيها بصورة دائمية عام ١٩٣٦، فان مرور الزمن استطاع ان يفعل فعله في تكييف انطباعاتي.

ولقد زرت البلاد لأول مرة بصفتي سائحاً، حيث قضيت فيها اياماً مع رفاق لي من اعضاء بعثة الحفريات التي كانت تعمل برئاسة السير فلندرز بيتري في تل العجول في جنوب فلسطين. واثناء تلك الزيارة لم نهتم كثيراً ببعض الأماكن، مثل اريحا القديمة التي صارت فيما بعد ذات اهمية بالغة، بينما تركت بعض الأماكن الأخرى انطباعاً قوياً في نفوسنا للوهلة الأولى — جرش مثلا — ولكن الأبحاث التي أُجريت فيها بعد ذلك لم تكشف عن اشياء جديدة فائقة الاهمية: ومن الطبيعي انه لم يخطر ببالي يومذاك، اذ كنت اشاهد آثار جرش والبتراء لأول مرة، انني سأتولى يوماً ما مسؤولية المحافظة عليها، وعلى جميع الأماكن الأثرية القديمة في شرقي الأردن.

وعدت عام ١٩٣٦ لأشغل منصب «مفتش الآثار» وهو منصب تحوّل فيما بعد الى «مدير الآثار». ولحسن الحظ لم ادرك يومذاك خطورة المهمة التي أُلقيت على عاتقي. وفي عام ١٩٤٨ أضيفت الى مسؤولياتي منطقة واسعة من فلسطين، وهي المنطقة التي أُكتشفت فيها مخطوطات البحر الميت، واستأثرت بالكثير من وقتي ونشاطي خلال السنوات القليلة الماضية.

ومهما يكن من امر فان الحياة كانت اكثر هدوءاً قبل عام ١٩٤٨ بحيث استطعت ان ازور معظم الأماكن في شرقي الأردن . وقمت باكثر تلك الزيارات في سـيارتي الامينة (الفورد) التي ابتيعت جديدة سنة ١٩٣٦ وكانت ما تزال في حالة لا بأس بها عندما غادرت الاردن سنة ١٩٥٦ .

وفي معظم هذه الرحلات كان حسن عواد هو رفيقي الامين الذي لم يكن لي غنى عنه ، وكنت قد عرفته اولا عام ١٩٢٦ فتى صغيراً في الثالثة عشرة او الرابعة عشرة من العمر ، بحيث استطاع ان ينمو ويكبر في ظل الآثار . انه يملك ميلا غريزياً ملحوظا للآثار ، وعينا حادّة النظر بالنسبة للمخلّفات الأثرية ، ولطالما كان اول من اكتشف كثيراً من المواقع التي تعود الى ما قبل التاريخ . وهو بالاضافة الى ما تقدم من افضل الاشخاص الذين عرفتهم في اعمال الحفريات ، اذ يمتاز بالمثابرة والصبر ، وبمقدرته العظيمة على قهر ما يعترضه من مختلف المصاعب .

كنت قد بدأت هذا الكتاب قبل بضع سنوات ، وغرضي منه ان يكون دليلا للمواقع الأثرية المهمة ، التي يراها الزائر العادي ، مع اضافة معلومات قليلة عن البلاد وتاريخها . والواقع انه لم يؤلّف كتاب مستقل عن آثار البلاد بأكملها سوى كتاب (بديكر Baedeker) . وكانت الحاجة لوجود كتاب كهذا تبدو واضحة ، من الاسئلة التي كان يوجّهها اليّ عدد كبير من السيـاح ، عما اذا كان هنالك ما يستطيعون قراءته عن البلاد اثناء زيارتهم لها . على انني بعد ذلك أعدت كتابته مجدّداً على أمل ان يكون اكثر نفعاً للزائرين ، سواء في اوقات الفراغ او عند الوقوف على الآثار نفسها .

ولقد انصرفت جهودي بصورة رئيسية الى شرقي الاردن بسبب وجود كتب كثيرة جيدة عن آثار فلسطين ، الا أنني اضفت فصلا جديداً عن الاكتشافات الحديثة في منطقة اريحا بالنظر لأهميتها وجدّتها . كما إنني شعرت ان كتاباً كهذا يجب ان يتضمن فصلا خاصاً عن مخطوطات البحر الميت ، بالرغم عن ظهور مئات الكتب والمقالات حولها . ولا بدّ من القول ان كتابات الدكتورة كاثلين كينيون عن اريحا القديمة ، وكتابات الاب ديفو عن قمران ، ومخطوطات البحر الميت — أصبحت الآن ذات شهرة عالمية .

وكنت انوي ان أبدأ الكتاب بفصل يتضمن معلومات عامة عن البــلاد ، ولكن سرعان ما أهملت تلك الفكرة بسبب التطورات السريعة المتلاحقة . وكنت انوي كذلك ان يتضمن الكتاب جدولاً بمسافات الطرق والوقت الذي تستغرقه الرحلة من مكان الى آخر ، ولكني اهملت هذه الفكرة ايضاً لان العمل يجري بهمة ونشاط في شق طرق جــديدة ، ولم يكن بعضها قد تمّ شقه عندما غادرت البلاد سنة ١٩٥٦ . ومن غير المجدي أن تعطى تفاصيل عن حالة الطرق القديمة ، التي لم تكن سوى دروب شبه ممهدة اخذت تحل محلها الطرق المعبدة الحديثة ، من اقصى البلاد الى اقصاها .

وهنالك مئات من المواقع الاثرية القديمة ، التي لم يرد ذكرها في الكتاب ، ولكنها من نوع الاماكن التي لا تهم الا علماء الآثار ، فضلاً عن صعوبــة الوصول الى معظمها حيث لا يوجد ظاهراً للعيان في كثير منها سوى بقايا ضئيلة .

ومن المعلوم ان الزوار في أيامنا هذه يميلون الى قضاء اقصر وقت ممكن في قطر ما ، حيث يسعون الى مشاهدة ما يمكن مشاهدته من المعالم خلال ذلك . وهكذا ركّزت جهودي على اكثر المواقع الأثرية اهمية واجلّها شأنا . والواقع انــه يوجد في البلاد كثير من هذه الاماكن المهمة ، بل ان اقطاراً قليلة في العالم تستطيع أن تفاخر — كما يفاخر الاردن — بوجود موقعين اثريين لا مثيل لهما داخل حدوده ، كجرش والبتراء .

ولا يسعني الا الاعتراف بانني مدين لمن سبقني من الرحّالة والعلماء ، ذلك لان كل مؤلف لكتاب من هذا الطراز ، يجب ان يعتمد على ابحاث من سبق لهم ان عالجوا الموضوع الذي يكتب فيه .

كما انني مدين ايضاً للكثيرين الذين قرأوا مسودة كتابي وأهانوني باقتراحاتهم ونقداتهم .

المؤلف
لانكستر هاردنج

١٩٥٨ ليماسول — قبرص

الفصل الأول

التضاريس ـ المناخ ـ التاريخ الطبيعي
السكان ـ دائرة الاثار

تتمثل في شرقي الاردن مجموعة متعددة من المشاهد الطبيعية المختلفة ، وهي مشـاهد تتراوح من الاراضي المقفرة ذات الحجارة النارية السوداء التي لا يكاد المرء يرى فيها دليلا من دلائل الحياة – الى الاودية الخضراء الجميلة ذات الجداول الصافية التي تغطي شجيرات الدفلى ضفاف مجاريها ، ومن رتابة الصحراء المنبسطة التي لا لون لها – الى جبـال رم وصخورها ذات الالوان الزاهية . ومع هذا فأن مناطق الحجارة النارية لا تخلو من سحر ، وهنالك كثيرون ممن تستهويهم الصحراء بهدوئها وسكونها . على ان الحب والبغض بالنسبة للمشاهد الطبيعية – أمور تتعلق بميول الانسان الشخصية ، حتى يغـدو المديح والتقريض لجمال بقعة من بقاع الدنيا ، عبثا لا طائل بعده ؛ وافضل ما يفعل المرء في هذا المجـال ان يحاول الاشارة الى ما هنالك ، ثم يترك الحكم للزائر نفسه .

وتحقيقا لاغراض الوصف ، يمكن تقسيم البلاد الى منطقتين رئيسيتين ، على ان يكون خط سكة الحديد الممتد من الشمال الى الجنوب – حدا فاصلا تقريبياً بينهما . والجزء الغربي الضيق جبلي ولكنه خصب ، اما الجزء الشرقي فهضبة منبسطة تشمل الصحراء وارض الصوّان :

تشكّل جبال الجزء الغربي خطاً يكاد يكون مستقيما على امتداد اطراف وادي الاردن والبحر الميت ووادي عربة ، ابتداء من بحيرة طبريا حتى خليج العقبة . وتقسم سلسلة الجبال هذه الى عدة اقسام تفصل بينها أنهار وجداول دائمة الجريان : وتسمى الاوديـة التي تجري فيها تلك الانهار والجداول ، من الشمال الى الجنوب : وادي اليرموك ، وادي الزرقـاء (يبوق القديم) وادي شعيب ، وادي الموجب (ارنون القديم) ووادي الحسا (زرد القديم) : وبينما تصب الجداول الثلاثة الاولى في نهر الاردن ، فأن الجدول الرابع يصب في المنتصف

الشرقي للبحر الميت ويصب الخامس في الطرف الجنوبي منه. وهنالك جداول اخرى صغيرة، ومنها الجداول التي تسير في وادي اليابس ووادي نمرين ووادي حسبان ، بينما يعتبر جدول وادي الوالا رافداً مهمّاً للموجب. وهناك بالاضافة الى ما تقدم ينابيع المياه المعدنية الحارة في زرقاء ماعين قريبا من مادبا وينابيع الحمة في وادي اليرموك . وتعتبر ينابيع هذين الموقعين من المنتجعات الصحية خلال فصول معينة من السنة . وهذه الاودية كلها تبقى مخضرّة على مدار السنة نتيجة لجريان المياه فيها ، لذلك تسرّ العين بمناظرها كما تسرّ الاذن لسماع خرير المياه : وفي فصل الربيع ، من منتصف كانون الثاني حتى نهاية آذار – تكتسي الجبـــال بالزهور البرية من مختلف الانواع والالوان .

تتألف الجبال من اليرموك حتى الحسا من الحجر الجيري ، اما قممها فسهلة مستديرة . وتغطي الجبال الممتدة بين اليرموك والزرقاء – غابات من شجر البلوط ،كما توجد في منطقة عجلون غابات من شجر الصنوبر الجميل . وتقوم الى جانب الطريق بين جرش والحصن – شجرة كبيرة منفردة وهي البقية الباقية من الغابات التي ظلت تكسو اراضي تلك المنطقـــة حتى الحرب العالمية الاولى . ويعتقد الاهلون بقداسة هذه الشجرة ، لذلك يقدمون أدعياتهم اليها ويربطون قطع القماش الى اغصانها . ولكن لا يمكن التحقق مما اذا كانت هذه الشجرة قد كتب لها البقاء نتيجة لقداستها او انها صارت مقدسة نتيجـــة لبقائها . (١)

على ان نوعية الصخر من وادي الحسا جنوبا تبدأ بالتحول تدريجيا من الحجر الجيري الى الحجر الرملي ؛ وتتخذ التلال شكلا مشرشرا ؛ كما تغدو المشاهد الطبيعية اكثر وحشية وإثارة . اما حول العقبة في اقصى الجنوب ، فيتنـــوع الحجر : من الجرانيت الى النّاري الاسود الى انواع صوانية اخرى – بل انك لتجد حجر العقيق ، واحيانـــا حجر الفيروز وبعض الحجارة الكريمة . وتوجد في المنحدرات الغربية لهذه الجبـــال – في وادي عربه – رواسب من النحاس والحديد كانت تستغل في العصور القديمة . ان المعدن الخـــام ما يزال هناك ، ولكن كمياته قليلة بحيث لا يعتبر استخراجه وتصنيعه عملية ناجحة من وجهة تجارية

(١) هي شجرة المنوة التي سقطت في فصل الشتاء سنة ١٩٥٧ . وفي الاردن عدد من الاشجار التي يعتقـــد الاهلون بقداستها فلا يمسونها باذى . ومن هذه الاشجار : شجرة القينوس في قضـــاء الكورة ، بطم ياجوز ، شجرات عين خطلة في الطفيلة ، شجرة الطيار شرقي قرية ضانا ، دابـــة ابو مخطوب في الشوبك . شجرة الحنيطي في الحمر ، شجرة الميس في قضاء جرش ، شجرة ابراهيم الخليل في مدينة الخليل، شجرة مفلح قرب سيل الأزرق، وعلى الطرف الجنوبي من جبل جلعاد . شجرة حزير في وادي السلط .

في يومنا هذا ، خاصة للمصاعب الكبيرة المتعلقة بالنقليات . وهناك ايضا رسوبات صغيرة جدا من المعادن الاخرى في هذه الجهات كالمنغنيز ، بينما توجد في الرصيفة قرب عمان كميات طيبة من الفوسفات يجري استغلالها حاليا . وفي قصر الحمّام شرقي زيزياء ، تلال من الرخام الملون بين احمر وازرق واخضر يعتبر قطعها وتصنيعها من الصناعات المحليـة الكبيرة . وبالاضافة الى ما تقدم توجد في نواحي ماحص الى الغرب من عمان كميات من تراب الفخّار والصيني والمغره .

ان الشقة الغربية من البلاد هي الشقة الصالحة للزراعة والتي تنمو فيها جميع المزروعات من الحبوب المتنوعة والاشجار — كما توجد فيها جميع المدن والقرى الكبيرة . اما الى الشرق من سكـة الحديد فلا توجد سوى قلة من القرى الصغيرة ، وكذلك لا يزرع من الارض سوى مساحة محدودة جدا . وهنا لا بد من القول ان السلم والامن اللذين تمتعت بهما البلاد منذ عام ١٩٣٠ — قد نتج عنهما امتداد مطرد في إعمار الاراضي الشرقية ، حتى اصبح القمح والشعير يزرعان في اماكن لم يزرعا فيها من قبل .

ليس هناك الكثير مما يجب ان يقال عن الشقة الشرقية . فالزاوية الشمالية الشرقية هي الارض البركانية (Lava) وارض الصوان : سوداء عابسة تمتـد حتى الازرق على رأس وادي السرحان ، وهو الوادي المنبسط الذي ينحدر حتى يدخل في البـلاد السعودية . وفي الازرق نفسه توجد مياه غزيرة كما تكثر الطيور البرية في فصـل الصيف فيخرج هواة الصيد لاصطيادها : كالبط البري والاوز والشنقب وغيرها . ولكن مشاريع الاعمار وامتداد حركة التطور جعلت أعداد هذه الطيور تتناقص عما كانت عليه في السابق . هنا تبدأ الصحراء الواسعة التي تغطي وجهها الحجارة الصوانية والحجارة الجيرية التي غدا لونها قاتمـا بفعل حرارة الشمس عبر الاف السنين . ويستمر امتداد هذه الارض الصحراوية جنوبـا حتى تنتهي فجأة عند جبال الطبيق ذات الحجر الرملي .

المنـاخ :

مناخ الاردن متقلّب صحي ، وفي الشتاء تتساقط الثلوج مرة واحدة على الاقل ، بينما ترتفع الحرارة في الصيف حتى تبلغ ١٠٦ درجات فهرنهايت ، مع أن المعدل حوالي ٨٦ درجة . وعلى العموم لا يستحسن القيام بالسياحة في البلاد خـلال فصل الصيف ، بسبب الحرارة وكثرة الغبار ، ولعدم كثرة الاشجار والمزروعات التي يمكن ان تلطف من رتابـة منظر

الارض السمراء . اما فصل الشتاء فيبدأ بزخات متفرقة من الامطار خلال شهري تشرين الثاني وكانون الاول ، ثم تتلو ذلك الأمطار الغزيرة خلال شهري كانون الثاني وشباط ، وهي امطار يستمر هطولها احيانا ثلاثة او اربعة ايام دون انقطاع . ولكن هذه الامطار لا تلبث ان يخف انهمارها خلال شهري آذار ونيسان . وهذان الشهران – آذار ونيسان – رغم احتمال سقوط المطر خلالهما ، يعتبران افضل ايام السنة بالنسبة للمسافر . ومع هذا فلابدّ من القول ان الطقس يمكن ان يكون شديد البرودة في هذين الشهرين ، ويحسن بالمسافر ان يحمل معه معطفا ثقيلا . ومن المعروف ان عاصفة ثلجية هبت على البتراء مرة في اواسط نيسان ، ولكن عواصف نيسان امور نادرة على كل حال . ثم ان موقع وادي الاردن الجغرافي الفريد يجعل من اريحا منتجعا شتوياً مثالياً ، لان الطقس هناك مشمس دافيء في جميع الاوقات تقريباً .

التـــاريخ الطبيعي :

تخلو البلاد كلياً من الحشرات التي تنقل الاوبئة الفتاكة ، حتى في فصل الربيع فأن الزائر لا يصادف سوى القليل من البعوض والذباب ، اما غزوات الجراد المتقطعة فتشكل منظرا مذهلا اذا شاء سوء طالع الزائر ان يمر باحداها ، ولكن الجراد لا يعيق المسافر ولا يسبّب له اي ازعاج. ولا توجد في البلاد انواع كثيرة من الحيات ، والسامة بينها نوعان فقط : الافعى العادية ، والافعى ذات القرون ، والاخيرة شديدة الخطر ، ولكنها لحسن الحظ تقيم في الارجاء الصحراويه ونادرا ما توجد في المناطق المأهولة . وتعيش العقارب ، الصفراء منها والسوداء ، هنا وهناك ، ولكن فرصتها لا تزيد على ان تزعجك يوما وليلة . وينطبق القول نفسه على ام اربعة واربعين ، واذا شهدت احداها تسير على بدنك فحاول ان تكنسها باتجاه سيرها ، اما اذا فعلت العكس فأن سيقانها الحادة يمكن ان تنغرس في جلـــدك وتسبّب لك كثيراً من الضيق :

ان الازهار البرية التي تنوّر في كل مكان اثناء فصل الربيع –تحول البلاد لبضعة اسابيع الى حديقة طبيعية واسعة ، لا تتسع الكلمات لوصف جمالها . وربما كانت زهرة (الحنذقوق) وهي ذات لون ارجواني داكن – اكثر انواع الزهور البرية التي تنمو في البلاد ، وهي تكثر في المناطق الوعرة وخاصة في السهل بين عمان وزيزياء ، كما تكثر ايضا زهور : شقائق النعمان وبخور مريم والسوسن والسيراس وصابونة الراعي والخطميه والاقحوان والزنبق والخزامى. وكانت زهور الترمس البري الزرقاء في وادي شعيب منظرا شهيرا الى ما قبل بضع سنوات ولكن اكثرها اندثر الان بفعل امتداد الزراعة . وفي الربيع ترى الاودية والسهول –

والصحراء ايضا اذا كان الشتاء جيداً – بساطا فسيحا تشتبك فيه الوان النوار المتنوع بين ازرق واحمر واصفر وارجواني فوق الحشائش الخضراء والارض الحمراء . ان وصفها هنا يبدو جافا ولكن المنظر في حقيقته بهيج فاتن . اما بين الشجيرات فازهار الدفلى الحمراء تزين جانبي كل جدول صغير ، بينما ينمو الرتم على الجبال . وتزدهر المكانس البيضاء في كل جهة ولكنها تلفت النظر في (رم) حيث تعلو سيقانها احيانا حتى يختفي وراءها الرجل راكب الناقة وحيث يتعطر الهواء برائحتها الزكية.

اما الحيوانات البرية فلا يمكن العثور عليها بسهولة ، ومع ذلك فلا تستبعد ان ترى عددا من بنات آوى وثعلباً او ثعلبين وهي تقطع الطريق امام السيارة عبر الحقول . ونادرا ما يشاهد الذئب والضبع والسمور والنمس والارنب البري واشباهها ، ولكن البلاد لاتخلو منها . وكانت الغزلان تعيش فيما مضى في جميع انحاء البلاد ، ولكن انتشار القرى وكثرة استعمال السيارات ادّت الى انسحابها بعيدا في الصحراء حيث ما تزال قطعانها تهيم هناك ، بل ان استعمال سيارات الجيب لصيدها ادى الى توغلها شرقا. وما يزال الوعل يقيم في منطقة حسما الى الجنوب من معان واحيانا في التلال المحيطة بالبحر الميت ، بل يشاهد بعض الناس النمر احيانا وكذلك القطط البرية والوبر .

وتكثر في البلاد انواع مختلفة من الطيور ، وتهاجر اليها في الربيع بعض الفصائل الجميلة كاالقلق والقطا الذهبي التي تأتي في اسراب كثيفة لا يقل السرب الواحد منها عن بضع مئات. ويوجد في البتراء ونواحيها طائر البلبل (الدّج) ذو اللون الوردي ، وطائر السمان ذو الالوان البراقة والسوادية (الزرزور) . وتوجد في هذه الجهات ايضا السحالي الزرقاء ، واخرى من نوعها ذات رؤوس زرقاء او حمراء . وحتى عام ١٩٣٠ كانت طيور النعام تعيش في جبل الطبيق ولكنها تراجعت الان الى فيافي البلاد السعودية .

وأحيانا كثيرة تحدث في الصحراء ظاهرة غريبه . فالامطار لا تهطل في الصحراء الا مرة كل سنتين او ثلاث سنوات ، ولكنها عند ذلك تنهمر بغزارة فتتكوّن نتيجة لذلك برك صغيرة غير عميقة تبقى ثلاثة او اربعة ايام . وبعد فترة قصيرة من تكوّن هذه البرك ، فانها تحفل بمخاوقات صغيرة تأخذ بالسباحة وبشتى نشاطات الحياة كأنها عاشت العمر كله في المياه . وخلال الفترة القصيرة التي تجد هذه المخلوقات ماء تسبح فيه – فانها تتزاوج وتتناسل وسرعان ما تدفن صغارها نفسها في الوحل الذي تراكم في قاع البركة ، وتبقى هناك بانتظار

الامطار التالية عندما تتكرر العملية ذاتها مرة اخرى . وانه لمن المدهش ان هذه المخلوقات تستطيع ان تبقى على قيد الحياة خلال فترات الجفاف الطويلة ، وان تشق طريقها بهذه السرعة الى الحرية المتوافرة في الماء .

السكان :

اما فيما يتعلق بسكان البلاد ، فانهم ينتمون الى مجتمعين رئيسيين تؤلف سكة الحديد بينهما حدا فاصلا على وجه التقريب ، ومن هذا نستطيع ان نستنتج نوع الحياة التي يحياها افراد كل من المجتمعين .

يقيم البدو في الشقة الشرقية وهم يسمون انفسهم العرب او العربان . وهذه التسمية صحيحة كلياً لان البدو هم العرب الخلّص ، ولا تجمعهم بالفلاحين والقرويين سوى روابط قليلة من ناحية الجنس . ومع ذلك فيحتمل ان يكون القرويون اقدم من البدو في الاقامة بالبلاد . والواقع انه بغض النظر عن التباين البسيط في شكل اللباس ، فان الفوارق الطبيعية تبدو واضحة لكل ذي عين متبصرة : البدوي بوجهه الدقيق النحيل وعينيه اللامعتين وجسمه الخفيف والفلاح بوجهه المستدير البشوش وجسمه الممتلىء . على ان قولا كهذا لا يخلو من صفة التعميم ، وانك لتجد حتما استثناءات لما تقدم بين البدو وبين القرويين .

كان البدو في الاصل قبائل رحّلا تتجول كل قبيلة ضمن منطقتها القبلية ، ولكنهم الان اخذوا يستوطنون بسرعة ويقتربون شيئا فشيئا من الشقة الغربية . وهذا التطور يحمل عموما معه قدرا معينا من الانحلال للروح البدوية الصافية ، إذ يتنفس البدو هواء البلدة او القرية بما فيه من ضلال وخداع — على ان هذا التطور قد يجعلهم مع ذلك اكثر نفعا للمجتمع . ولكن البدو رغم ذلك لا يفقدون قواعد سلوكهم الجميلة ولا روح الضيافة العظيمة فيهم ، وهي الصفات التي أطلق عليهم بسببها لقب « السادة الأجاويد » . انهم يعيشون في خيام من شعر الماعز ، تحيكها نساؤهم في شقق مستطيله ثم تخيطها الى بعضها البعض : وهم يعتمدون في عيشهم على تربية الماشية وقطعان الماعز والغنم والجمال ، كما تهتم بعض القبائل بتربية الخيول الاصيلة . ولكن غزو السيارات للبلاد قلّل كثيراً من الحاجة لاستعمال الجمال والخيول . يتنقل البدو مع مواشيهم من مرعى الى مرعى ، وفي فصل الصيف ترى الماعز والاغنام منهمكة في تقليب احجار الصوان الصغيرة كانها تقضمها ، لان العين لا تكاد تجد على الاض شيئا سواها :

ان البدو بطبيعتهم أفراديون وغيورون على استقلالهم الشخصي ، وهم يكرهون أي انتقاص لحريتهم . اما ولاؤهم فهو اولا لعائلتهم الاقرب ثم لعشيرتهم ثم للقبيلة التي ينتمون اليها . واذا اعلن شيوخ القبيلة ولاءهم الى حاكم اعلى فان افرادها يتابعونهم في ذلك . ولكن هذه النظرة الاستقلالية حالت بين البدو وبين ان يصهروا انفسهم في مجموعة مترابطة تسعى لتحقيق هدف معين ، حتى لو تولى قيادتهم اكثر الزعماء الموهوبين أهلية لذلك .

ويعيش البدو حياة بسيطة ، شاقة ولكنها على العموم سعيدة . مع العلم ان كثيرين منهم يتنهدون اذ يتذكرون ايام العز السالفة عندما كانت الجماعات الغازية تنقضّ هنا وهناك على الجهات المأهولة يصاحب انقضاضها ضجة كبيرة مع قليل من الخطر ، وعندما كان كل انسان لا يدري من اين تأتي الغزوة التالية . كان الغزو حقا رياضة البدو وتسليتهم المفضلة ، ولكن هذه العادة قُضي عليها كليا في الاردن ، وقد وقعت آخر غزوة قبلية عام ١٩٢٧ . ومع انه يسمح للبدو بان يحملوا السلاح من بنادق ومسدسات وسيوف وخناجر — الا ان مسلكهم لا غبار عليه ، وهذه الاسلحة تجعل من كل واحد منهم شرطيا على نفسه ، حتى هبطت الجرائم الى حدها الادنى . وللبدو مجموعة قوانينهم ومحاكمهم العشائرية الخاصة ، وهم في الاحوال العادية ميالون للهدوء واطاعة القوانين . وانك لتجد عددا من السود بين القبائل ، وهؤلاء هم أحفاد العبيد الذين استعربوا كليا واخذت القبائل تعتبرهم من ابنائها ، الا ان البدو لا يزوجون بناتهم لهؤلاء الملونين .

اما الجزء الثاني من الاهلين فهو الان مزيج من عدة عناصر ، ومن المحتمل انه كان كذلك دائما . هناك اولا الفلاحون والمزارعون ، وهؤلاء على الارجح احفاد الادوميين والمؤابيين والأموريين والعمونيين الذين تذكرهم التوراة ، وطراز حياتهم يختلف كثيرا عن حياة اولئك الاجداد . انهم كفلاحي اكثر بلدان العالم — بشوشون ، مضيافون ، شكّاكون ، يسهل خداعهم . وهم كأمثالهم في الاقطار الاخرى يشكّلون السلسلة الفقرية للبلاد ، لان ثروة الاردن الطبيعية تكمن كلها في الزراعة . على انهم يهتمون كثيرا بتطوير معداتهم ووسائلهم ، وقد بدأوا يستعملون المحاريث الآلية والحصّادات والدرّاسات وغير ذلك من الآلات الزراعية . ولكنهم محافظون في حياتهم المنزلية حتى لتجد مخطط منزل المزارع العادي يكاد يكون نسخة طبق الاصل من مخطط اي منزل قديم يعثر عليه علماء الاثار : ولا شك ان محافظتهم على تقاليدهم جديرة بالاعتبار ، لان الناس الذين يهملون تقاليدهم انما يهملون القاعدة الاساسية التي يمكن ان تبنى عليها تطورات المستقبل :

توجد في المناطق الشمالية قرى للشركس والشيشان ، كما يوجد عدد قليل من التركمان والدروز والبهائيين الايرانيين . واقد جاء هؤلاء الى البلاد قبل زمن بعيد ، والترك هم الذين جاءوا بالشركس والشيشان والتركمان في اواخر القرن التاسع عشر . ويقيم معظم الشراكسة في عمان وجرش وصويلح ووادي السير[1] وهم يتكلمون العربية بالسهولة التي يتكلمون بها لغتهم الأصلية ، كما أنهم في عهد الاتراك كانوا يتكلمون التركية ايضا . ولكن الجيل الجديد منهم اتخذ الانجليزية لغة ثالثة بدلا من التركية . ومن العسير التفريق بين ابناء الجيل الجديد وبين جيرانهم العرب ، اذ حدث بين الطرفين تزاوج كثير ، لان هؤلاء يدينون بالاسلام وكان دينهم سببا في اضطهاد الروس لهم وفرارهم الى تركيا . ويتألف الحرس الملكي كله من خيالة الشركس بألبستهم التقليدية ، وهي حقاً ألبسة جميلة جدا ومهيبة .

اما سكان المدن – من تجار وصنّاع وكتبة وغيرهم – فهم في الغالب من السوريين والفلسطينيين ، واذلك لتجد معظم الفلاحين والبدو يولدون ويموتون وهم مدينون لهم . على ان طريقة التعامل ، كما يبدو ، لا تتسبب في قضاء الليالي المسهدة ولا في خراب بيت اي من الطرفين – الا فيما ندر – فالدين يعقد بقلب لا تثقله الهموم مع تحفّظ مضمر بان قيمة الدين لن تؤدى نقدا . ولا يخفى هذا التحفظ عن التاجر ، لذلك تراه على اتم استعداد لاستلام قيمة الدين اشياء عينيه يمكنه بسهولة ان يحولها الى نقود . وهذه الملاحظات تنطبق فقط على صغار التجار والمزارعين ، اما في المدن الكبيرة كعمان واربد فان التعامل يجري على مقياس الاعمال الكبيرة في ايامنا هذه .

ان الاسلام هو دين الدولة في الاردن ، ولكن توجد في البلاد ايضاً طوائف من المسيحيين . ويبدو ان هؤلاء لم يفقدوا شيئاً من ولع اسلافهم البيزنطيين بتشييد الكنائس ، حتى لتجد سبع كنائس في قرية متوسطة كالحصن . وربما لا يمكن مقارنة هذه الجهود بجهود ابناء القرن السادس ، خاصة عندما يدرك المرء انه لم يكن في ذلك الحين سوى طائفة واحدة هي طائفة الروم الارثوذكس ، بينما قد نجد الان ان هذه الكنائس السبع تمثل سبع طوائف مختلفة :

---

(١) وعمان وناعور والزرقاء ايضاً

دائرة الآثار :

ولما كان هذا الكتاب يعالج بصورة رئيسية آثار الاردن ، فلا بدّ من كلمة حول دائرة الآثار الحكومية . يقع متحف الاثار ، وهو مركز الدائرة الرئيسي ايضا ، على جبل القلعة في عمان [1] وهو يضم مجموعة من المعروضات التي تصور حياة البلاد وتاريخها من عصور ما قبل التاريخ حتى سنة ١٧٠٠ ب م . حيث لا يعتبر ما يخص الفترة التي تعقب ذلك التاريخ — شيئاً اثرياً بصورة رسمية . ومهمة الدائرة الرئيسية تتعلق بالادارة ، وخلاصتها الحيلولة دون اتلاف او هدم المواقع الأثرية العديدة في البلاد ، وان تقوم باعمال الترميم والحفريات التي تغدو ضرورية من وقت الى آخر . وانك لتجد آثارا رائعة عديدة تمثل حضارة البلاد القديمة كالبتراء وجرش وام الجمال وبعض القصور الاموية الجميلة بالاضافة الى مئات من المواقع الأثرية التي لا تقل اهمية عما ذكرنا ، بل ربما كانت اعظم اهمية من وجهة نظر آثارية .

ولقد صدر قانون للآثار ينتظم جميع نواحي النشاط المتعلق بالاثار ، ومن أهم مواده منع القيام بحفريات على الآثار دون ترخيص ، لان حفريات كهذه لا تدمّر الاشياء القديمة فحسب بل تدمّر ايضا كل ما للموقع من قيمة أثرية وتاريخية . ويستطيع كل زائر للبلاد ان يساهم في انجاح هذه الخطة بان يرفض ابتياع الاشياء الأثرية التي تعرض عليه اثناء سفره . فالطلب تتبعه دائما محاولة للتلبية وهذه التلبية لا يمكن ان تتم بصورة قانونية مشروعه. والدائرة نفسها تعرض للبيع كمية صغيرة من التحف الأثريــة — أسرجة ونقود مثلاً — وهي تتميز بكونها أصيلة لا شك فيها ، بينما لا يكون ذلك مؤكداً اذا ابتاع الزائر شيئاً بالطرق المكتومة . اما اذا حدث وعرض عليك أثر لا تستطيع مقاومة الاغراء بابتياعه ، فالمرجو منك ان تتكرم بعرضه على احد الموظفين المسؤولين في الدائرة سواء في عمان او القدس ، قبل ان تأخذه معك الى بلادك حيث ربما لا تتاح مشاهدته لمن يستطيع ان يقدّر قيمته الأثرية . وقد يكون لذلك الأثر أهمية خاصة. وفي تلك الحال ربما شاءت الدائرة ان تسجّل ملاحظة عنه ، وربما أدّى ذلك الى ارشاد الخبراء نحو اكتشافات أخرى.

---

(١) كان الأمر كذلك قبلا ، اما الآن فقد بقي المتحف على جبل القلعة وانتقلت مكاتب دائرة الآثار الى أبهاء المدرج الروماني .

الفصل الثاني

تاريخ الأردن – عصور ما قبل التاريخ : النيوليثي (٨٠٠٠ – ٤٥٠٠ ق.م.) الخالكوليثي (٤٥٠٠ – ٣٠٠٠ ق.م) – العصر البرونزي الأول (٢١٠٠ – ١٥٠٠ق. م.) العصر البرونزي الثاني (١٥٠٠–١٢٠٠ ق.م.) – روايات التوراة (٢٠٠٠–١٣٠٠ ق.م.) العصر الحديدي (١٢٠٠–٣٣٠ ق.م.) –الحجر الموآبي – العهد الاشوري – ظهور بابل – الامبراطورية الفارسية – العصر الهيلليني (٣٣١–٦٣ ق.م.)– روما وبيزنطة (٦٣ ق.م – ٦٣٦ ب.م) – الاسلام (٦٣٦ ب. م.) .

اقام الانسان في الأردن ، كما اقام في سواه من اقطار الشرق الأدنى ، منذ عصور ما قبل التاريخ الأولى . على ان هذه البلاد لم تستمتع قط بقدر عظيم من الثروة والحضارة كما استمتعت الاقطار المجاورة لها كسوريا والعراق ومصر ، وتعود الأسباب الرئيسية الى عزلتها الجغرافية وعـــدم وجود موارد طبيعية كبيرة فيها . فمن الجهة الغربية يشكّل نهر الأردن والبحر الميت ووادي عربةحاجزا يفصلها عنفلسطين .. ومن الجهة الشرقية تحاذيها الصحراء الواسعة .. ومن الشمال حيث كان من المحتمل أن تندمج مع سوريا ، فـــان وادي اليرموك العميق يشكّل حداً طبيعياً .. اما من الجنوب فالحـــدود اكثر انفتاحا ، ولكن طبيعة الأرض الصحراوية لا تساعد على تيسير المواصلات .

ولكن بالرغم عن انعدام الاتصال المتين المباشر ، فهنالك دلائل كثيرة على وجود تأثير من مصر وبلاد ما بين النهرين . ولقـــد جاء هذا التأثير بصورة رئيسية عن طريق سوريا وفلسطين ، بل ان شيئا من التأثير البابلي تسلل عنطريق الجزيرة العربية . ويلاحظ ان الاشياء التي كان يستعملها الأقدمون يوميا ، كالفخّار مثلا ، تشبه الى حد كبير ما كان يستعمل منها في فلسطين ، ولكنها مع ذلك تحتفظ ببعض الفروق التي تدل على شخصيتها المحلية . كما ان الاردن انشأ على ايدي الانباط ، حضارة يمكن التعرّف على نماذجها في اي مكان .

لم تجر في البلاد حفريات على نطاق واسع حتى الآن ، ولا تدل المواضع الرئيسية التي أُجريت فيها الحفريات دلالة كافية على الطابع العام لشرقي الاردن . فلقد كان تل الخليفة ، قرب العقبة ، مكانا لصهر المعـــادن وميناء يكاد يكون دولياً ، هو عصيون جابر المذكورة في التوراة . أما تليلات الغسول(١) في وادي الاردن – واية مواضع اخرى هناك – فعلاقتها بفلسطين اكثر توثقاً من علاقتها بالمواضع الموجودة في الجبال . وقد أجرت بعثة امريكية بعض الحفريات في جرش ، ولكن جرش لا تمثّـــل سوى العصرين الروماني والبيزنطي ، حينما اختفت ملامح الشخصية المحلية تقريباً ، وتوطدت اسباب الحياة المعيشية في الامبراطورية الرومانية الى حد بعيد . اما الحفريات في البتراء وخربة التنّور بواديالحسا فتدل على حضارة الانباط ، بينما اجريت أبحاث في موضع يعود الى عصور مـــا قبل التاريخ ويقع في وادي ضبيعة(٢) بالصحراء الشرقية .والواقع ان الموضع الاردني النموذجي الذي تمت الحفريات فيه حتى الآن هو ذيبان،المذكور في التوراة باسم ديبون . ولقد كانت الحفريات فيه مخيبة للآمال نوعاً ما ، اذ تبين ان كل شعب من الشعوب التي تعـــاقبت على الاقامة فيه – كان يستعمل للبناء نفس الحجارة التي كان يستعملها من سبقوه ، فيهدمها ويعيد بناءها ، وبذلك فُقدت الطبقات الطبيعية التي كان يمكن ان تتراكم فوق بعضهاعلى مرّ العصور . ولقد قامت بعثة ايطالية باجراء بعض الحفريات على تل القلعة في عمان ، ولكن تبين ان الرومان كانوا قـــد ازاحوا جانبـــا معالم الشعوب التي سبقتهم . وقامت جمعيات امريكية وانجليزية بحفريات في أدر وبالوعة في منطقة الكرك،ولكن لم ينشر حتى الآن الا النزر اليسير مما اكتشفته وتوصلت اليه البعثات الثلاث الاخيرة ، ويمكن ان يقال نفس القول في حفريات تل الخليفة والتنور . وهكذا نرى ان هذه الحفريات لم تزد علمنا كثيراً بتفاصيل التاريخ الاردني . على ان القسم الاعظم من آثار البلاد ما يزال بكراً لم يمسّ ، وهو ميدان للبحث حـــافل بالاحتمالات الواعدة . واذا قدّرنا ان أثرين مهمين هما حجر بالوعة وحجر ميشع (راجع صفحة ٢٩ وصفحة ٣٤) قـــد عثر عليهما بطريق الصدفة ، فاننا نستطيع ان نتصور الآثار التي يمكن اكتشافها عن طريق البحث العلمي المنظم .

---

(١) بين قرية سويمة وطريق ناعور – القدس ، قرب الجسر الذي اطلق عليه اخيراً اسم « جسر الامير عبدالله».

(٢) شرقي القطرانة في الطريق الى قصر طوبة .

عصور ما قبل التاريخ

في العصور الجيولوجية الموغلة في القدم ، كانت اجزاء من شرقي الاردن تحت البحر ، تدل على هذا انواع من المحار والصدف المتحجر التي يعثر عليها في جوانب كثيرة من البلاد . وكذلك تحتوي مناجم الفوسفات في الرصيفة قرب عمان على عظام وهياكل اجسام لانواع كثيرة من السمك والسحالي الضخمة والسلاحف البحرية ، التي يعود عهدها الى حوالي ثمانين مليون سنة . ولقد تقلب المناخ في هذه البلاد ، عبر العصور ، من اشد درجات الحرارة الى اشد درجات البرودة ، وكذلك حدث في سقوط الامطار تبدلات عديدة ، كما ان البراكين والزلازل العنيفة كانت دائماً تفعل فعلها في تغيير شكل البلاد ومظهرها . وهنا يحسن لفت النظر الى ان العصور الجيولوجية تحسب بملايين السنين ، بينما لا تُعدّ العصور التاريخية الا بآلاف السنين .

العصر الباليوليثي : ٢٠٠٫٠٠٠ — ٨٫٠٠٠ ق.م.

لا بد ان تكون الاحوال التي رافقت ظهور الانسان في العصر الباليوليثي ، مماثلة للاحوال السائدة في عصرنا . وانك لتجد في كل مكان من البلاد الادوات الصوانية الكبيرة التي ندعوها : الفأس اليدوي ، والتي تعود الى العصر الباليوليثي الاول ، لان انسان ذلك العهد لم يكن قد صار كائناً اجتماعياً ، بل كان يعيش على ما تنبته الارض ، او على ما يستطيع ان يصطاد بيديه . ويبدو ان الانسان في العصور الاولى لم يكن يقيم في الكهوف ، بل كان يتجول فوق وجه الارض مثل بقية الحيوانات .

ومع مرور الزمن اخترع الانسان عددا من الادوات المختلفة : مقاشط لتنظيف الجلود ، اسنان لعمل الثقوب والخروق ، سكاكين للقطع . كما ان الادوات الخشنة الثقيلة الاولى تطورت مع الوقت حتى صار الانسان يصنعها اكثر خفة وتناسقاً . على ان التطور في الواقع كان بطيئاً جدا ، فلم تحدث سوى تغييرات بسيطة خلال ١٥٠ الف سنة . ولكن الانسان عثر على الحاسّة الفنية في نفسه مع نهاية العصر الباليوثي ، لذلك تجد في (كاوه) بجبل الطبيق على الزاوية الجنوبية — الشرقية للبلاد ، نقوشاً على بعض الصخور تمثّل اشكال الحيوانات التي كانت معروفة يومذاك . وهناك دليل طريف على قدم هذه الرسوم ،

بالاضافة الى الادوات الصوانية الكثيرة : ذلك ان كتابات ثمودية نقرت في الصخر ، فوق الرسوم الاولى ، حوالي القرنين الخامس او السادس بعد الميلاد . وما تزال خطـوط الكتابات بيضاء رغم تعرضها للشمس مدة ١٥٠٠ سنة ، بينما تحولت رسوم الحيوانات الاولى الى اللون الرمادي الغامق ، دليلا على انها تعرضت للشمس اضعاف المدة التي تعرضت لها الكتابات .

العصر النيوليثي : ٨٠٠٠ـ ٤٥٠٠ ق . م.

اخذ الانسان في هذا العصر يصنع ادوات على قدر كبير من النحافة والدقة والجمال ، بل انه توصل الى طريقة فنية اخرى ، الا وهي صقل اطراف الفؤوس القاطعة . اضف الى ذلك ان الانسان بدأ بالاستيطان واخذ يحيا حياة اجتماعية ، ويقيم في اكـواخ وقرى . وفي الحقيقة : فان الحفريات التي اجريت مؤخرا في اريحا ـ دلتنا على ان حضارة ذلك العصر كانت ارقى بكثير مما كنا نظن . فلم تكن اريحا التي تعود الى ذلك العصر مجرد قريـة ذات منازل حسنة البناء وارضيات مصقولة من الملاط ـ بل كان هنالك سور عظيم من الحجر حول البلدة كلها يحيط به خندق من جميع الجوانب . ان هذا ليدل على درجة عاليـة من التنظيم الجماعي ، وعلى اخضاع المنافع الشخصية للمصلحة العامة . اضف الى ما تقدم وجود برج فخم مستدير من الحجر تتوسط جوفه قصبة ذات درج متقن الصنعة ، مما يدل على رقي واسع في الفن المعماري . وفي هذا كله امثلة طيبة على ان الانسان النيوليثي الاول المقيم في وادي الاردن كان اكثر رقيا من الانسان المقيم في الاقطار المجاورة .

ولقد كان هؤلاء الناس على درجة من التقدم في مضمار الفنون ، لاننا نجد تماثيـل مصنوعة من ملاط الكلس على حجم الجسم البشري تقريبا . ويسترعي النظر ان القشرة الخارجية ملساء رقيقة ، وان الشعر والملامح الاخرى رسمت بالدهان ، وان صدفا رُصّع في مكان العينين . ومن الاكتشافات الملحوظة في اريحا مجموعة من الجماجم ، رسمت على كل منها ملامح الوجه البشري بملاط الكلس ، بعد تعبئة تجويف الجمجمة بالطين . ولقد بلغ تمثيل بعض هذه الجماجم حدا مدهشاً من الاتقان ، ممـا يدل على قوة ملاحظة في تشريح الشكل ، وهنا ايضاً نرى الصدف يحل في موضع العينين :

وتدل رؤوس السهام التي تم اكتشافها ، على ان القوس والنشاب اخترعـــا في هذا العصر ، كما ان نصال المناجل تعطي ايضا اول الدلائل على الزراعة . وهكذا لم يعد الانسان عالة على اهواء الطبيعة وتقلباتها فيما يتعلق بسلامته وموارد طعامه . وقد ظهر وجود قرى من هذا العصر في اماكن صارت اليوم جزءا من الصحراء كوادي (ضبيعه) شرقي زيزياء ، وانك لتجد ادوات من هذا الطراز في جميع ارجاء البلاد .

ولكن ربما كان اكتشاف طريقة صنع الفخّار ، هو اعظم انجازات العصر النيوليثي . ويبدو ان هذا الاكتشاف حدث حوالي سنة ٥٠٠٠ ق.م . ولا بد انه احدث انقلابا في الاحوال المعيشية ، مثلما احدث قبل ذلك اكتشاف المنافع الكامنة في الاسلحة الصوانية وحدودهــا المرهفة . واعتبارا من هذا التاريخ فصاعــدا يعتمد علماء الآثار على بقايا الفخار في متابعة تطور الحضارة وانتشارها اكثر مما يعتمدون على اية وسيلة اخرى . فالفخار سهل الانكسار كما انه سهل الصنع ، واذا انكسر وعاء الفخار فانه يطرح جانبا ، ثم ان كل شعب ابتدع شكلا وطرازا خاصاً به. وكانت أطرزة هذه الاشكال تتغير من عصر الى عصر . لذلك نرى صناعة الفخار اكثر رواجا من سواها ، كما ان اختلاف نماذجها يعد افضل وسيلة للتمييز بين الشعوب والجماعات . ومن هنا نرى ان عالم الآثار الضليع يستطيع بقدر كبير من الثقة والدقة ، ان يعيّن الموضع والتاريخ التي صنعت فيه هذه القطعة من الفخار أو تلك . وهناك بعض الدلائل على ان الانصاب Dolmens يمكن ان تكون مدافن موتى في ذلك العصر ، مع ان بعض الثقاة يعتبرونها من انجازات العصر الخالكوليثي : وهذه الانصاب عبارة عن بناء على هيئة صندوق قوامه الواح من الحجر توضع فوق جدار من حجارة اخرى واقفة . ولقد وجدت حقول من هذه الانصاب في جهات كثيرة من شمالي الاردن وخاصــة في وادي الاردن عند اسفل التلال الى الشرق من جسر دامية ، وكذلك عند سفوح التلال الى الشرق من (تليلات الغسول) وفي الاراضي الوعرة قريبا من حسبان ، وشرقي جرش ، وحوالي اربد . ومن المرجّح ان الدوائر الحجرية الكثيرة التي توجد هنا وهناك ، تعود ايضاً الى هذا العصر وان لها علاقة وثيقة بالانصاب .

العصر الخـــالكوليثي : ٤٥٠٠ ــ ٣٠٠٠ ق.م.

خطت الحضارة في تطوراتها خلال هذا العصر خطوات سريعة اجمالا ، وقد اعقب اختراع صناعة الفخار اكتشاف وسيلة تطبيقية أخرى ذات أهمية بالغــة ــ ألا وهي صهر

النحاس . ولكن الجهود الاولى في هذا المضمار لم تخرج عن طور المحاولة التجريبية . وظلت الادوات الصوانية تستعمل مدة من الزمن في هذا العصر ، الذي اتصلت اثنـــاءه التجارب لصناعة استخراج المعادن .

وتعطينا الحفريات التي أجريت في (تليلات الغسول) في وادي الاردن ، صـــورة للحياة في هذا العصر ، حوالي سنة ٣٥٠٠ ق.م . تقريبا . هنـــا كانت قرية متوسطة ذات منازل حسنة البناء ، بعضها بني من الآجرّ المجفّف بفعل حرارة الشمس فـــوق اساس من الحجر ، وبعضها الآخر بني كليا من الآجر الترابي . اما السقوف فيحتمل انهـــا كانت من الخشب وأعواد القصب والطين ، مثلما يبني كثيرون من سكـــان وادي الاردن المعاصرين سقوف منازلهم . وترى جدران بعض المنازل وقد طليت بالكلس ودهنت بألوان فاتحة مع رسوم تمثل الانسان والنجوم واحيانا بعض الأشكال الهندسية . . ولقد أحرزت صناعـــة الفخار تقدما ملموسا اذ كانت تشوى جيدا في النار ، وصارت تصنع على أشكال عديدة وزخارف مختلفة ، وكانت هذه الزخارف غالبا ما تمثل رسوما هندسية متقنة لونها أحمر او بني . وترى على قواعد بعض جرار الفخار آثار عيدان القصب الملتوية ، مما يدل على صناعة الحصر والسلال . بينما تدل بعض الحجارة المستديرة المثقوبة انهم كانوا يستعملونها مغازل لغزل الخيوط . وكانت النساء يتزيّن بقلائد من الصدف والحجارة . اما الرجال ــ اذا صح تفسير الرسوم ــ فقد كانوا ذوي لحى ويستعملون الوشم ، بينما بدا أحد الاشخاص وهو يلبس خفين مزّينتين .

وعلى وجه الاجمال يعتبر هذا العصر والعصر البرونزي الاول الذي جاء بعده ، من العصور التقدمية الوفيرة الخيرات ، ولا بد أن البلاد كانت في حالة أمن وطمأنينة لان القرى لم تكن محصّنة تحصينا قويا.

العصر البرونزي

البرونزي الأول ٣٠٠٠ ــ ٢١٠٠ ق.م

تعتبر هذه الفترة استكمالا مباشرا للتطور الذي تمّ احرازه خلال العصر الخالكوليثي ، وقد أصبح المعدن يستعمل فيها بكميات أكبر . وأخـــذ الانسان يصنع من النحاس الاحمر أدوات مختلفة كالسيوف والخناجر ورؤوس الرماح الكبيرة . وبالمناسبة ، فان اطلاق اسم

العصر البرونزي لا يعتبر تسمية صحيحة نوعا ما بالنسبة للفترة الاولى والمتوسطة، لان جميع الادوات التي تم تحليلها كانت من النحاس وليس من البرونز . والواقع أن هذه التسمية أطلقت في الايام الاولى للابحاث الأثرية، ولكن استعمالها شاع بين الناس كما تشيع كثير من التسميات المغلوطـــة :

لم تجر حفريات في أي موضع يعود عهده الى هذه الفترة في شرقي الاردن ، ولكـــن وجدت في حفريات ذيبان جيوب من بقايا سكنى الانسان : على ان هنالك دلائل وافية على وجود مواضع من هذا النوع ، وذلك في البقايا الفخارية التي يمكن مشاهدتها ملقاة عـــلى سطوح بعض التلال . وفي مجموعات كبيرة من الفخار والادوات الاخرى التي يعـــثر عليها في الاضرحة في أماكن مختلفة من البلاد . ولقد كانت السكنات اكثر ما تكون في الشمال ، الا أن خطاً رفيعا من هذه المستعمرات يمتد من الشمال الى الجنوب : من اليرموك حـــتى الشوبك . اما الى الجنوب من الشوبك فلم يتم العثور بعد على أية آثار من هذه الفترة . ومن المحتمـــل أن يشير هذا الخط الى طريق التجارة الذي كان يتفرع الى مصر وفلسطين ، من أقصى نقطة في الجنوب ، كما يحتمل انه يمثل حدود الأرض التي كانت تستطيع تموين السكان المقيمين عن طريق استعمال الطرق والوسائل الزراعية المعروفة يومذاك .

البرونزي المتوسط ٢١٠٠ — ١٥٠٠ق.م .

انتهى العصر البرونزي الاول نتيجة لغزوة قامت بها قبائل بدوية . ومع ان حضارة هذه القبائل كانت ادنى بكثير من حضارة السكان المستوطنين ، الا ان هؤلاء كانوا فيما يبدو اكثر استعدادا للحرب ، لانهم استولوا على جميع المـــدن والقـــرى الرئيسية ودمروها ، واستطاعوا أن يوقفوا المد الحضاري الذي كان يسير الى الامام بخطى ثابتة. على ان ذلك التوقف كان مؤقتا ، لأن قبائل البادية نفسها لم تلبث ان طردت من البلاد عـــلى ايدي غزاة قادمين من الشمال هم الهكسوس او ملوك الرعاة كما تسميهم التوراة . ولقد جاء هؤلاء الناس معهم بحضارة بالغة التفوق ، واذ كانت البلاد في حالة فوضى — كما يظن — فانهم لم يجدوا صعوبة في توطيد أقدامهم ومد سلطانهم حتى مصر التي افتتحوها وحكموها مدة من الزمن . وبمجيء هؤلاء القوم ، يظهر نموذج من الفخار جديد كـــل الجدة ، وعـــلى قدر عظيم من التطور في الصنعة والاتقان والجمال . وبهـــذا نرى النماذج والطرز الـــتي كانت تتطـــور بصورة مطردة خـــلال العصر الخالكوليثي والبرونزي الاول — نرى انهـــا سرعان مـــا تتوقف كليا وتندثر . وهنا تبدأ البضائع الكمالية بالظهور ، ومعظمها يستورد مـــن مصر ، ويتكون عند المرء انطباع عن نشوء حضارة تتسم الحياة فيها بمزيد من الحرية والاتساع .

وفي هذه الفترة يحدث تطور مهم آخر ، الا وهو ظهور المدن والقرى ذات الحصون القوية : لقد انقضى عهد الامن الداخلي ، الذي لا تستعيده البلاد في الواقـــع الا عند مجيء الرومان . ولقد كان الهكسوس انفسهم هم الذين ادخلوا الحصان والمركبة الى الشرق الاوسط .

اما فيما يتعلق بالاردن خاصة ، فلا تتوافر دلائل كثيرة في الوقت الحاضر على ان حضارة الهكسوس كان لها أي تأثير ، وحتى الان لم توجد القطع الفخارية الخاصة بالهكسوس الا في اضرحة بعمان وناعور وجبل نبو . والواقع انه من العسير ان نعرف على وجه دقيق ، مـــا كان يحدث في هذه الاثناء في بقية البلاد . من المحتمل ان الهكسوس لم يحاولوا افتتاح البلاد كلها وان الاجزاء الاخرى بقيت تحت حكم البداة ، على اساس انه لم تكن هناك غنـــائم كثيرة يطمع فيها الهكسوس . ومع ذلك يبقى كثير من الغموض حول الموضوع .

طرد المصريون الهكسوس حوالي سنة ١٥٠٠ ق . م . وهكذا تشهد الفترة الثانية من هذا العصر نشوء الامبراطورية المصرية الكبيرة ابان عهد الاسرة الثامنة عشرة.

البرونزي الاخير ١٥٠٠–١٢٠٠.ق. م

لنعد الان الى قضية اقامة السكان في شرقي الاردن خلال هذه الفترة . ولقد تكوّنت فكرة عامة عند الباحثين ، ان شرقي الاردن كانت خالية من السكان خلال فترة السنوات ١٩٠٠ ق . م — ١٣٠٠ ق . م . أي حوالي ستمئة سنة : من حوالي منتصف العصر البرونزي الاوسط الى نهاية العصر البرونزي الاخير تقريباً . وقد كوّن الباحثون هذه الفكرة على اساس الابحاث التي اجروها في مئات المواضع في طول البلاد وعرضها . ونتيجة لهذا ، نشأ الاعتقاد بان البلاد لم تكن مأهولة خلال هذه الفترة الا بالبدو الرحّل .

ولكن ، كما بيّنا سابقا ، نرى ان منطقة عمان على الاقل كانت مأهولة بالسكان الحضر خلال فترة الهكسوس اثناء العصر البرونزي الاوسط . يدل على هذا الاضرحة العائلية الواسعة المزودة بجميع ادوات الدفن ، والتي عثر عليها في عمان وناعور ، ولا يمكن ان تكون من صنع البدو . ولقد توافرت قبل سنوات قليلة ادلة القت ضوءا جديدا على الموضوع ، الا وهي اكتشاف هيكل صغير خلال اعمال الانشاءات في مطار عمان الجديد . كان ذلك الهيكل يحتوي على مقادير كبيرة من الاواني الفخارية والادوات الاخرى ، ومن جملتها اواني فخاريـــة مستوردة من مسّينا(١) وقبرص ، وأصص حجرية للزهور من مصر ، وكلها من نماذج فترة

---

(١) مسينا : مدينة يونانية قديمة اشتهرت بحضارتها .

السنوات ١٦٠٠ — ١٣٠٠ ق . م . وهذا يوحي الينا بأن عمان كانت مسآهولة بالسكان المتحضرين ،لان وجود الهيكل يدل على وجود رجال دين واناس يتعبدون .اضف الى هذا كله ان ضريحاً كبيراً اكتشف في مادبا ، وهو يعود الى الفترة الواقعة بين نهاية العصر البرونزي الاخير واوائل العصر الحديدي .

لقد تكونت فكرة عدم وجود سكان حضر في شرقي الاردن خلال الفترة المذكورة اعلاه ، نتيجة لعدم وجود مجموعات فخارية تعود الى العصر البرونزي الاوسط والاخير ، ولعدم العثور على اية اواني فخارية مستوردة من الخارج كنا نجد الكثير منها في فلسطين .ولكن الاكتشافات الحديثة التي جعلتنا نملك مجموعات فخارية موثوقة التاريخ — برهنت لنا أن صناعة الفخار المحلية لتلك الفترة تماثل الى حد كبير الفخار المعاصر لها الذي كان سائداً في فلسطين .

وعلى هذا ، فيجب ان يعاد فحص القطع الأثرية التي عثر عليها اثناء المسح العام على ضوء هذه الاكتشافات الجديدة . واقل ما يمكن ان نقوله الان ان عمان كانت بلدة ناشطة في تلك الفترة لان الهيكل — رغم صغر حجمه — كان هيكلا فخما .

روايات التوراة : ٢٠٠٠ — ١٣٠٠ ق . م .

ان المعلومات التي جاءت في التوراة يمكن ان تساهم في ايضاح الخطوط العامة لاحوال البلاد اثناء العصر البرونزي الاوسط ، والتي جرى استنتاجها من البحوث الآثارية . لذلك يتوجب علينا ان نعود قليلا الى الوراء لاستكمال معالم الصورة .

نرى مما جاء في سفر التكوين : ان الجزء الجنوبي من البلاد ، وهو الجزء الذي يمتد من وادي الحسا الى خليج العقبة ، كان يدعى (سعير) ونحن ندعوه اليوم (الشراة) وهي تسمية متطابقة ، وان هذا الجزء كان مأهولا بالحوريين ، سكان الكهوف . كما ان هذه المنطقة كان يطلق عليها ايضا اسم (أدوم) وانها اعطيت لعيسو ، الذي عمل احفاده بالتدريج على طرد الحوريين او القضاء عليهم ، ثم احتلال البلاد باجمعها . وتتضمن التوراة قوائم بأسماء ابناء سعير الحوري وابناء عيسو ، الذين تطلق التوراة عليهم لقب (امراء) والاصح ان يطلق عليهم لقب (شيوخ). كما تعطي اسماء ملوك ادوم ومدنهم الرئيسية . ونحن نستطيع الان ان نتعرف على اسم بلدة واحدة من تلك البلدان ، هي (بصيرة) الواقعة قرب الطفيلة ، والتي تدعوها التوراة باسم (بصرة) . وقد ذكرت التوراة ايضا نبأ معركة وقعت مع مديان ، المجاورة لادوم من جهة الجنوب في ارض موآب . ان هذه المعلومات عن فترة تقع حوالى سنة ٢٠٠٠ ق . م. تدلنا ان سكان البلاد كانوا يعيشون حياة قبلية ، كل قبيلة لها شيوخها وشيخ شيوخها ، او الملك ، الذي كان قراره نهائيا في جميع الشئون الادارية ، والذي كان يقود الجيش يوم المعركة .

ان مجرد ذكر مديان وموآب – الجارتين الجنوبية والشمالية لأدوم – يدلنا ان هاتين المملكتين كانتا قائمتين فعلا يومذاك . واننا نلاحظ ان الانباء التقليدية المتعلقة بأصل موآب وجارتها الشمالية عمون ، قد وردت في سياق قصة لوط وبناته . ويبدو لنا ان هاتين المملكتين المتحدرتين من اصل واحد ، كانتا تشتركان في مصالحهما العامة ، حتى نرى قصص التوراة المتأخرة كثيراً ما تخلط بينهما . على أن التوراة حرصت على تعيين حدودهما بدقة ووضوح ، فموآب تمتد من وادي الحسا (زرد) الى الموجب (ارنون) ، وعمون تمتد من الموجب الى الزرقاء (يبوق) . ومع ذلك فان التوراة تذكر ان عمون وموآب كانتا في العصور السابقة خاضعتين لأجناس من العمالقة ، كانوا يدعون (إيميين) في موآب و(رفائيين) و(زمزميين) في عمون . وقد بقي الوضع كذلك حتى ساق (كدرلعومر) ملك (عيلام) حملة تأديبية سحقت قوة هؤلاء العمالقة كما سحقت قوة « الحوريين في جبلهم سعير » . ومن المحتمل ان هذه الحملة جعلت اقامة عيسو وموآب وبني عمي في البلاد اكثر استقرارا .

تصمت التوراة عن احداث شرقي الاردن حتى زمن خروج الاسرائيليين من مصر . ولقد اجمع الباحثون الثقاة على ان تاريخ الخروج يقع إما في القرن الخامس عشر او القرن الرابع عشر ق . م. بل ان معظم الدلائل تشير الى ان الخروج وقع في القرن الرابع عشر حوالي ١٣٢٠ ق.م. ومن الغريب ان الابحاث الآثارية توحي بأن البلاد لم تكن مأهولة خلال تلك الفترة ؛ وكذلك تصمت التوراة عن ذكر احداثها . ولكن ايا كان التاريخ الصحيح لخروج الاسرائيليين – فان التوراة تنص على وجود عدد كبير من السكان المقيمين في آدوم وموآب وعمون ، وبطبيعة الحال لا يمكن ان يتكاثر اولئك السكان الى ذلك الحد خلال جيل واحد (١)

---

(١) طلع الدكتور نلسون جلوك (وهو يهودي) بهذه الفكرة في كتابه « الجانب الآخر من الاردن The Other Side of the Jordan » . وقصد اليهود من هذا الايحاء ، بان البلاد لم تكن مأهولة بقوم متحضرين مستقرين اثناء الغزوة الاسرائيلية ، وان اهلها لم يكونوا سوى قبائل بدوية طارئة . ولكن الدلائل الأثرية تؤكد ان البلاد كانت مأهولة بقوم ذوي حضارة تفوق حضارة القبائل الاسرائيلية الغازية التي كانت على قدر عظيم من التوحش والهمجية كما نفهم من اقوال التوراة نفسها . والمؤلف نفسه يرى ان الدلائل متوافره على وجود حضارة واستقرار خلال الفترة ١٧٠٠ – ١٢٥٠ ق.م . اى قبل حدوث الغزو الاسرائيلي . ومن تلك الدلائل المعبد الذي عثر عليه في ارض المطار في عمان ، والمدافن التي اكتشفت في جبل القلعة وفيها ادوات عديدة ، ومكتشفات اخرى في ناعور وصويلح بالاضافة الى فخار المسينيين الذي يدل على ازدهار التجارة . وقد جرى التثبت حديثاً من ان عمان كانت ذات مدنية زراعية مزدهرة خلال الفترة ١٨٠٠–١٣٠٠ ق.م (راجع حولية دائرة الآثار – المجلدين الرابع والخامس ، ١٩٦٠ وكتاب الاردن الحديث الذي اصدرته مديرية المطبوعات ، ١٩٦٢) .

الاصحاح العشرون من سفر العدد :

عندما وصل بنو اسرائيل الى قادش في الجنوب من فلسطين، وجدوا آدوم مملكة جيدة التنظيم وعلى رأسها ملك يحكمها . وكتب الاسرائيليون الى هذا الملك من قادش «مدينة في طرف التخوم» يطلبون منه السماح لهم بالمرور من اراضي آدوم في هدوء «في طريق الملك نمشي، لا نميل يمينا ولا يسارا ، حتى نتجاوز تخومك» . ولكن طلب الاسرائيليين قوبل بالرفض ، وقيل لهم بأنهم سيقابلون بالقوة اذا حاولوا العبور . وكرر الاسرائيليون طلبهم ، فأعدّ الملك قواته الحربية وخرج بها حتى اقتنع اولئك انه يعني ما يقول . ان الاشارة الى « طريق الملك » ذات اهميـــة خاصة، وهي تؤيد قول البعض بأن طريقا للقوافل كانت تشق البلاد من الشمال الى الجنوب . وهكذا أرغم الاسرائيليون على الالتفاف حول تخوم ادوم . وقد فعلـــوا هذا بالسير جنوبا حتى خليج العقبة ، ثم استداروا — كما يظهر — باتجاه الشمال الشرقي نحو معان ، ومن هناك واصلوا سيرهم شمالا ، في خط يكاد يواكب الطريق الصحراوية الحالية . فمروا بوادي الحسا (زارد) ووادي الموجب (ارنون) الذي كان يعتبر بداية ارض الاموريين ، اذ يبـــدو ان هؤلاء الاموريين كانوا قد اخرجوا العمونيين من تلك المنطقة وحلوا محلهم . وكان سيحون يومذاك ملك الاموريين وعاصمته حشبون (حسبان) قريبـــا من مادبا . والى هذا الملك طلب الاسرائيليون ان يسمح لهم بالعبور من ارضه . ورفض سيحون ان يسمح ، واشتبك معهم في معركة انجلت عن هزيمته وسقوط مملكته بأيدي الاسرائيليين « من ارنون الى يبوق ، الى بني عمون » .

وجاء في نص آخر لنفس القصة (التثنية ٢) ان موسى عندما طلب الاذن بالمرور سلما ، وان يسمح لقومه بابتياع الطعام والماء — اضاف قائلا « كما فعل بي بنو عيسو الساكنون في سعير والمؤابيون الساكنون في عار » . مما يوحي بانه عومل هناك معاملـــة طيبـــة . ان هذه الاختلافات الغريبة ، التي تشتمل التوراة على كثير منها ، تجعل امر تنسيق تاريخ تلك الفترة على شيء من الصعوبة . وهذا النص الثاني نفسه يقول ايضا ان الاسرائيليين قتلوا كل رجل وامرأة وطفل في المدن التي شاء سوء طالعها ان تسقط بايديهم ، وكان سيحـــون قبل ذلك بمدة من الزمن ، قد اشتبك في قتال مع مؤآب ودمر بلدة عار (ربما تكون الكرك او الربة) وكذلك دمّر (اهل مرتفعات ارنون) . ويقصد بذلك صور الآلهة في المعابد المختلفـــة . لقد كان معبود مؤآب الاكبر يسمّى (كموش) الذي قيل بعد ذلك ايضا انه كان آله العمونيين ؛ ولكن المقتطفات تدل ان كل منطقة كان لها معبودها او البعل الخاص بها ، الذي لا يكون في العادة سوى نسخة مختلفة قليلا عن المعبود الرئيسي . اما المدن الاخرى التي تذكرها نصوص

التوراة عند ذاك ، فهي ديبون (ذيبان) ومادبا وهما معروفتـــان جيدا في يومنا هذا . وهناك (نوفح)التي لم يتم التعرف على مكانها حتى الآن .

سفر العدد ــ الاصحاحان ٢٢ و ٢٣ :

بالرغم عن ان الاسرائيليين هزموا سيحون ، فقدكانت هناك كما يبدو قوات كبيرة الى الغرب من اراضي سيحون . لان الاسرائيليين لم يستطيعوا التقدم الى وادي الاردن ، للوصول الى فلسطين عن اقرب طريق . بل كان عليهم ان ينحرفوا شمالا الى باشان واذرعي (درعا) . وبعد ان الحقوا الهزيمة بعوج ملك باشان (الذي كان سريره الحديدي يومذاك في عمان) اصبح من السهل عليهم ان ينحدروا الى وادي الاردن، وينصبوا خيامهم في« سهول موآب » على الترجيح حوالي موقع شونة نمرين المعروفة الآن .

وكان ملك موآب يومذاك هو بالاق بن صفور ، ونتيجة لاهتمامه الشديـــد باقتراب الاسرائليين المنتصرين من تخوم بلاده، فانه سارع الى تأليف حلف مع ملوك مديان الخمسة، وهي البلاد الواقعة الى الجنوب الشرقي من العقبة ، اي الحجاز . وقام هؤلاء الملوك بدعوة بلعام ، الذي كان كما يبدو نبياً مشهورا وحكيما ، لكي يأتي ويلعن بني اسرائيل قبل ان يشنوا الحرب عليهم . ولكن كان عليهم ان يرسلوا وفدين الى بلعام حتى وافق على المجيء، بل انه جاء على شرط واضح انه لن يقول الا ما يأمره الله بقوله . واننا نجد في وصف ما حدث بعد ذلك ــ لمحة طريفة عن الاحتفالات الدينية في ذلك العهد . ومضى بالاق ومعه بلعام الى مرتفعات البعل،فامره هذا ان يبني سبعة مذابح ويضحي ثورا وكبشا على كل مذبح منها.وعندما تم هذا ، طلب بلعام من بالاق ان يقف الى جانب تقدمته ، بينما يمضي هو الى « رابيـــة » لتلقي الوحي من الله . وحينما عاد وجد بالاق وجميع رؤساء موآب ينتظرون عودتـــه الى جانب المحرقات ، فأخذ يبارك بني اسرائيل بدل ان يلعنهم كما كان منتظرا : ولا بد ان بالاق فوجيء واستولت عليه الدهشة ، ولكن عزيمته لم تهن ، فاقترح ان يأخذ بلعـــام الى موضع اخر لعله يتلقى وحيا مغايرا لما سبق.وعلى هذا أعيد الاحتفال الديني وقدمت المحرقات مرة ثانية على قمة (سياغة) ولكن النتيجة لم تختلف عن نتيجة التجربة الاولى : ورغم هذا فان بالاق لم يقنط، فكرر العملية في موضع ثالث وتكررت النتيجة اياها . وعندئذ نفض بالاق يديه من الموضوع ، كما يبدو انه تخلى عن فكرة محاربة الاسرائيليين، الذين حولوا اهتمامهم، لسبب ما، نحو جموع المديانيين . ووقعت المعركة بين الطرفين ، واثناء القتال سقط بلعام نفسه صريعا ، وهو يحارب ضد الشعب الذي باركه قبل قليل والذي تنبأ له بمستقبل عظيم :

واتخذ سبطا جاد وراؤبين ونصف سبط منسّى –منطقة الاموريين والعمونيين وباشان ، دار اقامة لهم ، واخذوا يبنون – أو يعيدون بناء –القرى والبلدان العديدة التي يمكن التعرف على بقاياها حتى اليوم . ومضى موسى الى قمة جبل نبو ، الذي كان معبدا من معابد الموآبيين ، حيث القى انظاره نحو أرض الميعاد . ومات موسى هناك ، ودفن في مواجهة معبد البعل في (بيت فغور) . ولقد كانت وفاته نهاية غريبة بالنظر لكونه قضى كل حياته وهو يحارب هذه الالهة الوثنية. ولم يلبث الاسرائيليون بعد ذلك حتى عبروا الاردن بقيادة يشوع بن نون. وابتداء من هنا وطّن سكان شرقي الاردن انفسهم على قضاء مدة طويلة من الزمن في صراع مرير ومعارك عنيفة مع الاسرائيليون (١) .

العصر الحديـدي ١٢٠٠–٣٣٠ ق. م.

اصطلح العلماء على تقسيم هذا العصر الى ثلاث مراحل : الحديدي الاول ، والحديدي الثاني والحديدي الثالث . وهو يبدأ حوالي سنــة ١٢٠٠ ق . م . وينتهي سنة ٣٣٠ ق . م . ولكنني اغفلت التقيد بهذه المراحل في هذا الاستعراض الخاطف ، لان احداث العصر ياخذ بعضها برقاب بعض وتكاد تكون سلسلة واحدة .

ان الابحاث الأثرية تعطينا لمحات قليلة ذات قدر عظيم من الطرافة – رغم ايجازهـــا الشديد – عن الاحوال المعيشية في بداية هذا العصر . ولقد تم العثور في بالوعة – وهي قرية صغيرة خربة في الجانب المؤابي من الموجب غير بعيد عن الربة – على نصب كبير من الحجر الناري الاسود ، وقد نقشت على صفحته كتابة في اربعة سطور ورسوم ثلاثــة شخوص آدمية . ان الشخوص تمثل – كما يبدو – ملكا يقف بين آلهين . وتدل هيئة الشخوص على تأثير مصري قوي جدا ، مع انه من المؤكد ان الأثر نفسه غير مصري . يعتمر كلا الالهين بتاج مصري ويحمل أحدهما صولجانا مصريا (Uas) كما انهما يرتديان مع الملك ملابس على الزي المصري : والملامح الوحيدة التي لا يبدو فيها الطابع المصري هي غطاء رأس الملك ورمز القمر والشمس (؟) فوق كتفيه . وانه لمن سوء الحظ ان تقلبات الطقس تركت اثارها على الكتابة بحيث كادت تنطمس معالمها ، وغدا من المستحيل قراءة حروفها او التعرف على

---

(١) يشير المؤلف الى ما في اقوال التوراة من تناقض . واود ان اضيف الى ذلك انني لا اعتقد بصحة كثير من المعلومات التي تذكرها التوراة ، ويؤلف حجر ميشع والكتابات التي نقشت عليه – دليلا ماديا على عدم صحة بعض اقوال التوراة ، لذلك يجب النظر الى ما جاء فيها بعين الحذر والتحفظ الشديد .

شكل الفبائها. ويميل بعض الباحثين الى القول بأن النصب يعود في الاصل الى العصر البرونزي الاول . . وان استعماله قد اعيد في العصر الحديدي الاول .

ان ضريح مادبا الذي اشرنا اليه سابقا ، يدلنـا على نوع الاشياء التي كان الناس يستعملونها والملابس التي كانوا يرتدونها في اواخر العصر البرونزي الاخـير وبداية العصر الحديدي . اما الادوات الفخارية فصناعتها ضعيفة للغاية ، بل يمكن اعتبارها اقل جودة من أية أدوات فخارية اخرى عثر عليها خلال تاريخ الاردن الطويل . فلقد صنعت في اشكال بدائية غير متناسقة وكان شيها بالنار سيئا . وهناك خناجر من البرونز ، ولاحدهـا طرف كان في الاصل مثبتا في مقبض خشبي . وهناك ايضا رؤوس سهام وبعض قطع اسلحة اخرى من البرونز . ومن ادوات الزينة توجد أساور من الحديد والبرونز ، وخلاخيل ، وخواتم وحلق ودبابيس لشبك الملابس ببعضها ، وكذلك حبات مسابح من الحجر والملاط المصقول . ويكمل الصورة وجود بعض الجعلان التي كانت هوايتها سائدة على زمن الأسرتين التاسعـة عشرة والعشرين في مصر ، وتعويذة على شكل عين مصرية مصقولة .

هذا التأثير المصري القوي المتمثل في هذين الأثرين – لا نجد له ذكرا في أي سفر من أسفار التوراة : أضف الى هذا ان السجلات المصرية نفسها تأتي على ذكر بعض الاماكن في شرقي الاردن ابان عهد الاسرة التاسعة عشرة .

سفر القضـاة ، الاصحاح الثالث :

اذا رجعنا الى ما جاء في التوراة ، وجدنا في سفر (القضاة) ان عجلون ملك مؤاب زحف على فلسطين غازيا ، بل نرى انه يقيم فيها . ثم نرى الاسرائليين يتحالفون مع العمونيين ومع العمالقة الذين قدموا من جنوبي فلسطين ، ويقتلون عجلون غيلة في أريحا حوالي سنـة ١١٥٠ ق.م. ويطردون المؤابيين بعد ذلك من البلاد بعد مذبحة عظيمة جدا .

سفر القضـاة ، الأصحاح السادس :

بعد هذا نقرأ أن المديانيين قاموا بهجوم على اسرائيل ، ولما كانت منطقتهم تقع الى الجنوب الشرقي ، وراء العقبة ، فلا بد أنهم كانوا متحالفين مع شرقي الاردن ، او انهـم عبروا منها للقيام بهجومهم على فلسطين . واننا نرى من تفاصيـل الحديث ذكرا لجمالهم ، ومن هذا نفهم أن قوات بدوية كانت ترافقهم . وقد أوقع جدعون قاضي اسرائيل يومذاك ،

الهزيمة بهم عن طريق الخديعة . وأسر أميرين من أمرائهم هما غراب وذئب ، ثم لاحق القوات المهزومة عبر الاردن عن طريق مخاضة (دامية) كما يبدو ، مارا بسكّوث في الوادي ثم صعداً مع نهر يبوق (الزرقاء) الى جبهة (هي الجبيهة قريبا من عمان) . وهنا فرّ زبح وصلمناع ملكا مديان الى قرقر ، في مكان ما من وادي السرحان ، في طريق العودة الى بلادهما ، ولكن جدعون تابعهما وألحق بهما الهزيمة الاخيرة هناك . ووقع الملكان أسيرين بيد جدعون ، فعاد في نفس الطريق التي جاء منها كي ينزل العقاب بسكان فينوئيل وسكوّث(١) الذين رفضوا مساعدته عند خروجه لمطاردة المديانيين . وبعد هذا ذبح جدعون ملكي مديان « وأخذ الاهلّة التي في اعناق جمالهما » . وغنم الاسرائيليون أيضا كمية كبيرة من الغنائم وأكثرها من أقراط الذهب الذي كان يتحلى به رجال مديان « لانهم اسماعيليون » .

سفر القضاة ، الاصحاح العاشر :

بعد هذا ، سرعان ما نرى العمونيين يشنون الغزوات اولا على الاسرائيليين النازلين في بلادهم . وبعد أن أحرزوا شيئا من النجاح هنا أخذوا يشنون الغزوات على الاسرائيليين في فلسطين . وفي هذا الوقت كان يفتاح زعيم اسرائيل. فأرسل اليه ملك عمون يطالب باعادة الاراضي التي أخذها الاسرائيليون في عهد موسى . ورفض الطلب طبعا . وفي المعركة التي حدثت بين الطرفين بعد ذلك لحقت الهزيمة بالعمونيين حتى ان الاسرائيليين غزوا الاراضي المحيطة بحسبان . وفي بداية حكم شاؤل نرى العمونيين يهاجمون الاسرائيليين مرة أخرى في يابيش جلعاد ، ونرى الهزيمة تحل بهم عن طريق استعمال الخديعة . وكان ناحاش يومذاك ملك عمون .

صموئيل الاول :

لا تذكر أدوم او مؤاب خلال هذه الفترة كلها الا بصورة عابرة . لقد كان داود يلجأ الى وادي عربة وأدوم ومؤاب وربما الى عمون ، أثناء فراره من وجه شاؤل . وعندما أصبح داود ملكا حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م . قام بهجوم على مؤاب وأدوم وأخضعهما ، رغم الروابط العائلية ورغم انه كان يجد فيهما ملجأ أمينا في أيام محنته ، وفي مؤاب ذبح ثلثي السكان . وكان الادوميون يقومون بغزوة على جنوبي فلسطين ، فألحقت بهم الهزيمة هناك على أيدي قوة يقودها يؤاب . وقد ظل يؤاب يطاردهم حتى وصل الى بلادهم وأخذ يقتل كل ذكر منهم يقع بين يديه . وفر الامير الادومي الصغير (هدد) الى مصر ، فاستقبله فرعونها استقبالا حسنا (ربما كان سيمون أو باسبخانو) وأعطاه بيتا ينزل فيه ومزرعة ، ثم زوجه من اخت الملكة .

---

(١) يرجح الباحثون ان (فينوئيل) هي: قرية (برما) وان (سكوث) هي : (دير علا) .

صموئيل الثاني ، الاصحاح العاشر :

أرسل داود وفدا الى حانون ملك عمون لكي يقدم اليه التعازي بوفاة أبيه ناحاش حوالي سنة ٩٩٥ ق.م. وكان ناحاش كما يبدو قد صنع معروفا مع داود ، وربما كان قد منحه ملجأ أثناء هروبه من وجه شاؤل ، فأراد داود ان يعبر عن اعترافه بالجميل. على ان الوفد استقبل بشعور التشكك وأهين اعضاؤه علنا . وقد أدى هذا بطبيعة الحال الى اعلان الحرب بينما تلقى العمونيون مساعدة من الحلفاء السوريين ، ولكنهم مع ذلك هزموا وتراجعوا الى مدينتهم ربة عمون (عمان) . وتلا هذا فرض الحصار على المدينة التي أرغمت على الاستسلام بعد ان تمكن الاسرائيليون من الاستيلاء على منابع المياه التي تستقي منها . وكما يبدو ، فان داود عيّن شوبي شقيق حانون حاكما على عمون وصار تابعا لداود. يدلنا على هذا ان شوبي وشيوخ آخرين من الاردن بادروا الى تزويد داود بالمؤن ، عندما قطع نهر الاردن اثناء الحرب التي نشبت بينه وبين ابنه ابشالوم .

الملوك الثاني :

لم تكن سيطرة داود على البلاد كاملة ابدا ، وعند وفاته حوالى سنه ٩٦٠ ق.م استطاعت آدوم على الاقل ان تستعيد قدرا كبيرا من الاستقلال . لقد عاد الامير هدد من مصر واخذ يحكم بلاده مرة اخرى ، ويبدو انه لم يبق في يد سليمان سوى ميناء عصيون جابر قرب العقبة . ولكن سليمان عقد محالفات بينه وبين البلاد عن طريق اتخاذه زوجات من ادوم وموآب وعمون ، وكانت زوجته العمونية ابنة لحانون .

وفي هذا المجال ايضا تؤيد الآثار ما جاءت به التوراة من اقوال. فقد اظهرت الحفريات التي أُجريت في تل الخليفة — وهو موضع عصيون جابر كما يعتقد — ان صهر النحاس كان الصناعة الرئيسية فيها ، وكان هذا النحاس يستخرج من مناجم وادي عربه . كانت هذه البلدة على شكل مستطيل تقريبا ، يحيط بها سور عريض الجدار وله بوابة ضخمة . اما الافران فقد كانت في الجانب الشمالي من البلدة . وتبدو المهارة الفائقة في هندسة هذه الافران ، وقد اختير موضعها في نقطة تهب عليها الريح الشمالية من وادي عربة ، اقوى ما تكون ، بحيث تشتعل النيران فيها وتعطي درجة كافية من الحرارة. كما عثر هناك على بوتقات لصنع الاواني الفخارية ، سعتها ثلاثة عشر قدما مكعبا . وكان السكان يستعملون الآجرّ المصنوع من الطين في بناء جميع الابنية ، وتظهر اشكال الفخار فروقا غريبة بينها وبين

الفخّار الذي تم العثور عليه في اجزاء اخرى من البلاد . وقد يفسر هذا بوجود علاقات قوية بين هذه المنطقة وبين جنوبي جزيرة العرب عن طريق التجارة . ولا بد ان السكـــان كانوا خليطا من جميع الشعوب . اما المدينة ذات التخطيط الافضل فهي التي انشئت اولا — حوالي زمن سليمان — فقد عثر في الموضع على خمس طبقات مختلفة من ركام السكان الذين تعاقبوا عليها .

ولقد اظهرت البحوث السطحية التي اجريت في مئات المواضع القديمة في اجزاء اخرى من شرقي الاردن — ان مستوى الرخاء والحضارة كان يتدرج في الارتفاع ، رغم الحروب والغزوات والمذابح التي سجلت انباءها التوراة . وقد انشئت على طول أطراف البلاد ، وفي المواقع الاستراتيجية : قلاع متينة بنيت من حجارة صوانية ضخمة ، كمـــا ان اطلال عدد كبير من القرى القديمة التي مازالت واضحة حتى اليوم ، تشير الى ان معظم سكانهـــا كانوا يمارسون الزراعة .

وعندما توفي سليمان حوالي سنة ٩٣١ ق . م . انقسمت مملكته الى شطرين همـــا يهوذا واسرائيل ، اللذين كانا دائما في حالة حرب مع بعضهما البعض أو داخل حدود كل منهما . ان انباء التوراة عن هذه الفترة مضطربة ومتناقضة ، ومن العسير على البـــاحث ان يكشف النقاب عن تاريخ متسلسل . لقد بنى يوشافاط ملك يهوذا اسطولا في عصيون جابر ، ولكن عاصفة دمرت هذا الاسطول قبل ان ينزل الى عرض البحر . وهناك عبارة في التوراة تقول انه « لم يكن هنالك ملك في ادوم ، بل نائب ملك » . وهناك عبارات مضطربة مفادها ان مملكة يهوذا هوجمت اثناء حكم يوشافاط من قبل مؤاب وعمون المتحالفتين مع ادوم . ويبدو ان المعركة اختتمت بهجوم شنّه العمونيون والمؤابيون على الادوميين فقتلوا منهم عددا كبيرا ، ثم تحول العمونيون والمؤابيون بعد ذلك الى قتل بعضهم البعض بينما كان يوشافاط وقومـــه يتفرجون ، حتى اذا لم يبق منهم احد على قيد الحياة بادر هؤلاء — اتباع يوشافـــاط — الى تشليح اجساد القتلى ونهب الحلى والامتعة الثمينة واستمروا في هذه العملية ثلاثة ايام .

الحجر المؤابي (قارن هذا مع سفر الملوك الثاني ، الاصحاح الثالث)

على اننا نملك عن هذه الفترة سجلا تاريخيا معاصرا لم يعثر بعد على سواه في البلاد . انه حجر ضخم اقامه ميشع ملك مؤاب في عاصمته ذيبان وسجل عليه انباء معـــاركه مع ملوك اسرائيل . وفيما يلي ترجمة كاملة لهذا السجل الفريد :

« انا ميشع ، ابن كموش ، ملك مؤاب الديبوني ، ملك والدي على مؤاب ثلاثين عاما ، وانا خلفت والدي في الملك . انا الذي بنى المكان المقدس لـ (كموش) في (كركا) ، انــه مكان عال للخلاص ، لانه انقذني من جميع اعدائي ، وجعلني انتقم من جميع الذين كانوا يبغضونني . لقد ضايق (عمري) ملك اسرائيل شعب مؤاب ايامــا عديدة ، لان (كموش) كان حانقا على بلاده ، ثم خلف ابن (عمري) اباه ، فقال ايضا «سوف اسيطر على مؤاب»: لقد قال هذا القول في ايامي ، ولكني انتقمت منه ومن آل بيته ، وهلكت اسرائيل هلاكا ابديا . لقد استولى (عمري) على ارض مادبا واقام هناك طيلة ايام حكمه ونصف ايام ابنه : اربعون عاما . ولكن (كموش) اعادها في ايامي . انا بنيت (بعل معيون) وانشأت البركة فيها ، وانا بنيت (كرياتين) . اما رجال سبط جاد فقد اقامــوا منذ زمن بعيد في ارض (عطاروت) وبنى ملك اسرائيل لنفسه (عطاروت). وانا شننت هجوما على المدينة واستوليت عليها ؛ وذبحت جميع سكان المدينة وجعلت ارضها مرعى الى (كموش) و (مؤاب) ؛ وانا غنمت هيكل (دوداه) وجررته على الارض امــام (كوش) في (كريوت) . وجئت الى هناك برجال (شارم) و (محراث) وانزلتهم فيهــا . وقال (كموش) لي « امض وخذ نبو من اسرائيل ». وسرت اليها في الليل وهاجمتها من الفجر حتى الظهر ، ثم استوليت عليها وذبحت جميع سكانهــا : سبعة آلاف رجل وامرأة .. لانني نذرتها الى (عشتار كموش) . واخذت آنيــة يهوه وجررتها أرضا امام كموش . وكان ملك اسرائيــل قد بنى (ياحص) واقام فيها اثناء محاربته لي . ولكن كموش هزمه امامي . لقد اخذت مئتي رجل من مؤاب وجميع زعمائها ، وجئت بهم للهجوم على (ياحص) فاستوليت عليها وضممتها الى ديبون . ثم بنيت كركا ، بنيت سور الغابة وسور التل ، وبواباتها وابراجها وقصر الملك ، وحفرت بركتين للماء في وسط المدينة . لم تكن هناك بئر ماء في المدينة ، وهكذا قلت لجميع السكان « ليحتفر كل رجل بئرا في منزله » . وانا حفرت القناة الى كركا بمساعدة الاسرى الاسرائيليين . وأعدت بناء (عروعير) ، وشققت الطريق الرئيسية في وادي ارنون . واعدت بناء (بيت ياحوث) بعد ان كانت خربة ، وكذلك (بيتسير) .. لان جميع اراضي ذيبون كانت خاضعـــة لي . وانا حكمت مئة مدينة ضممتها الى البلاد . واعدت بناء مادبا (وبيت دبلاتين) وهيكل (بعل معيون) ، واخذت الى هناك رئيس الرعاة ... ومواشي البلاد . والان كان (خرنان) بن (ديدان) يقيم فيها ، وقال ديدان ... لقد قال لي كموش « امض وهاجم خرنان » . وهكـــذا مضيت اليها وبدأت القتال ... واقام كموش فيها طيلة جميع ايامي ... »

كان اخاب هو ابن عمري ملك اسرائيل . وكان معاصرا ليوشافاط ملك يهوذا ، ونرى في اقوال التوراة ان ميشع يوصف بأنه « صاحب مواشي » وانه كان يدفع جزية ثقيلة الى اسرائيل . ونرى انباء ثورته ترد على انها حدثت اثناء حكم يهورام بن آخاب . وكان هذا حوالي سنة ٨٥٠ ق . م. لقد تحالفت اسرائيل ويهوذا وادوم سويا لاسترداد ارض مؤاب ، وزحف المتحالفون ليهاجموا ميشع من الجنوب عن طريق ادوم التي كان يحكمها ملك من ابنائها يومذاك . واحرز المهاجمون بعض النجاح . وحاصروا ميشع في الكرك « فأخذ ابنه البكر الذي كان سيملك عوضا عنه واصعده محرقة على السور . فكان غيظ عظيم على اسرائيل . فانصرفوا عنه ورجعوا الى ارضهم ». من العسير ان نفهم كيف أدّى عمل ميشع هذا الى تلك النتيجة . ولكن عمله ربما كان يحمل من المعاني ما لا نستطيع ان نفهمه اليوم . كان واضحا ان ميشع وسّع مملكته الى الشمال من وادي الموجب واحتل على الاقل الجزء الجنوبي من مملكة عمون ، لان كثيرا من المدن المذكورة على الحجر ، مثل مادبا ، تقع الى الشمال من عاصمته ديبان ، التي تقع ايضا الى الشمال من وادي الموجب .

واثناء حكم يهورام ملك يهوذا التالي ، جنحت ادوم أيضا الى الثورة ونزعت عنها النير العبري . ونرى أن ملكاً آخر هو امصيا قد تمكن من صد هجوم قام به الادوميون على جنوبي فلسطين ، بل انه طارد المهاجمين حتى ارض بلادهم واستولى على سلع العاصمة (البتراء) حيث طرح من قممها الشامخة عشرة آلاف أسير ليلقوا حتفهم . وقد بقيت عصيون جابر — التي اطلق عليها الآن اسم ايلات — في ايدي يهوذا ، مدة من الزمن . ولقد وجد في الحفريات التي اجريت فيها خاتم حسن الصنع باسم الملك يوثام حفيد امصيا .

ولقد ازدادت معرفتنا بحضارة هذه الفترة زيادة طيبة نتيجة لاكتشاف تمثالين كاملين وبعض اجزاء من تمثالين آخرين ، خارج الطرف الشمالي لقلعة عمان . ان الشكل العام والثياب والتفاصيل الاخرى المتعلقة بالتماثيل تشير الى تأثرها بجميع الحضارات العظيمة المجاورة : من فينيقية ومصرية وآشورية ، وهو في الواقع تأثر متوقع ناشيء عن موقع البلاد الجغرافي . وتعتبر هذه التماثيل فريدة في نوعها بسبب كونها التماثيل الوحيدة من آثار هذه الفترة ، حيث يقف فيها الشخص وقفة كاملة غير مقيدة ، كما يعتقد بأنها التماثيل الوحيدة التي اكتشفت حتى الآن في الأردن او فلسطين ، من صنع فنانين محليين . وتوجد كتابة موجزة تتألف من سطرين على قاعدة احد التماثيل ، ومع ان الحروف تشبه الكتابة

المحفورة على حجر ميشع ، الا ان الكتابة امّحت لسوء الحظ حتى اصبح من العسير التعرّف عليها . ومن المحتمل ان تاريخ هذه التماثيل يعود الى حوالي سنة ٨٠٠ ق.م.

عهد الآشوريين :

بدأت قوة آشور تظهر الآن في افق تاريخ الشرق الأدنى ، وقد تركت آشور بقوتها ووحشيتها انطباعاً عميقاً في نفوس سكان سوريا وفلسطين والأردن . وحوالي سنة ٨٠٠ق.م. قام (أدد نيثاري) بأول حلقة من سلسلة هجماته على هذه البلاد . وفي فترة من الزمن تمكن من اخضاع شرقي الأردن حتى أدوم جنوباً . وتذكر السجلات الاشورية ادوم منفردة عن سواها . ولكن يظهر أن البلاد قضت بعد ذلك بضع سنوات مضطربة ،حتى ان الاهلين تخلصوا من قبضة الحكم الأشوري واستعاد الادوميون ايلات . وفي سنة ٧٤٥ ، افتتح تغلث فلاسر الثالث البلاد بأجمعها ، واضطر سانيبو ملك عمون ، وكموش ناداب ملك موآب وسلمان ملك ادوم — أن يدفعوا الجزية ويوافقوا على ان يشرف حكام اشوريون على شؤون بلادهم .

وعندما تولى سنحاريب سدة الملك سنة ٧٠٥ قامت في فلسطين محـاولة للثورة ضد الاشوريين ، ولكن هذه المحاولة لم تلق تعضيداً في الاردن حيث كان بوديل ملكاً على عمون وكموش ناداب اخر ملكاً على مؤاب ، وملك رام ملكاً على ادوم . لقـد سحقت الثورة بسرعة ، وسمح لدول شرقي الاردن أن تحتفظ بنوع من الاستقلال الاسمي .

كان هؤلاء الملوك ما يزالون يدفعون الجزية عندما تولى اسرحدون بن سنحاريب الملك حوالي سنة ٦٨٠ ق.م. وقد جاء في رسالة موجهة الى الملك الاشوري ، ان الحكام الملكيين جلبوا منيّن ذهباً من بوديل ملك عمون ، ومنّا واحدا ذهباً من موصوري ملك مؤاب وحوالي اثني عشر منّاً فضة من كوس-جابر ملك ادوم ،وهذا الاخير وجد رسمه مطبوعاً بأختام في تل الخليفة او ايلات . ويعتبر هذا اول سجل يذكر فيه آله ادومي باسم كوس ، ولكنه بعد ذلك يذكر مرات عديدة . واستمر اشور بنيبال الذي خلف اسرحدون في سياسة التوسع . ولكنه بينما كان يوجه اهتمامه الى مصر ، انفجرت ضده ثورة خطيرة قام بها البدو في وادي السرحان . لقد هاجم اولئك البدو تحت زعامة قائدهم (ياثا) الاردن واتسع نشاطهم شمالا حتى حمص في سوريا . واثناء احدى الغزوات البدوية وقع (مولادي) ملك (عرب قيدار) اسيراً في يد (كموش حالث) ملك مؤاب . ويومذاك كان (عميناداب) ملكاً في عمون ، وقد عثر في عمان على ادوات طريفة من تلك الحقبة تحمل اسمه .

قبل حوالي ستين عاماً وجد في عمان خاتم لـ « ادوني – بيليت ، خادم عميناداب » وبعد ذلك بزمن عثر في ضريح منقور في الصخر على منحدرات القلعة – على مجموعة ممتازة من الآنية الفخارية وبعض الادوات الاخرى ، ومن جملتها خاتم نقش على فصّه اسم « ادوني نور ، خادم عميناداب » . ومن الواضح ان لقب خادم يشير الى كبير من موظفي البلاط . ومن المحتمل ان الخاتم الاول خرج كذلك من هذا الضريح ، وربما كان الشخصان اخوين او اب وابنه ، خلف احدهما الآخر في نفس الوظيفة . ولقد عثر على مجموعة من الاختام البديعة في الضريح ، أحدها يحمل اسم (شوب – ايل) . ويبدو واضحا في جميعها تأثير اشوري قوي . ومن جملة ما عثر عليه في الضريح ثلاثة توابيت كبيرة من الفخار ، كما عثر على خواتم فضية واقراط ومشبك صغير رائع الصنع من الذهب . ولقد اكتشف ايضاً ضريح اخر يعود الى نفس العهد تقريباً – على تلة الى الجنوب من جهة الوادي المقابلة لموقع ضريح (ادوني نور) . وكان هذا الضريح يحتوي على نفس المجموعة الفخارية ، بالاضافة الى قالب (Model) طريف لفارس وحصانه ، ولكن رأس الفارس لم يعثر عليه لسوء الحظ . وهذا المثال يظهر لنا بتفصيل كامل نوع السروج التي كانت تستعمل يومذاك ، ومن ضمنها شرّابة تتدلى على جبهة الحصان مثل الشرابات التي نراها في ايامنا هذه . كما عثر ايضا على ختم من العاج يحمل اسم (اللات – تيشا) ، مما يدل على ان اللات كانت احدى الآلهات التي كان اهل عمون يعبدونها ، وقد اصبحت عبادة اللات شائعة في العصور التي أعقبت ذلك العهد .

ولقد اكتشف ضريح ثالث يرجع الى نفس الفترة في موقع (المقابلين) في الطرف الجنوبي الغربي من عمان ، وعثر في هذا الضريح على ختم من العقيق الابيض ، وعلى ختم اسطواني ، وكلاهما من طراز الاختام الاشورية . ولكن كان هنالك مستوردات من الغرب على هيئة قارورتي عطر من الزجاج المتعدد الالوان الجميل الصنع . كما وجدت كذلك خيول وفرسان من الفخار ، كاملة الاشكال ، يبدو الفارس فيها معتمراً بقبعة عالية ذات حد مدبّب .

تحمل السجلات الاشورية لهذه الفترة أول اشارة تاريخية للانباط الذين اشتهروا بعد ذلك في تاريخ الاردن ، وتذكر السجلات انهم كانوا حينذاك ينزلون في الاراضي الواقعة الى الجنوب والشرق من ادوم ، أي أرض المديانيين سابقا .

بزوغ نجم بابل:

انتهت الامبراطورية الاشورية بسقوط نينوى عام ٦١٢ ق . م . وقد أخذ نجم الامبراطورية البابلية يسطع في موضعها . وانفجرت الثورات في كل مكان بسبب انعدام السيطرة الحازمة. وخلال حكم نبوخذ نصر قام المؤابيون والعمونيون بغزوات على فلسطين حينما كان يواكيم ملكا على يهوذا ،وأعقب هذا ما يبدو انه محاولة للتحالف بين الاردن وفلسطين وجانب من سوريا ضد نبوخذ نصر . ولكن الملك البابلي بادر للعمل السريع فلم ينتج عن هذا التحالف أي شيء سوى ترحيل اليهود أسرى الى بابل . على أن كثيرين من اليهود فروا الى بلاد مؤاب وأدوم طلبا للنجاة . وعندما عيّن جدليا حاكما على فلسطين تحت سلطان بابل — فان هؤلاء أخذوا يلتفون حوله مرة اخرى . ولسبب لم يتضح بعد ، استأجر (بالس) ملك عمون شخصا يدعى اسماعيل لكي يقتل جدليا ، فقام هذا بتنفيذ المهمة الموكولة اليه .

لا يعرف الكثير عن تاريخ شرقي الاردن خلال العقود القليلة التالية ، ولكن يبدو انه حوالي سنة ٥٨٠ ق.م. بدأ الانباط يحتلون بلاد أدوم ، حيث ارغم الادوميون على الرحيل الى جنوبي فلسطين . كان الشرق الادنى كله في هذه الفترة في حالة فوضى وتفسخ ، فقد كانت الممالك القديمة في مصر وسوريا وما بين النهرين (العراق) في حالة انهيار ، وكانت مملكتا فارس واليونان ما تزالان في طور النشوء . ولقد طرد بصورة فعالة من بقي من اليهود في فلسطين وحلت محلهم شعوب اخرى :

الامبراطورية الفارسية ٥٤٩ — ٣٣١ ق.م.

عيّن الفرس حاكما عاما للمناطق العربية التابعة لامبراطوريتهم وألحقوا الاردن وفلسطين بادارته. وحوالي سنة ٥٠٠ ق.م. سمح الفرس لبعض اليهود المأسورين في بلادهم بالعودة الى فلسطين . وكان الادوميون في هذه الفترة قد استوطنوا جنوبي فلسطين استيطانا تاما حتى عرفت فيما بعد باسم ادوميا . كما شنّ العمونيون والمؤابيون هجمات متعددة على اليهود بقصد منعهم من اعادة بناء الهيكل في القدس . لان الهيكل كان المظهر الخارجي الواضح لعودتهم الى البلاد واستيطانهم اياها من جديد. واشتبكت عمون كذلك مع مؤاب في معارك وحروب ، ونتيجة لذلك استردت عمون أراضيها الجنوبية حتى وادي ارنون (الموجب) . وفي هذه الفترة يبدو ان شخصا يدعى طوبيا ، من اصل يهودي ، صار حاكما في عمون . وكان رأس الاسرة التي سيطرت على تلك البلاد لمدة بضعة قرون ، لاننا نرى اسم الطوبيين يذكر مرة أخرى في عهد البطالسة . وكان طوبيا هذا من زعماء المعارضين لفكرة إعادة بناء الهيكل .

العصر الهيلليني ٣٣١ ـ ٦٣ ـ ق.م.

لا تتوافر معلومات اوفى عن احداث البلاد حتى الوقت الـذي جرت فيه فتوحات الاسكندر سنة ٣٣٣ ق.م . وعند وفاته خضعت مصر وفلسطين والاردن وسوريا الجنوبية الى حكم بطليموس احد قادة الاسكندر ، الذي اتخذ مصر مركزا لحكمه . وفي هـذا الحين كان الانباط قدوطدوا دعائم حكمهم في ادوم وجعلوا عاصمتهم البتراء . وقد دفعت قصص ثرائهم بأنتيجونس حاكم سوريا الى ارسال جيش لمهاجمتهم حوالي سنة ٣١١ ق.م. وتمكن هذا الجيش من الاستيلاء على العاصمة ووضع اليد على جميع الغنائم ، الا ان القائد اهمل اختيار موضع مناسب يعسكر فيه ، فهاجمه الانباط وسحقوا الجيش اليوناني. وقام اليونان بمحاولة اخرى ، وفي هذه المرة أخلى الانباط عاصمتهم البتراء فلم يبق منهم فيها سوى عدد قليـل من الشيوخ الطاعنين في السن . وقد تمكن هؤلاء من الاتفاق مع القائد ديمتريوس فقدموا لـه مبلغا من المال وحققوا السلم في تلك المنطقة .

كان الجزء الشمالي من سوريا من نصيب سلوقيوس ، وهو قائد آخر من قادة الاسكندر. ولكن سلوقيوس لم يكن قانعا بنصيبه ، فاستولى على الاردن دون مقاومة كبيرة . وحوالي سنة ٢٨٤ ق.م. نهض بطليموس الثاني كي يصحح الوضع ، فغزا عمون واستولى عليها مع جانب من مديان ، وهكذا يظهر انه لم يحاول التعرض للانباط . ولقـد قوبلت الحضارة اليونانية بترحيب بالغ في الشرق الادنى ، لذلك نرى المدن الجديدة التي اخذت تنشأ في الاردن مثلها مثل المدن القديمة التي كان يعاد بناؤها من جديد — تشتمل على عناصر من الفنون وأساليب المعمار اليونانية . بل ان هذه الحضارة امتدت الى بلاد الانباط البعيدة وأثرت فيها وجلبت تطورا بيّناً في فن المعمار عند الانباط . وبدأ كذلك ظهور القطـع النقدية المسكوكة على الطرز اليونانية . وقد اطلق على مدن كثيرة اسماء جديدة تكريما لليونانيين الذين جددوا بناءها ، كمدينة عمان التي صار اسمها فيلادلفيا ، وجرش التي صار اسمها انطاكية .

أخذت البلاد تستمتع برخاء عام ، كما اخذ المد الحضاري يطـرد صعداً وازدهارا ، ولقد ساعد في تسهيل العلاقات مع البلدان المجاورة — أن جميع أقطار الشرق الادنى تبنّت اللغة اليونانية ، فأصبحت لغة الطبقة المتحضرة ووسيلتها الكتابية .

تمكن الانباط من توسيع مملكتهم الى الشمال نتيجة للعداء الذي استحكم بين البطالسة في مصر والسلوقيين في سوريا . وكان الانباط يعاضدون السوريين ضد المصريين . وفي معاهدة عقدت سنة ١٩٧ ق.م. احتفظ انطيوخس الثالث السلوقي بفلسطين وسوريا والاردن . وخلال حكم هذا الملك ، تمكن شخص يهودي من فلسطين اسمه هركانوس – ويحتمل ان يكون احد افراد عائلة الطوبيين – من انشاء دولة صغيرة في اراضي عمون جعل مركزها في خربة (عراق الامير) التي تعرفها اليوم الى الغرب من عمان . سيطر هركانوس هذا على المنطقة المجاورة حوالي اثني عشر عاما ، حتى اضطر انطيوخس الرابع في النهاية الى ارسال حملة عسكرية للقضاء عليه . واذ أدرك هركانوس عدم جدوى المقاومة فانه عمد الى الانتحار سنة ١٧٥ ق.م. على ان الاوامر التي اصدرها انطيوخس الرابع ضد اليهود ، دفعت هؤلاء الى القيام بثورة قادها يهوذا المكابي الذي استطاع خلال ثلاث سنوات متتالية ١٦٧–١٦٥ ق.م. أن يلحق الهزيمة بأربعة جيوش ارسلها انطيوخس لسحق ثورته . وعندما توفي انطيوخس عام ١٦٤ ق.م. عمد يهوذا الى توسيع دولته فغزا أراضي عمون . وقاوم العمونيون هذا الغزو بقيادة زعيم يدعى تيموثيوس ولكنهم هزموا وتراجعوا الى جلعاد لمواصلة القتال . وهاجمهم يهوذا مرة أخرى وألحق بهم الهزيمة في (اشتورت قرنايم) ، وسقط تيموثيوس قتيلا هناك .

وفي عام ١٦٣ ق . م . تقدم جيش سوري آخر فألحق الهزيمة باليهود ، ولكنه لم يتم العمل كله ، فتقدم جيش آخر لنفس الغاية سنة ١٦١ ق.م. وفي هذه المرة هزم اليهود هزيمة تامة . وقتل كثيرون منهم بعد أن اعتصموا في اربيلا (قد تكون اربد) .

ولكن اليهود لم يلبثوا أن جنحوا الى الثورة مرة أخرى بعد أقل من قرن من الزمن . وفي هذه الثورة أحرزوا مزيدا من النجاح ، حتى ان قائد قواتهم اسكندر جانيوس كان عند موته يسيطر على الاردن كله حتى وادي الحسا. على ان الانباط احتفظوا باستقلالهم ونجحوا في توسيع رقعة دولتهم حتى مدينة دمشق ، وظلوا يسيطرون على هذه المنطقة حتى سنة ١٠٦ ب.م. وكان اول من حكم هذه المملكة بعد توسعها من الانباط ، الملك الحارث الثالث فلهلين (١) ٩٥– ٦٠ ق.م.

ولكن يبدو ان الانباط لم يسيطروا سيطرة مباشرة على الجزء الغربي من الاردن وهو الجزء الواقع بين الموجب واليرموك . ومع هذا ، فان حجارة البناء الضخمة التي عثر عليها في جرش منحوتة على طراز « خطوة الغراب » النبطية ، بالاضافة الى كتابة باللغتين النبطية واليونانية عثر عليها ايضا هناك – تشير الى ان نفوذ الانباط وتأثيرهم قد بلغا ذلك الموضع غربا على الاقل ، ويؤكد هذ طاستان عثر عليهما حديثا في ضريح بعمان ، وقد نقشتا بنقوش نبطية

(١) فلهلين أي محب الهيلانيين (اليونان وأصلها من هيلاس)

روما وبيزنطة ٦٣ ق.م. ٦٣٦ ب.م.

كانت قوة روما في هذه الاثناء تزداد تدريجيا ، وقد اقتضى توسع الامبراطورية أن يفرض الامن والنظام في سوريا وفلسطين . انجز بومبي هذه المهمة حوالي سنة ٦٤ق.م. وفي شرقي الاردن ساعد على اعادة تعمير المدن اليونانية التي خرّبهـا اليهود ووضع اسس الحلف التجاري المعروف باسم الديكابوليس . وكان هذا الحلف في الاصل مؤلفا من سكاثيوبوليس (بيسان) بيلا (طبقة فحل) هبوس (فيق) دمشق ، ديون (غير معروفة) كاناتا (قنوات) جرش ، فيلادلفيا (عمان) . وقد اضيفت مدن أخرى فيما بعد الى هذا الحلف ، هي اربيلا (اربد) كابيتولياس (بيت راس) ادرعي (درعا) وبصرى . احتفظت البلاد بالاستقلال التام ، ولكنها كانت تدفع الضرائب الى الخزانة الامبراطورية. وقد دفع الانباط مبلغا مقطوعا من المال كي يستمر استقلال مملكتهم . على ان هذه التنظيمات لم يقدّر لها البقاء بعد الشخص الذي وضعها ، فقد انفجرت الثورات القديمة مجدداً بعد رحيل بومبي .

وأثناء مرحلة الهدوء التالية ، حوالي سنة ٤٠ ق . م. عيّن هيرودس الكبير ملكا على اليهودية بتعضيد من مارك انطونيو ، وكان التعيين يتضمن شيئاً من الاشراف عـلى شرقي الاردن . ونشب الخلاف بين الانباط ومارك انطونيو فهاجمهم هيرودس وهزمهم وأخرجهم من الجزء الشمالي من مملكتهم . وعند وفاة هيرودس سنة ٤ ق . م . كـان النفوذ الروماني سائدا في كل مكان ، وقسمت شرقي الاردن الى ثلاث مناطق تخضع لثلاث سلطات مختلفة. ففي الشمال كان حلف الديكابوليس المستقل في شوؤنه الداخلية ، وفي الوسط من الزرقاء الى الارنون (باستثناء عمان) كانت بيريا الخاضعة لمملكة اليهود الصغيرة في فلسطين ، امـا في الجنوب فكانت مملكة الانباط المستقلة .

تولى هيرودس ترارك الملك بعد وفاة هيرودس الكبير ، وقد تزوج هذا ابنة الحارث الرابع ملك الانباط ولكنه طلقها بعد ذلك من اجل هيروديا امرأة اخيه. وهذه الاهانة دفعت الحارث الى ارسال جيش هاجم هيرودس والحق به الهزيمة. وقد سلك هيرودس هذا سلوكا معيباً مع هيروديا وابنتها سالومي اثناء اقامته في ماخيروس (مكاور الحالية جنوبي غربي مادبا) فاندفع يوحنا المعمدان الى تأنيبه والتشهير به مما ادى الى سجن يوحنا وموته في ماخيروس.

أخلدت البلاد الى الهدوء فترة من الزمن في ظل الحكم الروماني الحازم ، ولكن لم يكن باستطاعة اليهود ان يخلدوا الى الهدوء طويلا ، حتى اننا نجد الملك النبطي مالكوس الثاني حوالي

سنة ٦٤ ب.م. يرسل جيشاً لمساعدة الرومان ضد اليهود. ولجأ كثيرون من اليهود الى ماخيروس، ولكن الرومان هدموا الموقع وقتلوا أفراد الحامية . واخيراً فقدت مملكة الانباط استقلالها ايضاً عام ١٠٦ ب.م على عهد الامبراطور تراجان ، واصبحت شرقي الأردن كلها خاضعة للرومان . ولكنها ربحت مقابل ذلك فترة طويلة من السلم . وألحقت جميع البلاد ، فيما عدا الديكابوليس ، بمقاطعة جديدة اطلق عليها اسم البتراء العربية ، وكانت عاصمة هذه المقاطعة مدينة البتراء اولاً ثم نقلت العاصمة الى بصرى في سوريا . وقد عسكر الفيلق الروماني الثالث (ليبيا) في الشمال بينما عسكر الفيلق الرابع (مارتيا) في جنوبي البلاد . وقد انشىء معسكران واسعان لاقامة الفيلق الاخير : في اللجون قرب الكرك، وفي اذرح قرب البتراء، وما تزال آثار كليهما باقية حتى اليوم. وبدأ العمل في شق طريق تراجان العظيمة من بصرى والعقبة، وانتهى العمل فيها على عهد هادريان، كما بدأ العمل في شق طرق فرعية اخرى في جميع انحاء البلاد.

كان مستوى الأمن العام والرخاء خلال القرون القليلة التالية افضل بكثير مما كان عليه في اي وقت مضى . ولم يكن يعكر صفو الحياة على فترات متقطعة سوى الدسائس المخزية والاغتيالات بين اباطرة الرومان ، وكذلك محاولات بعض الحكام الصغار من اجل الحصول على الاستقلال .وخلال القرنين الثاني والثالث، اخذت القرى والمدن تؤسس وتنمو في جميع اجزاء البلاد ، وارتفع مستوى الحضارة والفن المعماري الى درجة لم تحرزها البلاد من قبل او من بعد . على ان التفاصيل التاريخية خلال هذه الفترة لا تحدثنا عن أية أحداث مهمة ذات تأثير دائم . ولكن يمكن القول ان قوة عظيمة كانت تتغلغل في البلاد الا وهي المسيحية ؛ وعندما اعتنق الامبراطور الروماني نفسه هذه الديانة عام ٣٣٣ ب.م. اصبحت الدين الغالب في ارجاء الامبراطورية . وفي عهد الامبراطورية البيزنطية التي أسسها الامبراطور ثيودوسيوس عام ٣٩٥ ب.م. انشىء في البلاد عدد كبير من الكنائس .

وفي عهد الحكم البيزنطي كانت السيطرة الحكومية اقل حزما، وبدأت تظهر في هيكل الجهاز الاداري صدوع تنذر بالانحلال ، وقد تسببت الطوائف المسيحية المتنازعة في حدوث معظم تلك الصدوع ، وكانت المنازعات الطائفية كثيراً ما تجر الاباطرة انفسهم الى الانغماس فيها .

أخذ الفرس يظهرون نشاطاً مرة اخرى في اواخر القرن السادس واوائل القرن السابع . فهاجموا بعض المقاطعات الشرقية واستولوا عليها ، ومن ضمنها جانب من شرقي الاردن على الاقل : ونهض الامبراطور هرقل (٦١٠–٦٤١ ب.م) لمناجزتهم فتغلب عليهم .

ولكن الفتح الاسلامي لم يلبث ان بدأ في الوقت الذي تمكن فيه هذا الامبراطور من توطيد النظام في ربوع الامبراطورية .

العهد الاســلامي ٦٣٦ ب. م.

حدث أول صدام بين المسلمين والبيزنطيين في مؤته قرب الكرك ، عندما ارتد المسلمون الى الوراء ، وقتل ثلاثة من قادتهم العظاء هم : زيد بن حارثة ، وجعفر بن ابي طـالب ، وعبدالله بن رواحه . ولقد دفن هؤلاء في المزار حيث يمكن مشاهدة اضرحتهم في الجامع الكبير القائم هناك . ولم يطل الوقت بعد ذلك حتى توغل جيش اخر في الاردن ، وفي معركة حاسمة عند وادي اليرموك سنة ٦٣٦ ب.م. حلت الهزيمـة بالقوات البيزنطية ، وزحف المسلمون الظافرون على دمشق التي اصبحت فيما بعد عاصمة للخلفاء الامويين .

كان بعض هؤلاء الخلفاء الاوائل – وهم من البدو بحكم الفطرة والنشأة – ما يزالون يشتاقون لحياة الصحراء ، فابتنوا لانفسهم قصوراً ومرابع صيد في شرقي الاردن كقصير عمره والحرّانه والطوبه . وحيث ان الاردن تقع مباشرة على الطريق الممتدة بين دمشق وجزيرة العرب – فانها استمرت محتفظة بشيء من الاهمية . ولكن مؤامرات العائلة العباسية ، التي استطاعت في النهاية ان تدمر خلافة الامويين والاردن معهم – بدأت تحاك اول ما بدأت في الحميمة ، القرية الصغيرة الواقعه في سهل القويره جنوبي معان .

وفي القرن التاسع بعد الميلاد ، نقل العباسيون المنتصرون عاصمة الخلافـة الى بغداد ، واخذت الاردن تغيب في مطاوي النسيان . وبما ان البلاد لم تكن تقع في طريق معين من طرق التجارة ، ولم تكن تملك اية ثروة طبيعية – فقد تركت لتعود القهقرى وتسقط في وهـدة الانحلال . ورغم كل هذا فقد كان للبلاد قدر كاف من الاهمية حتى اندفع الصليبيون اثناء القرن الثاني عشر لاحتلال جزء منها وبناء القلاع هناك التي يعتبر أهمها قلعة الشوبك وقلعة الكرك . على ان حالة البلاد العامة لم تلبث ان ازدادت سوءا بعد ذلك ، حتى غدت وليس فيها سوى القرى الصغيرة الفقيرة ، يعيش سكانها على الكفاف بين خرائب الماضي العريق . وعندما دخلت تحت حكم الاتراك في القرن السادس عشر لم يكن اهتمامهم بها يتعدى حراسة طريق الحج الى مكة ، تلك الطريق التي انشىء عليها خط سكة الحديد فيما بعد .

وهكذا ، بقيت البلاد في حالة تقهقر وانحطاط حتى ايام الحرب العالمية الاولى ، عندما برزت على مسرح الاحداث كميدان لاعمال لورنس الباهرة . لقد وقعت معظم حملاتـه

الحربية المشهورة في طول شرقي الاردن وعرضها . واتخـذ من العقبة والازرق مركزا لقيادته (١) وبعد انتهاء الحرب، ادخلت البلاد ضمن نطاق الانتداب البريطاني على فلسطين، ولكن بموجب شروط خاصة . وفي عام ١٩٢١ تولى سمو الامير عبدالله، النجل الثاني للحسين ملك الحجاز، إمارة شرقي الاردن ، على ان يكون مرتبطا بالمندوب السامي في فلسطين . وهكذا نشأت في البلاد حكومة ذات نوع من الاستقلال الذاتي . ورافق ذلك انشاء الجيش العربي ، المتيقظ ابداً ، وتنظيمه للمحافظة على الامن والقانون . ولا بدّ ان كل سائح زار البلاد قد شعر انه مدين لافراد هذا الجيش ، لمساعدتهم وكريم اخلاقهم وحسن ضيافتهم . وقد اقترنت فترة ما بين الحربين بطابع التطور البطيء المطرد .

وخلال الحرب العالمية الثانية تميز موقع الاردن مرة اخرى - بأهمية كبيرة، عندما اقترب الخطر من مصر وخيف ان يستولي عليها العدو، وسرعان ما أصلح ميناء العقبة وأخذت الامدادات المختلفة تحمل منها الى سوريا والشمال. ولقد كان مسلك الجيش العربي ممتازا اثناء الثورة العراقية والحملة على سوريا ، ولكن لحسن الحظ لم تقترب الحرب من شرقي الاردن اكثر من ذلك .

حصلت البلاد على استقلالها التام سنة ١٩٤٦، واصبح الامير عبد الله اول ملك في المملكة الاردنية الهاشمية . وبدأت حركة التطور تزداد بصورة ملموسة . ولكن أعاق ذلك التطور مؤقتا ما حدث بعد ذلك من تخلي بريطانيا العظمى عام ١٩٤٨ عن انتدابها على فلسطين وما أعقبه من قتال بين العرب واليهود . ولقـد تدفق اللاجئون بأعداد كبيرة على البلاد . ويمكن أن نأخذ فكرة عن المصاعب التي ترتبت نتيجة لذلك ، اذا عرفنا ان عدد سكان عمان قفز الى الضعف خلال اسبوعين . على ان الادارة الحكومية كانت من حسن التركيز بحيث استطاعت أن تقوم بالاعباء الطارئة ، واستطاعت البلاد ان تستوعب حوالي نصف مليون لاجيء ، وان توفر لهم العناية دون مشقة بالغة . وبعد مدة من الزمن بدأت منظمة الامم المتحدة ومنظمات مختلفة اخرى ، اعمال الاغاثة المتنوعة . ويمكن القول ان الاردن كان البلد الوحيد تقريباً الذي رحّب باللاجئين ومنحهم كافـة الامكانات المتوافرة للعمل ومواصلة اعمالهم التجارية والمهنية .

وفي عام ١٩٥٠ تمت الوحدة بين الجزء الباقي من فلسطين في ايـدي العرب وشرقي الاردن ، واصبح كلا الطرفين يكوّنان « المملكة الاردنية الهاشمية » .

(١) هذا مثال موجز على مبالغات الغربيين بشأن لورنس . والحقيقة انه لم يكن سوى ضابط ارتباط بين قيادة جيش الامير فيصل بن الحسين وقيادة الجيش البريطـاني في مصر وفلسطين . وقد بحث المترجم هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً في كتابه (لورنس والعرب — وجهة نظر عربية) .

الفصل الثالث

اربد – ام قيس – بيت راس – تل العشاير – الحصن – قلعة الربض – عجلون – تاريخ آثار عمان – عراق الامير – مادبا – جبل نبو – زرقاء ماعين

قبل انتهاء الانتداب البريطاني على فلسطين ، كانت مدينة اربد والمنطقة المحيطة بهـا تقع على احدى الطرق الرئيسية التي تصل شرقي الاردن بميناء حيفا مارّة بطبريا والناصرة ، ونتيجة لذلك كانت مركزاً مهما من مراكز التجارة . وانتهى الانتداب وانقطع الاتصال بين اربد وحيفا ، ورغم ضياع هذه المزية فان مدينة اربد استمرت في الازدهـار واطّرد نموها حتى اصبحت ثاني مدينة في الضفة الشرقية من حيث مساحتها وعدد سكانها : لانهـا المركز الاداري للواء من اكثر الوية البلاد خصباً ونتاجاً . ويمكن القول ان معظم التوسع في اربد حدث منذ اواخر الحرب العالمية الثانية . وكان العائق الرئيسي دون ازدهارها قبلا هو عدم وجود مورد طبيعي للماء قريب منها ، وعدم وجود اموال كافية لجلب المياه اللازمة . وتضخ المياه الآن الى اربد من نبع يقع الى الشمال الشرقي منها على بعد ثمانية عشر كيلومتراً (١) .

اربد :

يقوم جانب من مباني المدينة فوق تل اصطناعي كبير ، وهذا التل يضم في جوفه بقايا اربد القديمة التي تعود الى العصر البرونزي الاول حوالي ٢٥٠٠ ق . م. كانت هذه المدينـة القديمة محاطة بسور ضخم بني من حجارة سوداء كبيرة ، وما يزال جانب منه قائماً حـتى الآن على الطرف الغربي للتل . وغير بعيد عن التل من ناحية الشرق كان امتداد هذا السور يبدو واضحاً الى جانب الشارع الرئيسي المار من هناك ، ولكن بلدية اربد هـدمت تلك البقايا عام ١٩٣٧ عندما قامت بتوسيع الشارع . وليست هناك دلائل آثاريه عـن الناس الذين اقاموا اربد خلال الفترة الواقعة بين اوائل العصر البرونزي المتوسط والعهد الروماني . وقد يكون دمار تلك الدلائل ناشئاً عن احدى الكوارث الطبيعية – كحدوث زلزال – مما ادى الى جفاف مصادر المياه . وبقـي نقص المياه عائقاً دون ازدهـار المدينة حتى تغلبت عبقرية المهندسين الرومان عليه . لقد جلبوا المياه في قنوات باطنية من مكان قريب مـن الرمثا – ليس الى اربد فحسب بل الى جدارا ايضاً (ام قيس) .

---

(١) هو نبع راحوب . وفي عام ١٩٦٣ تمّ سحب مياه الازرق الى اربد واللواء الشمالي . امـا ثاني مدينة في المملكة كلها من حيث عدد السكان فانها الزرقاء .

يعتقد ان اربد هي اربيلا احدى مدن الديكابــوليس ، وهناك دلائل كثيرة — بقايا آثاريه ومخطوطات — على ان اربد كانت مكانا ذا اهمية كبيرة وعــلى اتساع طيب في ايام الرومان والبيزنطيين . ولكن نمو المدينة السريع في ايامنا هذه محا تلك البقايا حتى لم يبق منها سوى بضعة احجار منحوته وكتابات قليلة متفرقه . ولا تتميز المدينة الحديثة بأية مزاياخاصة وليس لها طابع معماري يستلفت النظر ، ولا شك ان استعمال الحجارة السوداء في البناء لا يزيد في تجميل الموقع(١) .

ام قيس :

تتفرع من اربد طريق غير معبدة باتجاه الشمال الغربي حتى تصل الى قرية ام قيس التي كانت قديماً تعرف باسم جدارا وحدثت فيها عجيبة خنازير الجيدور . وتمر هذه الطريــق بقرية بيت راس التي كانت تعــرف باســم كابيتولياس . والمدينتان مــن المدن العشر (ديكابوليس) .

كانت جدارا مدينة يونانية — رومانية ذات اهمية ، وقد انشئت فيها جامعة تخرّج منها الشاعر العظيم ملياجر وكتّاب آخرون كانت لهم شهرة في ذلك العصر . اما الآن فلم يبق من امجادها سوى مسرحين صغيرين بنيا من الحجارة السوداء وساحة كبيرة تتناثر فيها الحجارة المتساقطه وقواعد الاعــمدة وبعض الاضرحة المنحوتة في الصخور . وليس واضحاً كيف صارت الى كل هذا الخراب ، لانه لم تنشأ بقربها خلال الالف سنة الماضية مدينة او بلــدة يمكن ان تنقل حجارتها وتستعملها للبناء . اضف الى هذا انها تقع على هضبة مرتفعة تحيط بها المنحدرات العميقة من كل جانب عدا الجانب الشرقي . واجمل ما تقع عليه العين في امقيس ذلك المنظر البديع الذي يبدو عندما تتجه الى الشمال والجنوب : منظر بحيرة طبريا ووادي الاردن .

وفي غور اليرموك الى الشمال من ام قيس تقع حمامات الحمّة الحارة ، وتؤدي اليهــا طريق وعرة غير معبدة تستطيع السيارات قطعها . وفي موسم الحمامات يتوافــد الزائرون اليها في اعداد لا بأس بها كي يستفيدوا من الاستحمام بمياهها .

---

(١) اخذ الناس في السنوات الاخيرة يستعملون الحجر الابيض في البناء

بيت راس :

هي اقرب الى اربد من ام قيس وآثارها اكثر خراباً . وتقـوم بيوت القرية الفقيرة المعاصرة فوق الاماكن التي كانت تحتلها شوارع كابيتولياس وهياكلها وكنائسها . وترى في حيطان بعض المنـازل حجارة منحوتة نحتا جميـلا ، كما تجـد مغائر نحتت في الصخر لها ابواب حجرية ضخمة وعلى جدرانها نقوش وكتابات وتستعمل اليوم مخازن للحبوب والتبن ، بينما تستعمل النواويس مذاود للتبن او احواض للمياه تشرب منها المواشي .

اما البرك الرومانية الكبيرة التي كانت تستعمل لخزن المياه فممتليء اكثرها بالتراب ، وترى الاهلين قد غرسوا فيها بعض الاشجار المثمرة ، لان المياه تأبى الا ان تتسرب اليهـا وتجتمع فيها رغم الاهمال(١) .

تقع اربد على الطرف الغربي لسهل واسع عظيم يمتاز بخصوبته في انتاج القمح ، وينتشر هذا السهل بعيداً الى الشرق حتى يتصل بالصحراء . وتتفرع عن هذه المدينة خمس طرق رئيسية الى جميع الجهات ، بالاضافة الى عدد من الدروب التي تختلف درجات وعورتها وتصل بينها وبين القرى التي تكثر في هذه المنطقة. والطريق الشرقية هي في الوقت الحاضر الطريق الكبرى التي تؤدي الى عمان عبر المفرق ، وربما تحولـت اهمية هذه الطريق الى الطريق الاخرى المارة بجرش . وهناك طريقان تتجهان جنوباً : الاولى الى جرش عبر الحصن والاخرى راسا الى عجلون . اما الطريق المتجهة غرباً فقد كانت سابقاً تصل الى حيفا ولكنها الآن لا تتعدى وادي الاردن ، وهي جميلة جداً في فصل الربيع حينما تتفتح الازهار لانها تلف في انحناءات عديدة مع منحدر الجبل خلال سلسلة من الغابات الطبيعية النامية اشجارها بين الصخور . وعلى مسافة بضعة كيلو مترات الى الغرب من اربد يقع الى شمال الطريق تـل اصطناعي صغير يسمى تل الاشيعر . ويبدو ان هذا التل من مخلفات العصر الحديدي مع انه لم تجر فيه اية حفريات ، وفي هذا الموضع الى الجنوب من الطريق مجموعة كبيرة مـن الانصاب (Dolmens) ، انها مدينة الموت العجيبه لتلك الفترة في ما قبل التاريخ . وربما كانت هذه المجموعة هي الثانية من نوعها في الاردن ، اما المجموعة الكبرى فقد عثر عليها في دامية (وسيأتي ذكرها فيما بعد) .

---

(١) وفي سفح التل الغربي التي تقوم عليه القرية الحالية صهاريج عجيبة لخزن مياه الامطار كانت تساعدها ايام الحصار والحروب .

تل الحصن :

في بلدة الحصن ، على الطريق المؤدية الى جرش ، يوجد مثال بديع للتلول الاصطناعية وهو يسمى تل الحصن على اسم البلدة . ولا يشغل هذا التل مساحة كبيرة ولكن ارتفاعه لا يقل عن اربعين قدماً مؤلفة من الانقاض والاتربة . اننا نعلم مما كشفه احد الاضرحة القديمة — وقد عثر عليه صدفة قريباً من التل — ان هذا التل يعود الى اوائل العصر البرونزي حوالي سنة ٣٠٠٠ ق م ، وهناك دلائل عديدة عثر عليهـا في الاضرحة الاخـرى وفي نقوش وكتابات سواها على ان ذلك التل كان قائماً في ايام الرومان والبيزنطيين . وهذا الموضع هو احد المواقع التي يتأرجح بينها موقع مدينة ديون ، وهي المدينة الوحيدة من مدن الديكابوليس التي لم يحدّد مكانها تحديداً قاطعاً . وهناك موقـع آخر اقرب الى اربد هـو بلدة ايدون ، ورغم التقارب بين الإسمين الا ان موقع ايدون وآثارها لا توحي بأنها كانت مدينة مهمة .

قلعة الربض :

لا يوجد على طريق عجلون ما يلفت نظر عالم الآثار ، رغم روعة بعض المناظر في الاماكن المؤدية الى وادي الاردن . ولكن في بلدة عجلون نفسها توجد قلعة عربية من طراز بديع . ويمكن الوصول اليها من جرش ايضاً . تدعى هـذه القلعة قلعة الربض وهي تقوم على مرتفع الى الغرب من البلدة ، اما الطريق اليها فتمـر من وسـط البلدة وتصل السيارات الى ابواب القلعه . هذه القلعة هي احدى القلاع العربية القليلة جداً التي تعود الى ايام الصليبيين رقد بناها عز الدين اسامه وهو احد ابناء عمومة صلاح الدين الايوبي وأحد ولاته الاكفاء في الفترة ١١٨٤—٨٥ بعد الميلاد(١) وكان الغرض الرئيسي مـن انشاء هذه القلعة ان يحول دون توسع مملكة اللاتين في شرقي الاردن سواء مـن الكرك في الجنوب او من بيسان عبر وادي الاردن في الغرب ، ولكي تحافظ على طرق المواصلات مع دمشق . وفي ما يلي نص ما كتبه احد كتّاب القرن الثالث عشر العرب عن انشاء هذه القلعة :

« تقع قلعة عجلون بين إقليم السواد التابع لولاية الاردن وإقليم الشراه . وهي حصن جليل على صخره يقوم فوق مرتفع بارز يشرف على وادي الاردن ويبدو للعيان من القدس ومن مرتفعات نابلس . وتعرف السلسلة التي بنيت عليها القلعة باسم جبل عـوف ، لان

(١) هو عز الدين بن اسامه بن منقذ احد امراء قلعة شيزر بجوار حماه ، وليس بينه وبين صلاح الدين اية قرابة ولكنه احد قواده .

عشيرة من بني عوف كانت تقيم فيها منذ ايام الخلفاء الفاطميين الاوائل . وكان يحكم هذه العشيرة شيوخ تكثر الخلافات والحروب بينهم . وبقيت البلاد على هذه الحال حتى ايام الملك العادل سيف الدين ابو بكر ابن ايوب (شقيق صلاح الدين) اذ اقطعها لعز الدين اسامه احد كبار قادته . وبدا عز الدين اسامه ببناء قلعة يلجأ اليها اتباعه من غزوات بني عوف . ولكن هؤلاء لم يلتزموا جانب السكينة فأقنعهم الامير بانه يستهدف من بناء القلعة حمايتهم من عدوان الافرنج ، وعندئذ كفّ بنو عوف عن حركاتهم واخذوا يساهمون في بناء القلعة . وحينما تمّ بناء القلعة دعا الامير شيوخ بني عوف الى وليمة داخل جدرانها ولما فرغوا من الطعام أمر عبيده بالقاء القبض عليهم وسجنهم . ويقال ان ديراً قديماً كان يقوم في موضع القلعه يقيم فيه راهب اسمه عجلون . وقد اقيمت القلعة مكان خرائب الدير وسمّيت باسم ذلك الراهب » .

جرت على هذه القلعة اصلاحات وزيادات في البناء خلال عامي ١٢١٤–١٢١٥ وقام بها ايبك بن عبد الله مملوك الملك المعظم. ويمكن رؤية هذه الزيادات على مخطط القلعة . وترى في بعض الحيطان حجارة كبيرة منحوتة وعلى احدها صليب مما يوحي بصحة ما جاء في اقوال المؤلف العربي من ان القلعة قامت على انقاض هيكل قديم .

عندما سقطت الكرك ومملكة اللاتين لم تبق للقلعة ضرورة عسكرية ، وفي اواخر القرن الثالث عشر اصبحت مركزاً للادارة يقيم فيها حاكم مرجعه دمشق .

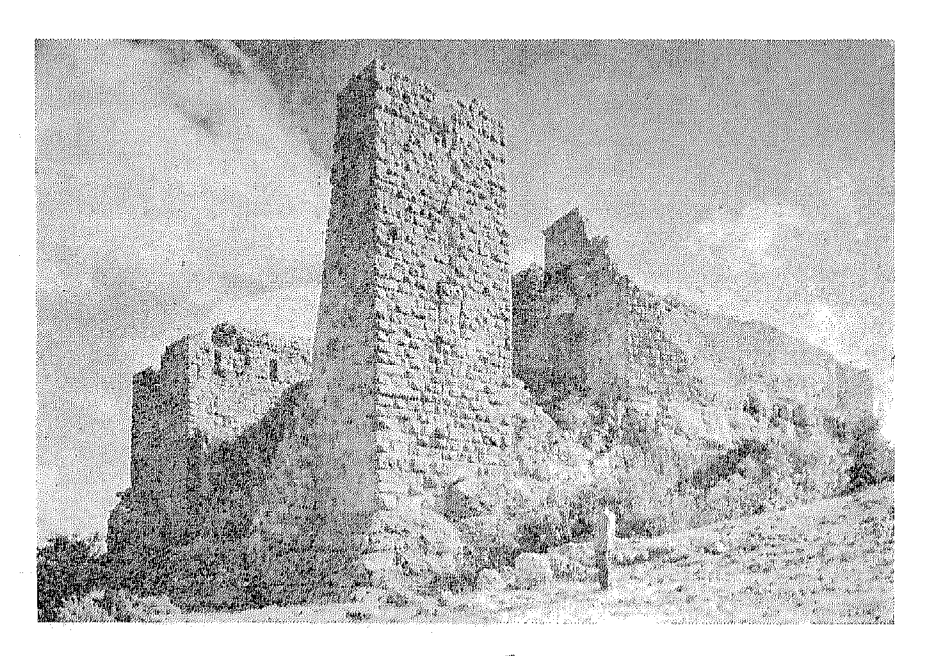
وكانت القلعة تستعمل ايضاً كمخزن للذخيرة والسلاح والمؤن ، وفي عام ١٢١٧ كانت القلعة احدى القواعد التي جمعت فيها الامدادات لنجدة دمياط في مصر . ومن المحتمل ان الاروقة الطويلة المعتمه خارج البرج الرئيسي كانت تستعمل مخازن وليس للسكن . وسرعان ما ادى الاستقرار والسلم الى نشوء قرية حول القلعة ، وما تزال بقايا هذه القرية ماثلة حتى الآن فوق المنحدرات المجاورة . ولا شك ان جميع السكان كانوا يهرعون الى داخل القلعة في اوقات الخطر ويساهمون في الدفاع عنها وعن انفسهم. وفي عام ١٢٦٠ استولى التتار على القلعة ولكنهم لم يلبثوا ان طردوا في السنة ذاتها .

يبدو ان بلدة عجلون كانت قائمة في العهد الذي انشئت فيه القلعه ، لان الكاتب العربي الدمشقي (١) يذكر انه وجد فيها سنة ١٣٠٠ (فواكه كثيرة وارزاق غزيرة) ويصفها ابن بطوطه سنة ١٣٥٥ بانها (مدينة حسنة لها اسواق كثيرة وقلعة خطيرة ويشقها نهر ماؤه عذب) .

---

(١) شمس الدين شيخ الربوة الدمشقي صاحب كتاب نخبة الدهر في عجائب البحر والبر . توفي سنة ٧٢٥ هـ (١٣٢٥ م .)

مخطط قلعة الربض : التي ما يزال القسم الكبير منها قائماً على القمة المشرفة عـلى بلدة عجلون شرقاً ، والمطلة على وادي الأردن السحيق من تحتها الى جهةالغرب .



قلعة الربض في عجلون : كما يراها الصاعد اليها من جهة الشرق :

ان موقع القلعة المرتفع جعل منها موضعاً مثالياً لاحدى المنارات ، وهكذا كانت حلقـة في سلسلة المنارات ومركزاً للحمام الزاجل الذي كانت ترسل الانباء بواسطته من حدود الفرات الى القاهرة بين شروق الشمس ومغيبها .

لا يعرف شيء عن تاريخ هذه القلعة بعد هذا الحين ، سوى ان بعض الاصلاحات البدائية أجريت عليها في القرن السابع عشر . وذكر الرحّاله بركهاردت عند ما زارها سنة ١٨١٢انها ما تزال مأهولة ويقيم فيها « حوالي ٤٠ شخصاً من عائلة بركات » ولكن زلزال سنة ١٨٣٧ تسبب في زعزعة جوانبها وانهيار اجزاء منها .

يبدو ان الجامع الصغير الجميل في البلدة (عجلون) من منشآت القرن الثالث عشر او الرابع عشر ، ويخمّن البعض،بوحي من المئذنة المربعة،ان الجامع كان اصلا كنيسة صليبيه. ولكن بالنظر الى ان الصليبيين لم يستولوا قط فيما نعرف على عجلون او القلعة ، فان هذا التخمين غير وارد . ويدل اسم قرية كفرنجه التي تقـع عـبر الوادي انه كان هناك بعض الافرنج ، ولكن من المحتمل انهم كانوا اسرى .

قامت دائرة الآثار خلال الاعوام ١٩٢٧ — ١٩٢٩ باجراء اعمال ترميم وصيـانة ورفع انقاض على مقياس واسع في هذه القلعة ، وكان الدخول الى القلعة قبل ذلك صعباً للغاية ومليئاً بالمخاطر . ويمكن الدخول الى القلعة الآن مـن البوابة الثالثة (C) بـواسطة سلالم حديدية مثبتة في الصخر . ويبدو ان بناة القلعة تركوا عموداً صخرياً قبالة هذا المدخل عندما حفروا الخندق ، ولا بد انهم انشأوا بين المدخل والعامود جسراً خشبياً متحركاً . عندمـا يتسلق المرء هذا المدخل فانه يصل الى البوابة (B) فيرى صور طيور حفرت في القوس.وهناك حائط مزدوج فوق هذه البوابة ، ومن المحتمل ان باباً حديدياً كان يغلق في الفراغ القائم بين الحائطين لكي تسد به البوابة عند الهجوم . ويستدير المرء يساراً داخل هذه البوابة ثم يستدير الى اليمين فيصل الى البوابة الأصلية (A) . وامام البوابة على الارض قاعدتـان مزخرفتان كانتا تؤلفان قاعدة لمزغل قائم فوق البوابة لالقاء المقذوفات على العدو . اما المدخل النهائي للبناء الاول فقد كان في (D) تحت حماية البرجين الاول والرابع على جانبيه . ويتضح من خارطة القلعة انها انشئت اصلا على شكل قريب من المربع تحميها الابراج ١ ، ٢ ، ٣، ٤ في الزوايا . وفيما بعد اضيفت الى القلعة اجنحة الى الشرق والجنوب ، وانشيء للجناح الشرقي برجان في زاويته هما ٥ و٦ . والملامح الرئيسية البارزة في هذا البناء القديم هي خشونة حجر

البناء وفتحات النوافذ الضيقة ، اما نوافذ البناء الجديد فهي اوسع . وكانت الكوى المستطيلة تضم حجارة يمكن رفعها في اوقات السلم لعبور الضوء والهواء ، وفي البرج السابع مثال واضح على هذا . وبالاضافة الى الصهريج الكبير خارج القلعة توجد داخل القلعة صهاريج اخرى ما يزال بعضها يستعمل حتى الآن .

عمان :

عمان هي عاصمة الاردن واكبر مدينة في البلاد ، وهي كذلك المدينة الوحيدة — فيما عدا القدس—التي يوجد فيها فنادق من الدرجة الاولى . وتعتبر عمان مركزا ملائماً لمن يريد القيام بعدد من الرحلات القصيرة في البلاد كما يمكن إعداد ما يلزم لرحلات طويلة ايضاً .(١)

عندما زرت عمان للمرة الاولى عام ١٩٣٢ لم تكن اكثر من قرية كبيرة ، لان السلط كانت اكبر بلدة في شرقي الاردن خلال العهد التركي ، ولم تكن عمان سوى قرية صغيرة اخرى من قرى الشركس . والامير عبد الله هو الذي اختار عمان لتكون عاصمة امارته الجديدة التي انشأها بعد الحرب العالمية الاولى .ولقد كان ذلك الاختيار موفقاً لان عمان تقع في موقع متوسط من البلاد اكثر من السلط ، ثم ان لها مزية مرور سكة الحديد فيها . وفي عام ١٩٣٢ كانت بيوت الشراكسة ما تزال ماثلة منها المسقوف بالقرميد الاحمر ومنها ذو السقوف العادية . وكان اكثر بيوت البلدة في الأودية ولكن اتجاه المباني الجديدة قد بدا زحفه نحو قمم التلال المحيطه . وكانت الشوارع ضيقة واكثرها غير معبد ، اما مكتب رئيس الوزراء فقد كان في بناء صغير بجانب السيل ، كما كان ديوان الامير عبد الله في منزل مجاور لفندق فيلادلفيا الذي بني قبل ذلك بفترة وجيزة . اما الاسواق والدكاكين فقد كانت ماتزال على نسق مثيلاتها في اية بلدة شرقية على اطراف الصحراء . وكانت الطريق الوحيدة الى الجنوب تقطع السيل قريبا من الجسر الروماني ، وفي ذلك الحين كانت بقايا آثار رومانيا وبيزنطية ما تزال ماثلة في اماكن كثيرة من البلدة . وكانت دائرة الاثار في بيت مؤلف م خمس غرف قريباً من المدرج ، ثم اصبح لفترة قصيرة مقر القيادة العامة للجيش العر واخيراً صار مكتباً لدائرة الآثار .

---

(١) الواقع انه توجد فنادق من الدرجة الاولى في رام الله وبيت لحم والعقبة وأريحا بالاضافة الى عمان والقد

عندما عيّنت مديراً للآثار في الاردن عام ١٩٣٦ اتخذت من جرش دار إقامة لي ، ولكنني اضطررت للانتقال الى عمان عام ١٩٣٩ عند اندلاع نار الحرب كي اقوم بالمهام العديدة التي القيت على عاتقي نتيجة للحرب ، وبقيت في عمان حتى عام ١٩٥٦ . ولقد جلبت الحرب رخاء عظيما للبلدة وبدأت مناطق السكن تنتشر وتتسع فوق التلال . وعندما اقبلت الحرب على نهايتها اصبح اتساع العمران من السرعة بحيث انني صرت اخطىء في التعرّف على الطرق في الاحياء الجديدة التي لم اكن ازورها باستمرار . على ان البلدة عرفت اعظم فترات الاتساع بعد تدفق النازحين اليها من فلسطين عامي ١٩٤٨-١٩٤٩ ، حينما اخذ اصحاب الاعمال منهم يبنون بيوتاً لانفسهم . وعمان اليوم مدينة كبيرة مزدهرة رغم ان فن المعمار والهندسة في منازلها واحيائها ليس على ما يرام ، الا ان الحجر الابيض الذي يستعمله اكثر السكان في بناء منازلهم يضفي عليها روعة وجمالا ويخفي ما قد يكون فيها من نشاز. وما يزال جانب من السوق المخصص لحاجيات البدو والفلاحين قائماً ، ولكنك تجد في السوق التجاري الرئيسي بضائع معروضة للبيع من جميع انحاء العالم .وتبلغ مساحة المدينة الحديثة ستة اضعاف مساحتها في عهد الرومان والبيزنطيين عندما بلغت أوج ازدهارها القديم (١) .

تاريخ عمان :

اقتصرت الحفريات القليلة التي أجريت في عمان على القلعة حيث لم يبق فيها شيء من آثار العهود التي سبقت ايام الرومان . وقامت دائرة الآثار بتنظيف بعض القبور التي تعود للعصور البرونزية والحديدية والفترات الرومانية والبيزنطية . وهي قبور عثر عليها اثناء القيام بعمليات البناء . وعلى اية حال فانه يمكن التعرّف على جوانب من تاريخ عمان نتيجة البقايا الآثارية التي وجدت حول عمان وما جاء عنها في التوراة .

تدل الأدوات الصوانية التي عثر عليها في التلال المجاورة ، ان انسان ما قبل التاريخ سكن في هذا الموضع ، ويؤكد هذا توافر المياه الغزيرة التي كانت من المطالب الرئيسية لاولئك السكان القدماء . وتعود هذه الادوات الى العهد الباليوليثي فالعهد النيوليثي فالعهد الخالكوليثي (حوالي ٣٥٠٠ ق.م) ، اما مجموعة الانصاب (Dolmens) التي عثر عليها في المنطقة المجاورة فتعود الى العهد الاخير او الذي قبله . والى ما قبل فترة قريبة كان احد الانصاب ما يزال قائماً في احد المنحدرات في وسط عمان تقريباً .

---

(١) أما سنة ١٩٦٣ فقد بلغت مساحتها عشرة اضعاف المساحة القديمة ،وبلغ عدد سكانها ٣٤٤ر٢٧٧ نسمة.

ولا شك ان ربة عمون التي ورد ذكرها في التوراة كانت قائمة على تل القلعه ، ولكن معظم آثارها اندثر عندما اخذ الرومان ينشئون مبانيهم في الموضع ذاته ويطرحون الانقاض القديمة على حافة التل. والبرهان على هذا يكمن في ما عثر عليه من بقايا اثرية تعود الى العصر البرونزي الاول والاوسط والى العصر الحديدي والفترة الهيلينية — ممتزجة مع بعضها البعض بالاضافة الى اثار رومانية في اخاديد عميقةحفرت في منحدرات تل القلعه.وهناكبرهان واضح على انها كانت مأهولةبالسكانفي عهد الهكسوس(حوالي١٦٠٠ق م. اواسط العصر البرونزي) اذ عثر على قبر من تلك الفترة الى الجنوب الغربي من القلعه . ونرى من اثار الهيكل الذي اكتشف حديثا في ارض المطار والذي يعود تاريخه الى اواخر العصر البرونزي ،ان الموضع كان مأهولا بالسكان في هذه الفترة ايضاً .

وأول اشارة في التوراة لعمان وردت في سفر التثنية الاصحاح الثالث، حيثذكر ان السرير الحديدي لعوج ملك باشان موجود في ربة عمون ، ويفهم من تلك الاشارة ان حرباً حدثت بين عمون وباشان وان عمون انتصرت وحصلت على غنائم. ويتبين كذلك ان عمون كانت عاصمة العمونيين منذ ذلك الحين (١٢٠٠ ق م .)

وعندما قام موسى بتوزيع الاراضي بين بني اسرائيل ،نرى انـــه اختّص سبط جاد بنصف أرض بني عمون ، ولكن من المشكوك فيه ان يكون الاسرائيليون قد استطاعوا فعلا احتلال الاراضي حتى عمان شرقاً ، اذلم يذكر اسم ربـــة عمون بالتخصيص (يشوع ١٣ : ٢٥) . ولم يرد ذكر ربة عمون في قائمة القبائل والمدن في شرقي الاردن (يشوع ١٢٤ : ١) رغم ادعاء الاسرائيليينبانهم استولوا على البلاد من عروعير في وادي الموجب الى جلعاد وباشان . ويعتقد ان الاشارة لا تشمل سوى الاطراف الغربية من البلاد.

اما المصدر الثاني فيعطينا تفاصيل أكثر عنالاحداث(صموئيل **الأول** الاصحاح ١١). قام ناحاش ملك عمون حوالي ١٠٥٠ق م . بهجوم على يابيش جلعاد (وادي اليابس) الى الى الشمال الغربي فأعلن سكانها رغبتهم في السلم . ووافق ناحاش على رغبتهم مشترطاً ان ان يقلع العين اليمنى لكل واحد من السكان . وطلبشيوخ يابيش جلعاد مهلة سبعة ايـــام لكي يحاولوا الحصول على نجدات . رمن العجيب ان ناحاش وافق عـــلى طلبهم . وارسل

هؤلاء يستنجدون بشاؤل في فلسطين ، فجمع هذا جيشاً وطلب من الشيوخ ان يعدوا بالاستسلام لناحاش في اليوم التالي . ونتج عن هذا ان العمونيين تلكأوا في الهجوم فباغتهم شاؤل وهزمهم .

وعندما اصبح داود ملكاً حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م . توفي ناحاش وخلفه ابنه حانون (صموئيل الثاني ١٠) . ويبدو ان ناحاش كان قد صنع معروفاً مع داود ، وقد يكون اجاره في بلاده عندما كان شاؤل يطارده ، واراد ان يرد هذا الجميل للأبن فارسل عدداً من اتباعه لتعزيته بوفاة ابيه . وحدث ان مستشاري حانون اقنعوه بأن نوايا داود ليست شريفه كما يدعي وان غرضه من ارسال اتباعه هو التجسس تمهيداً للهجوم على المدينة . « فأخذ حانون عبيد داود وحلق انصاف لحاهم وقص ثيابهم من الوسط الى استاههم » ، وهي وسائل للتحقير كانت سائدة في ذلك العهد . وغضب داود لهذا العمل وارسل جيشاً بقيادة يوآب كي يثأر لكرامته التي اهينت . واستنجد العمونيون بحلفائهم واكثرهم من السوريين وجمعوا واياهم قوات للقتال ، وعند تنظيم الصفوف بقي السوريون في الميدان بينما عسكر العمونيون وحلفاؤهم الاخرون حول ابواب عمون . وقسم يوآب جيشه الى قسمين لمجابهة الموقف ، وتمكن من هزم الحلفاء حتى تراجع العمونيون الى داخل اسوار مدينتهم . ولم يواصل يوآب الحرب محاولا الاستيلاء على المدينة فعاد الى القدس . وجمع السوريون اثر ذلك جميع قواتهم واشتبكوا في القتال مع داود ، ولكنهم هزموا بحيث لم يعد في مقدورهم انجاد العمونيين في المستقبل . وبعد مدة من الزمن ارسل داود جيشاً آخر بقيادة يوآب لاحتلال ربة عمون . وحاصر جيش يوآب المدينة ولكنه لم يستطع الاستيلاء عليها . وفي هذه المرحلة من الحصار حدث مقتل اوريا الحثي بالصورة المخزية المعروفة ، واضطر يوآب لطلب النجدة فجمع داود قوات جديدة واستولى على المدينة . ووصفت ربة عمون بانها (المدينة الملكية) اي العاصمة وبانها (مدينة المياه) وفي هذا اشارة الى الينابيع الغزيرة التي تتفجر حولها وما تزال تسقي اهلها حتى الآن . وبعد ان استولى داود على المدينة اخذ تاج الملك ووضعه على راسه ، وقيل ان هذا التاج كان يزن وزنة كامله من الذهب وانه كان مرصعاً بالحجارة الكريمة . وربما كان ذلك يعني التاج الموضوع على راس تمثال ملكوم آله عمون ، ومعنى الاسم (آلههم) . واخذ داود كذلك غنائم تفوق الحصر . وكانت معاملته للاهلين غاية في الوحشية لانه « وضعهم تحت مناشير ونوارج حديد وفؤوس وامرّهم في اتون الآجرّ » ، اي انه احرقهم احياء .

على ان خراب المدينة لم يكن كاملا ، فبعد مدة وجيزة نرى (شوبي) ملكاً على عمون وهو من ابناء ناحاش ، وبدأ هذا بتقديم المؤن والحاجيات لداؤد كالاسرّة وأسلحة حربية غريبة ، وذلك اثناء القتال بين داود وابنه ابشالوم . والواقع ان عمان استمرت في الازدهار ، وعندما صار سليمان ملكاً انشأ في القدس هياكل لعدد من الالهة ومن بينها ملكوم ومولك (الارجاس العمونية) وفعلت زوجاته الغريبات فعله اي قمن بعبادة الاصنام (الملوك الثاني الاصحاح ٢٣ حوالي ٩٤٠ ق م) .

وتجيء التوراة على ذكر عمون في سفر عاموص (١:١٣) حوالي ٧٦٠ ق . م حيث يتنبأ عاموص ضدّها ويتهم العمونيين بانهم يسلكون مسلكاً وحشياً في حروبهم ويتوعد عمون بنيران تقع على اسوارها بحيث « تأكل القصور بجلبة في يوم القتال ، بنوء في يوم الزوبعة » . وبأن الملك سيؤخذ اسيراً مع الامراء . وهذا يدل على ان عمون بقيت محتفظة بقوتها وازدهارها ، والنبوءة المتقدمة هي الاولى في سلسلة الخطابات التشهيرية ضد مدينة عمان (الشريرة بزعمهم) .

وفي اوائل القرن السادس نجد ارميا (٤٩ : ٢) يقول ان ملكوم آله عمون قد تملك جاد ، وهذا يعني ان عمون لم تحتفظ باستقلالها فحسب بل استعادت جانباً من اراضي سبط جاد . ونرى ارميا يتنبأ ضد عمون كسلفه عاموص بأنها « وتصير تلا خراباً وتحرق بناتها بالنار (اي قراها) وسترتدي المسوح وتركض هنا وهناك بين الجدران ، لان ملكوم سيذهب الى السبي وسيطرد كل رجل دون امهال » . ويستمر التقريع لربة عمون ، لكبريائها الطبيعية في واديها الخصيب . ويتضح ان لهذه النبوءات علاقة بزحف نبوخذ نصر البابلي . ولكن نبوخذ نصر لم يستجب للتنبوءات ولم يحقق تدمير عمون . وربما كان سبب هذا موالاة عمون لبابل كما يفهم من سفر الملوك الثاني ٢٤ : ٢ .

وبعد ارميا ببضع سنوات حوالي ٥٨٨ق م . جاء حزقيال يبدأ التنبوات من حيث تركها ارميا ، وهدّد بان نبوخذ نصر سيدمر عمون بحيث لا تجد من يذكرها . وهناك اشارة طريفة لملك بابل عندما يصل الى مفترق طريقين : احدهما يؤدي الى القدس والاخر الى عمون ، فيلجأ الى استلهام الوحي واستقراء الغيب في اي الطريقين يسلك ، فيهزّ سهمين كتب على احدهما القدس وكتب على الاخر عمون ، ويلجأ الى طرق اخرى . ويبدو ان سوء الحظ كان حليفاً للقدس بينما بقيت عمان عامرة ولم تتحقق النبوءة بشأنها مرة اخرى . وبعد خراب القدس نرى حزقيال غاضباً اشد الغضب على عمون ويتهم العمونيين بانهم

« يصفقون بأيديهم ويدقون بأرجلهم » . ويقيمون الافراح ابتهاجاً بنكبة اليهود — وهو ردّ فعل طبيعي في تلك الظروف . ونرى حزقيال يؤكد ان عمون ستصبح اصطبلا للجمال وان البدو سيستولون عليها . وسنة ٥٨٥ ق. م . نرى بعليس ملك عمون — لسبب مـا — يغري اسماعيل بقتل جدليا الوالي البابلي المعين لحكم فلسطين (ارميا ٤٠ : ١٤) .

بعد هذا تصمت التوراة ولا تعود لذكر ربة عمون ، وتبرهن بعض القطـع الاثرية على استمرار العمران فيها اثناء فترة الحكم اليوناني حوالي ٣٠٠ ق . م . ونعلم مما احتوته بعض المصادر الكتابية القديمة ان عمون خضعت لبطليموس المصري خلال جزء من القرن الثالث ق.م. وان المدينة اعيد بناؤها وسميت فيلادلفيا على اسم بطليموس فيلادلفوس الثاني (٢٨٣—٢٤٦ق.م) . واستولى الملك السلوقي انطيوخس الثالث على المدينة حوالي سـنة ٢١٨ ق. م اثر حصار طويل ،وكان من المحتمل ان يستمر ذلك الحصار الى ما لا نهاية لولم يبح احد الاسرى بسر خطير عن وجود ممر سري في باطن الارض يؤدي الى مصادر المياه خارج اسوار المدينة . ويقول يوسيفوس المؤرخ اليهودي انه لم يكن في القلعـة سوى بئر صغيرة للماء ، ولكننا نعرف انه كان فيها كذلك عدد كبير من البرك لجمع مياه الامطار .

وفي القرن الاول للميلاد استولى الانباط على عمان ، ولكنهم لم يبقوا فيها مدة طويلة لان هيرودس الكبير اخرجهم منها حوالي سنة ٣٠ق . م . وبعد الفتح الروماني اعيد تخطيط المدينة وبناؤها على مقياس واسع حتى ان معظم البنايات القديمة محيت واندثرت بفعل الاعمال الانشائية الجديدة . وفي عهد البيزنطيين صارت عمان مركزا لابرشية البتراء وفيلادلفيا ، وهي احدى الابرشيات التسع عشرة في فلسطين الثالثة التابعة لمدينة بصرى .

وتدل الحفريات التي اجريت على جبل القلعه في الموضع الذي بني عليه متحف الاثار فيما بعـد ان عمان كانت ما تزال مزدهرة عندما جاء الفتح العربي في القرن السابع الميلادي. ومن المحتمل ان يكون البناء المربع الموجود على ذلك الجبل قد بني في القرن الثامن.وقد أشار عدد من الرحالة والجغرافيين العرب لمدينة عمان في كتاباتهم اثناء القرون التالية ،ويفهم المرء من مؤلفاتهم ان عمان اخذت تتضاءل بصورة تدريجية في ثروتها وعدد سكانها حتى جاء القرن الخامس عشر عندما وصفت بانها انقاض وخرائب . وحوالي سنة ١٨٨٠ اسكن الاتراك في عمان بضع عائلات من الشراكسه ، ولكنها بقيت قرية صغيرة فقيرة حتى جاء الامير عبد الله بعد انتهاء الحرب العالمية الاولى وجعلها عاصمة له . ومنذ ذلك الحين اخذت تنمو وتزدهر حتى صارت الى ما هي عليه اليوم. ومع ذلك اختفت مرة اخرى معالم أثرية كثيرة اثناء عمليات البناء والانشاء.

آثار عمان :

ما تزال في عمان حتى اليوم بقية من آثار العهد الروماني . وأهم هذه الآثار هو المدرّج الكبير الفخم الذي بني على جانب احد التلال بعد ان قطع ذلك الجانب ونزعت صخوره وأتربته . يتسع هذا المدرج الى ستة آلاف متفرج. ولقد اختفى المسرح ولم تبق سوى اساساته ، واما منصة الموسيقى فلم تجرَ حفريات للكشف عنها بسبب ارتفاع مستوى الطريق الى جانبها ، ولا بدّ ان مياه الفيضانات التي تسببها امطار الشتاء قد جرفتها معها . والأعمدة القليلة التي ما تزال منتصبة حتى الآن هي بقية مجموعة من الأعمدة التي كانت اصلا تحيط بساحة قائمة الزوايا. والى الشرق منها بناء كان بمثابة قاعة للموسيقى او مسرح مدرج (Odeum) وهو يجاور الان حديقة فندق فيلادلفيا من جهة الشرق . وكانت هذه القاعة تستعمل كمسرح صغير تمثّل فيه المسرحيات الجدية او تؤدى فيه الادوار الغنائية والموسيقية والقراءات الادبية والشعرية التي لا تهم سوى خاصة الخاصة ولا تمثل في مسرح المدرج الكبير . وكانوا عادة يسقفون تلك القاعات (١).

وعلى ضفة السيل ترى بقايا السيل او الحمام (Nymphaeum) ومن الواضح انه كان بناء مهما على قدر عظيم من الفخامة ، اما الان فهو خرب متهدم وقد ادخلت جوانب منه في منازل بعض الاهلين . وكان مجرى السيل مسقوفاً بالقناطر من هذا الموضع الى ما وراء فندق فيلادلفيا ، ويبدو ان سقف هذا الجانب كان ذا علاقة بتنظيم المدينة الذي لا نعرف عنه شيئاً . ولا يزال جانب من هذه القنطرة قائماً حتى الان تحت الحمام . ونحن لا نستطيع ان نعرف بالدقة تاريخ انشاء هذه المباني لان احداً لم يعثر على كتابات فيها ، ولكن هندسة الابنية تدل على انها انشئت خلال القرن الثاني او اوائل القرن الثالث للميلاد .

وكانت عمان ـــ كغيرها من المدن الرومانية ـــ تضم شارعاً مبلطاً تحيط بجوانبه الأعمدة ، وكثيراً ما عثر السكان على مساحة صغيرة من حجارة التبليط الفخمة اثناء قيامهم باعمال الحفريات ، وفيما عدا هذا لم يبق شيء من ذلك الشارع فوق مستوى ساحات المدينة .

---

(١) انشأ الرومان عدداً من المدرجات في الاردن . وأعظمها دون شك مدرج عمان الرئيسي . وهذه المدرجات موزعة كما يلي : ٢ في عمان ٢ في بلا (طبقه فحل) ٢ في البتراء ٢ في جدارا (ام قيس) ٣ في جرش ، ١ في سبسطيه. ويعتقد الدكتور عوني الدجاني ان مدرج عمان يتسع الى حوالي عشرة الاف شخص . وفي عام ١٩٦٠ اجرت دائرة الاثار اصلاحات وترميمات مهمه في هذا المدرج بحيث اصبح صالحاً لاقامة الحفلات العامه في فصل الصيف (راجع مقالة الدكتور الدجاني في مجلة (رسالة الاردن) عدد كانون الثاني ١٩٦١). وما تزال اعمال الترميم مستمرة حتى الان

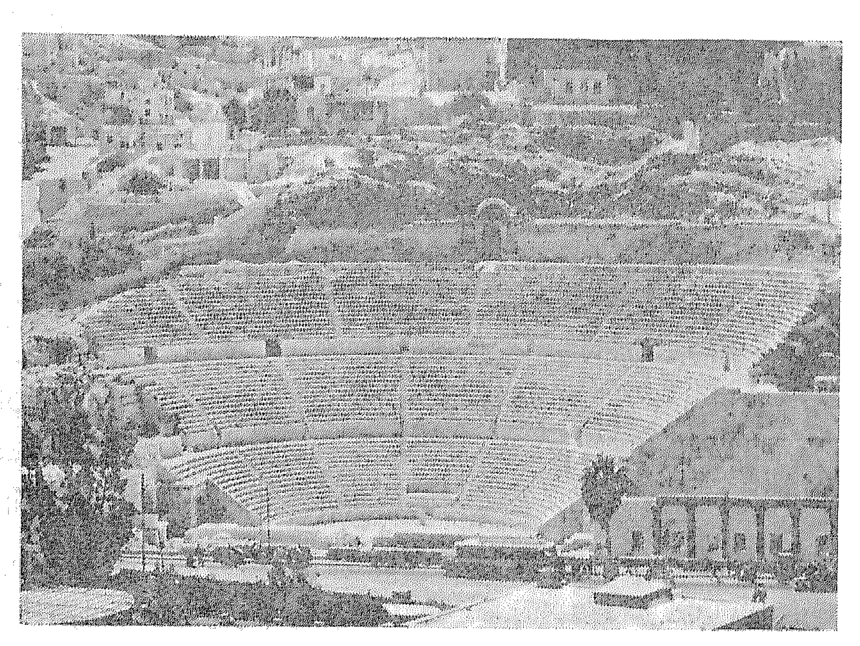
على ان الاثار الرئيسية الباقية ما تزال على جبل القلعة الذي كان محاطاً بسور يمكن مشاهدة جوانب منه حتى الآن ، خاصة في الجهة الشمالية والشمالية الغربية (١) .ان كل ما تشاهده العين من آثار على ارض الجبل تعود الى العهد الروماني والبيزنطي والعربي، فيما عدا الزاوية الشمالية الشرقية حيث ما يزال جانب من مدينة العصر الحديدي قائماً حتى الان .ولقد كانت المساحة الداخلة ضمن نطاق السور مجزأة الى جزئين يفصل بينهما حائط استنادي ، ويزيد مستوى ارتفاع الجزء الشمالي الشرقي ،وهو يشمل جميع الابنية العامة ذات الاهمية والهياكل والكنائس وغيرها . وليس بالمستطاع تعيين مواقع البوابات في الاحوال الحاضرة، ولكن هناك بوابة تعود الى العهد البيزنطي في السور الغربي غير بعيد عن البناء المربع المذكور سابقاً . وهذا البناء المربع ما يزال يحتفظ بمعالمه اكثر من الاثار الاخرى ، وهو يعود اما الى العهد الاموي (القرن السابع او الثامن) او لفترة الغساسنة (القرن السادس للميلاد) .ولا تعطي هندسة البناء فكرة واضحة عن الغرض من انشائه .انه لم يكن جامعاً كما يبدو ، ومن العسير الاعتقاد بانه كان منزلا لان تصميم البناء غير ملائم لذلك . ومن المحتمل انه كان قاعة للاستقبال يصل الزائرون اليه على طريق المواكب من منازل السكن الى الشمال . وكانت القاعة الوسطى من البناء مسقوفة بقبة في الاصل (٢) ، وما تزال بقايا الزخارف الرائعة المحفورة على الحيطان ماثلة حتى الآن .

يقع هذا البناء في الزاوية الجنوبية للساحة التي كانت في عهد الرومان مفتوحة خالية تحيط بها اسوار عالية تزينها محاريب صغيرة تعلوها اقواس على هيئة صدفه ، ويمكن رؤية بقايا الاسوار الى الشمال والشرق ، وفي الفترة التالية انشئت بنايات كثيرة في هذه الساحة . وهذه البنايات التي انشئت مؤخراً ما تزال ماثلة اكثر من سواها حتى اليوم . وقد كانت هناك بعض المنازل الكبيرة خارج السور من جهة الشمال . ومن المحتمل انها كانت تشمل قصر الحاكم المحلي ودارات كبار المسؤولين . وفي الوقت الحاضر لا توجد بقايا اثرية واضحة للفترة التي سبقت القرن الثامن .

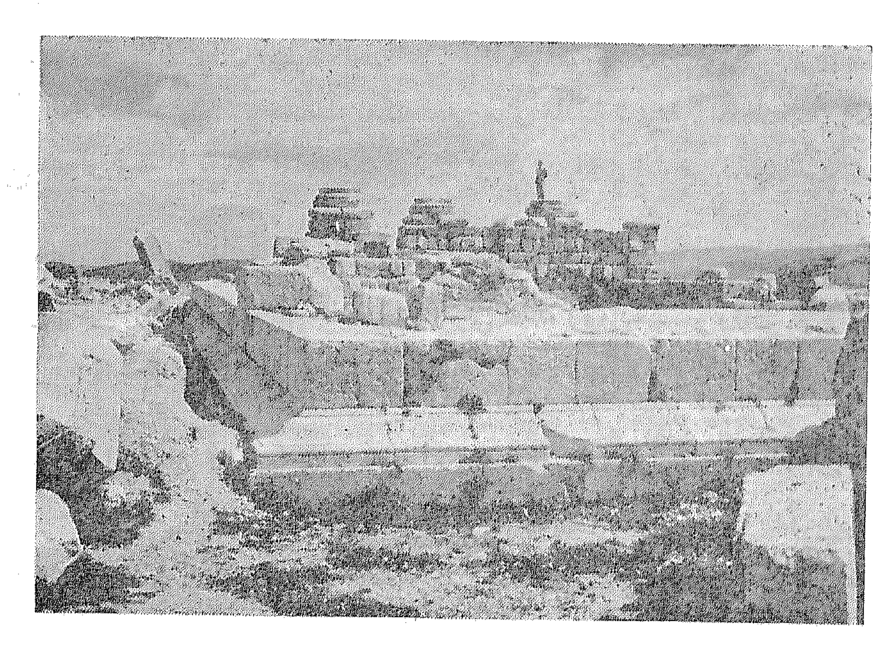
---

(١) في عام ١٩٦١ قامت دائرة الاثار بتعزيل كميات كبيرة من الاتربة المتراكه حول جدران السور وبذلك كشفت جوانب جديدة منه ، كما قامت بتعزيل كميات من الركام في الجهة الجنوبية الشرقية من القلعة .

(٢) يرى البعض ان الساحة الوسطى كانت مكشوفة لادخال النور الى البناء .



المـــدرج الروماني في عمـــان



هيكل (هرقــل) على جبل القلعــة في عمان

وفي محاذاة السور الشمالي للقلعة على الارض الواطئة ، يوجد صهريج عظيم الاتساع محفور في الصخر يمر منه المدخل الى الممر الأرضي المؤدي الى القلعة . ولا بد ان الحامية كانت تتزود منه بحاجتها من الماء في اوقات الحصار ، والممر مغلق في الوقت الحاضر بسبب انهيار سقف النفق ، لذلك لا يعرف اين يخرج النفق داخل القلعة .

كان الهيكل الروماني في الزوايا الجنوبية الغربية مكرساً لاسم هرقل ، وتقول احدى الروايات القديمة ان تمثالا ضخما لهذا الآله كان ينتصب بجانب الهيكل : والرواية صحيحة لأنه عثر على قطعتين من المرمر لتمثال بهذا الوصف ، واحدى القطعتين لكوع ويد نستطيع منهما ان نقدّر ان ارتفاع التمثال كان لا يقل عن ثلاثين قدماً . اما الهيكل ذاته فقد كان مثالا ممتازاً للهياكل المماثلة ، يدل على هذا متانة تخطيطه وجودة الصنعة فيه ، وترى الصخر مكشوفاً داخل المذبح مما يدعو الى الظن انالهيكل بني في موضع هياكل قديمة حينما كانت الصخور المرتفعة تقوم مقام المذبح . ويعتقد البعض ان سلمّا من الدرج كان يصل بين الهيكل والمدينة في الوادي ، لان بقايا بوابة مزخرفة كانت ما تزال قائمة حتى عام ١٩١١ .

وهنالك كنيسة متواضعة من منشئات القرن السادس او السابع هي الأثر الاخر الباقي على القلعة حتى الآن . ولكن نظرة واحدة على التلال المجاورة تكشف مغائر كثيرة بعضها مأهول بالسكان ، و كانت تستعمل امكنة لدفن موتى المدينة القديمة . اما المنخفض المستدير الواسع بجوار البناء المربع فهو اما ان يكون بركة او طرف النفق الأرضي الذي اشرنا اليه قبلا .

وعلى مسافة بضعة كيلو مترات الى الشمال من عمان على الطريق الرومانية القديمة المؤدية الى جرش — يوجد ضريح فخم البناء تزينه النقوش لعائلة رومانية يسمى « قصر نويجس » ومن المحتمل انه يعود للقرن الثالث الميلادي وهذا الضريح أثر بديع ولكن لا يسهل الدخول اليه .

ويرى المرء على قمم كثير من التلال المحيطة بعمان خرائب بنايات صغيرة اكثرها مربع وأحيانا اجزاء لبعض الأسوار . وترجع هذه في اغلبها للعصر الحديدي ، ويبدو انها سلسلة من ابراج المراقبة او الحصون التي كانت تحيط بالعاصمة ، حيث كان بمقدور المقيمين فيها ان ينذروا المدينة في الوقت المناسب عن قدوم الأعداء من أي جهة ، وربما كان بمقدور هذه التحصينات ان تقاوم العدو فترة من الزمن .

عراق الامير :

تقع خرائب هذا البناء الغريب في وادي السير الى الغرب من عمان ، وتعدّ الرحلة اليها ممتعة بالنسبة لهواة ركوب الخيل . ويمكن استئجار خيول في قرية وادي السير ولكن من الافضل اعداد الترتيبات لذلك في اليوم السابق للرحلة .

تسير الدرب من القرية الى جهة الغرب على امتداد الجانب الجنوبي من الوادي ، وسرعان ما تبدأ بالانحدار مع المنحنيات . ومنظر الوادي في فصل الربيع جميل جداً حيث تنمو الاشجار الباسقة على جانبي النبع وحيث تكسو التلال خمائل الاعشاب الخضراء وعيدان القمح المتموج . ويبدو المنظر اكثر روعة في فصل الصيف عندما يكون كل شيء جافاً عارياً بينما تستطيع ان تجلس تحت ظلال الشجر الى جانب الماء الجاري . حتى ان الكولونيل كوندر الذي ساح في هذه البلاد عام ١٨٨١ كتب يصف هذا الوادي في كتابه (هيث وموآب) بقوله :

« ان المناظر في هذا الوادي والأودية الاخرى القريبة تمثل مفارقة شديدة بالنسبة لمناظر الهضبة السهلية . فالينابيع الصافية تجري بين المروج الخضراء او تشكل شلالات من فوق المرتفعات الصخرية حيث تنمو شجيرات العليق ونباتات السرخس ، وحيث تغطي المنحدرات اشجار البلوط الكثيفة حتى تغدو اشبه بغابات انجلترا ، وهنا وهناك تبدو اطراف التلال ذات الصخور البيضاء .اما تحت فترى الحجارة الصفراء والحمراء والارجوانية وقمم المرتفعات الصغيرة التي تغطي الارض فوق سهول وادي الاردن ، والفيافي العريضة المنقوشة بالاشجار ومضارب البدو ، والجروف العميقة ذات المساطب الضيقة حيث ترتفع غمغمة النبع بينما يختفي مجراه خلف اعواد القصب الطويلة وشجيرات الدفلى ذات النوار الأحمر . »

ومن المؤسف ان غابات البلوط لم تعد تكسو المنحدرات . ولكن فيما عدا ذلك فان وصف كوندر ما يزال مطابقاً للحقيقة .

لا تلبث الدرب ان تقطع الجدول الى الجانب الشمالي وتسير قريباً من السيل لمسافة قصيرة . وبعد ان تقطع النبع تستطيع ان ترى منزلا نحت في الصخر على الجانب الجنوبي وترى النوافذ في الطابق العلوي . وهذا الحائط يحتوي على طاقات مربعة كثيرة حتى ليحسب بعض الناس ان المنزل كله كان يستعمل لتربية الحمام . ومن المحتمل انه يرجع للقرن الأول

ق.م. والقرن الاول بعد الميلاد. وهنا تبدأ الدرب بالارتفاع قليلا وسرعان ما تكبر الشقة بينها وبين الجدول . وبالقرب من قرية البصة الصغيرة توجد طاحونة مائية هي آخر الطواحين من نوعها التي ما تزال تستعمل في البلاد . وتقطع وادياً صغيراً ممتداً من الشمال ، ثم تمر بشجرة كبيرة تحيط بها بعض القبور ولا تلبث ان ترى عراق الأمير تحتك في الوادي .

وتبدأ الدرب بالانحدار تدريجياً حتى تبدو المغائر على اليمين في صفحة المنحدر . وهذه المغائر تنتظم في صفين ، اما أبواب مغائر الصف العلوي فتفتح على رواق طويل يمتد مع صفحة المنحدر ، وقد نقش اسم (طوبيا) الى جانب الباب في اثنتين منها بحروف عبرية . ومعظم هــذه المغائر خال مفتوح في الوقت الحاضر . وترى الميــاه تقطر من سقوف بعض المغائر حيطانها بصورة مستمرة حتى تتحول ارضها الى برك ، وهذه المغائر كبيرة الحجم ولكن بها ليس دقيقاً ، ويستعمل القرويون بعضها كمخازن للغلال والتبن .

وأهم آثار الموقع ذلك البناء الذي يعرف باسم (قصر العبد) ، وقد اختلف العلماء كثيراً ي تحديد زمن بنائه وتعيين الغرض من أنشائه . أما بشأن الزمن فالآراء تتأرجح بين القرن الثالث ق.م. والقرن الأول ب.م. واما بشأن الغاية فيتراوح القول بين القصر والضريح والهيكل. ولا يدل مخطط البناء والشكل الهندسي على تاريخ الأنشاء لأنه لا يشبه اي طراز من الأبنية المعروفة . ويقول يوسيفوس في كتابه « آثار اليهود » ان شخصاً يدعى هركانوس في عهد سلوقس الرابع (١٨٧–١٧٥ ق.م.) قد بنى في هذه الجهات قلعة حصينة من الحجر الأبيض واحاطها بحدائق غناء وبحيرة ونقش على جدرانها نقوشاً تمثل « حيوانات هائلة عظيمة » . وقد نحت في الصخرة الكبيرة فوق القلعة مغائر كثيرة متطاولة . ويقول يوسيفوس ان هذه المغائر كانت تستعمل قاعات للطعام ومنازل للسكن ، ويبدو انها كانت مزودة بالماء. وهذا الوصف كله يطابق موقع عراق الأمير مطابقة تامة ، اضف الى هذا ان الاسم القديم (تور) يطابق الاسم الحديث للوادي (سير) اذ ان حرف س في العربية يقابل حرف ت في العبرية . ويقول بعض العلماء ان الاسماء المنقوشة على المغائر (طوبيا) تشير الى انها كانت مركز قيادة الطوبيين وهم افراد العائلة التي ذكرناها قبلا والذين كانوا أقوياء جداً في شرقي الأردن خلال القرنين الاول والثاني قبل الميلاد .

ومن المحزن ان النقوش التي تمثل صور الحيوانات اصبحت الآن مشوهة تشويهاً كلياً. وقد تهدم البناء جميعه على بعضه . والسبب يعــود في بالدرجة الاولى الى طريقة البناء غير العادية . ان قطع الحجارة المستعملة في البناء ذات حجم كبير ويبلغ طول بعضهــا ٢٠ قدماً.

وارتفاع ١٠ أقدام . بينما لا تزيد سماكة الحجر على١٨ أنشاً وقد بنيت هذه الحجارة بناءافقياً اي جعل ارتكاؤها على الطرف الدقيق بحيث اصبح سقوطها محتما عند اول صدمة تصيبها . وترى داخل الركام بقايا الاعمدة وتيجانها، وفي الزاوية الجنوبية الشرقية قطع احد الحجارة العلوية لكي تصنع منه حجارة درج . وتوجد في البناء كوى وفتحات ضيقة ولكن يبدو انها حفرت بعد اتمام البناء، لان احدى هذه الكوى اخترقت صورة نافرة لاحد الحيوانات. ان حالة البناء المضطربة تجعل من العسير على الباحث ان يستيقن من وضع الابواب ، ولكـــن يبدو انه كان للبناء ثلاثة مداخل واحد في الشمال وآخرفي الجنوب والثالث في الجانب الشرقي. ولقد كان هناك سور يحيط بالقلعة من جميع الجوانب ، ويوجد في الجانب الشمالي منخفض ربما كان في الاصل البحيرة (او الخندق) التي ذكرها يوسيفوس . وهناك بوابة في الجانب الجنوبي من السور تبدأ منها طريق ملتوية تؤدي الى نصف التلة . وربما كان اغرب لمحة من ملامح هذا المكان الغريب تلك الشواهد الحجرية المفروشةعلى جانبي الطريق والتي حفر ثقب في رأس كل منها . ولقد قيل ان هذه الحجارة كانت تستعمل بصورة مـــا لتسهيل نقل حجارة البناء . أو أنانبوباً للماء كان يمر منهذه الثقوب لتزويد القصر، وغير ذلك من الآ راء، ولكن لا توجد دلائل ثبوتية مرضية لقبول اي من هذه النظريات . وعلى هذا فالغرض من هذه الحجارة المثقبة ما يزال غامضاً وربما استمر كذلك رغم ان اجراء حفريات في الموضع سيقدم دون شك اجوبة على بعض علامات الاستفهام .

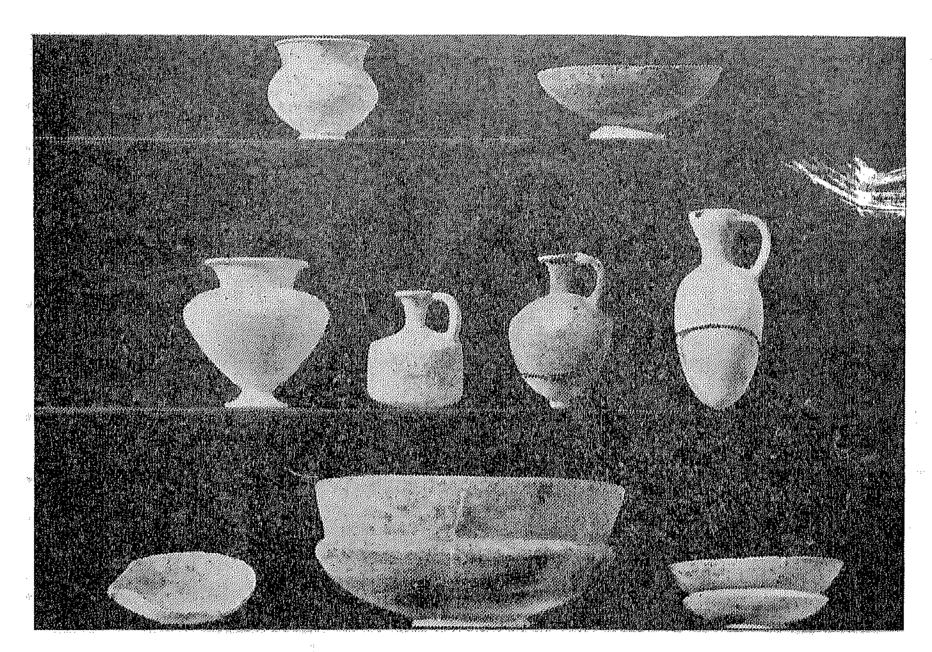
مادبا :

تقع مأدبا الى الجنوب من عمان على مسافة ٣٢ كيلو مترا على الطريـــق التي تؤدي الى الكرك والبتراء . وتسير الطريق من عمان بارتفاع تدريجي في سلسلة مـــن الانحناءات حتى تصل الى الهضبة فتعتدل الطريق ، ويمكن للمسافر ان يشاهد غربي الطريق خرائب قريبـــة تعود الى العصر الحديدي وتدعى اليوم (ام الصوّين) . وتقع قرية (قويسمه) الى الشرق، والى الجنوب منها بناء مربع صغير كان اصلا ضريحاً رومانياً من آثار القرن الثاني او القرن الثالث ب.م . وقبل ان تتقاطع الطريق مع سكة الحديد للمرة الثانية تتفرع عنها طريق اخرى الى الشرق وتؤدي الى سحاب وقصر الخرانة . ويقع الى غـــرب الطريق بعد التقاطع حصن متهدم يعود للعصر الحديدي . وبعد مسافة غير طويلة توجد بقايا ضريـــح روماني آخر الى الشرق من الطريق بينما ترى الى الغرب ناووساً وبضعة اعمدة وجدران متداعية ، وهـــي خرائب قرية رومانية كبيرة كانت عامرة فيما مضى وتدعى اليوم خريبة السوق. وفي اليادودة

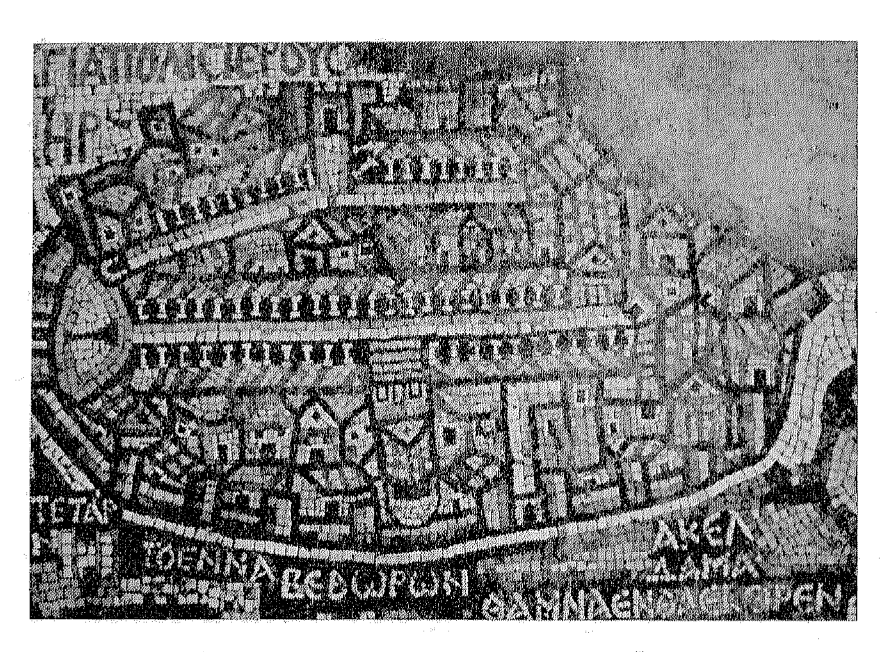
تل طبيعي كبير يقوم في أعلاه بناء ضخم يبدو وكأنه قلعة ، وهذا التل يدعى خربة ابو جابر ، وتسير الطريق منها في سهل واسع ذي تربة حمراء يزرع بالقمح وينتج غلات وافرة في سنوات الخصب . وفي فصل الربيع ترى زهور السوسن السوداء (الدحنون) منتشرة على جانبي الطريق .

وبلدة مادبا ليست على قدر كبير من التنظيم والتناسق ، وقد بنيت على تل صناعي يخفي في باطنه بقايا البلده التي كانت مادبا عبر العصور . وللبلدة تاريخ طويل : اذ ذكرت في التوراة في عهد خروج اليهود من مصر (عدد ٢١) حوالي ١٣٠٠ ق . م. وقبل بضع سنوات وجد ضريح من بقايا ذلك العهد الى الشرق من البلدة . ثم يظهر اسمها في قائمة البلدان التي قسمت بين اسباط اسرائيل (يشوع ١٣—٩) وكانت من نصيب سبط روبين . وبعد ذلك غدت مأدبا بلدة للعموريين بين ديبون (ذيبان) والعاصمة حشبون (حسبان) . وذكر اسمها في حجر ميشع عندما كانت في ايدي المؤابيين .

استعاد العمونيون مادبا في عهد المكابيين (حوالي ١٥٦ ق .م) ولكن يوحنا هركانوس استولى عليها حوالي سنة ١٠٠ ق . م بعد حصار طويل . بقيت البلدة في ايدي اليهود حتى أيام اسكندر جانوس ، وكانت احدى المدن التي وعد بها الحارث ملك الانباط اذا هو ساعد هركانوس على استعادة القدس . ولقد جعل الرومان منها بلدة ريفية نموذجية مثل جرش ، فزينوا شوارعها بالاعمدة وأنشاوا فيها الهياكل الرائعة ومباني عامة اخرى وبرك مياه كبيرة وسور خارجي . واستمر ازدهارها حتى نهاية العهد البيزنطي . وفي ذلك العهد غدت مركز ابرشية (مطرانية) وذكر اسمها في محاضر جلسات مجمع خلقيدونية عام ٤٥١ ب م . ويبدو انها اخليت بعد ذلك وشاهد الرحالون آثارها عندما زاروا البلاد في القرن التاسع عشر ، ولكن هذه الآثار انطمست بسرعة عندما هاجرت الى مادبا جالية مسيحية من الكرك حوالي عام ١٨٨٠ . وهكذا لا يشاهد المرء من آثار البلدة الرومانية الا بركة واحدة ونقوش الفسيفساء . وتمثل قطعة الفسيفساء الرئيسية خارطة مفيدة للغاية لفلسطين والاردن ، وهي موجودة في كنيسة الروم الارثوذكس . وكانت هذه الفسيفساء في الأصل جانباً من ارضية احدى الكنائس ويحتمل انها من منشئات القرن السادس الميلادي . ومن سوء الحظ ان الخارطة غير كاملة ولكنها تشمل صورة بديعة للقدس ، وهي واحدة من اقدم الخرائط لهذه البلاد فهي بالغة الأهمية لتعيين مواقع المدن القديمة . ويوجد في البلدة عدد



نماذج من فخّار العصر البرونزي المتوسط .
ويبدو فيها جمال الشكل ، كما تلاحظ فيها دقــة الصنعة .



خارطة القدس المصورّة بالفسيفساء ، ويعود تاريخها الى القرن السادس الميلادي .

آخر من قطع الفسيفساء وكلها في منـــازل تخصّ الاهلين ، ولكن من المتفق عليه ان يسمح اصحاب تلك المنازل للزائرين بمشاهدتها اذا هم رغبوا في ذلك . وفيما يلي قائمة بالمنـــازل المذكورة وتعريف موجز بما فيها :

١ – منزل متري المصاروة في الجانب الشرقي من البلدة ، وفيه ارضية متقنة صغيرة تمثّل اشكال حيوانات ، ورصيعة تضم في وسطها رأس سيدة .

٢ – منزل مسعد الطوال قريباً من المنزل الأول ، وفيه ارضيـــة كبيرة يحتمـــل انها كانت لدارة خاصة ، وقد بني المنزل الحديث على جانب منها . وترى فيها صورة رجل وامرأة يرقصان وتتحلى المرأة بصنوج في يديها وكاحليها . وهناك صور بعض الحيوانات .

٣ – منزل عزيز شويحات في الجانب الغربي من البلـــدة وفيه بقايا ثلاث او اربع ارضيات مختلفة احداها في الباحة وكلها في حالة هزيلة .

٤ – نقلت دائرة الآثار الى المتحف جانباً من ارضية رائعة الصنعة لا ن اصحاب المنزل الذي كانت موجودة فيه حوّلوه الى كراج . وهذه الارضية مصنوعة من حجارة مستطيلة لا تقل اطوالها عن ضعف اطوال حجارة الفسيفساء العادية . (١)

جبل نبو(٢) :

يقع جبل نبو الى الشمال الغربي من مادبا ، وهو احد موضعين يظن ان موسى دفن فيهما ، اما الموضع الآخر فهو الى الغرب من البحر الميت على طريق اريحا القدس. واذا كانت المعلومات المسجلة في التوراة دقيقة (وهي عادة كذلك) فالموضع الاخير لا يمكن ان يكون ضريح موسى ، الا اذا قدّرنا ان عظام النبي نقلت اليه في وقت من الاوقات .

توجد معالم الآثار الرئيسية في موضع يدعى (سياغة)وهي تتألف من كنيسة وديـــر مجاور لها . وقد جاء اول ذكر لهذه الكنيسة فيما كتبته سيدة اسمها (اثيريا) جاءت الى هذه

---

(١) في شهر شباط ١٩٦٠ اكتشفت في مادبا فسيفساء جديدة رائعة تمثل مشهداً للبطل اليوناني آخيل حامـــلا قيثارته يعزف عليها بينما اخذت بريسيز الراقصة ترقص على انغامها . والى جانب آخيل صديقه الحميم باترخولس . كما يبدو في المشهد الطفل ايروس وصورة الانسان الخرافي

(٢) اسم هذا الجبل في كتب التاريخ القديم : (جبل نبه)

البلاد حاجّةحوالي عام ٣٩٤ م. وتصف السيدة كنيسة صغيرة تضم ضريح موسى وتقول ان موضع الضريح كشف لاحد الرعاة اثناء رؤيا عجائبية . ولا تذكر السيدة شيئاً عن الدير ولكنها تذكر النسّاك الذين تجولوا معها كي تشاهد الموضع . وتتحدث سيرة بطرس الايبري عن زيارة لهذا المكان وقعت في اواخر القرن الخامس او اوائل القرن السادس . وجاءفي هذه السيرة ان البناء « هيكل ضخم جداً » اخذ اسمه من اسم النبي موسى ، وقد انشئت اديرة حوله ، وهذا يجعلنا نفهم ان أبنية جديدة اضيفت الى الابنية الـتي شاهدتها اثيريا . ويروي احد الرهبان لبطرس قصة الرؤيا التي ظهرت للراعي وكانت سبباً لبناء الكنيسة . ويتحدث بطرس كما تتحدث اثيريا عن المنظر الخلاب الذي يبدو لمن يقف عـلى قمة الجبل . ويذكر (ثيتمار) هذا الموضع مرة اخرى عام ١٢١٦ فيقول انه قضى ليلــة في ذلك الدير بينما كان مسافراً من عين جدي (على الجانب الغربي من البحر الميت) الى الشوبك . وفي عام ١٥٦٤ زار الموضع راهب برتغالي من رهبنة الفرنسيسكان فذكر ان البنايات القائمة على رأس الجبل صارت متهدمة لايقيم فيها أحد رغم ان كنيسة صغيرة في عيون موسى في واد الى الشمال- كانت ما تزال مأهولة . وذكر جبل نبو في احدى وثائق القرن السابع عشر ولكن يبدو ان الكاتب كان يجهل وجود اية بنايات او حتى اية خرائب في ذلك الموضع .

واعتباراً من سنة ١٩٣٢ بدأ معهد الفرنسيسكان للعهد القديم في القدس بسلسلة من اعمال الحفريات . ونتيجة لذلك ظهرت اثار الكنيسة والاديرة التي وصفها الرحالة السابقون: والكنيسة من نوع الكاتدرائيات (الباسيليكا) العادي وفيها مرتفع يشبه المنصة الى الجانب الشرقي من الممشى يكاد ينطبق عليه الوصف الذي ذكرته اثيريا. وتثبت الحفريات ان الكنيسة كانت في أيامها صغيرة المساحة وانها وسّعت في اواخر القرن الخامس . وهناك جدار منحن في الغرفة الواقعة الى الشمال من القبو ، وقد كان جزءاً من بناء الكنيسة الاولى . ولقد تهدمت الكنيسة كلياً في اواخر القرن السادس ربما بفعل الزلازل-واعيد بناؤها عام ٥٩٧ وهو البناء الذي نرى بقاياه الآن .

توجد بقايا ارضيات من الفسيفساء في الكنيسة والغرفة الجانبية والمذابح ، ولكن الفسيفساء اصيبت بكثير من العطب منذ القدم . وتحتوي فسيفساء المذابح اعمالا فنية رائعة بالاضافة الى صور دقيقة لحيوانات واشجار. ولقد كانت الغرفة الجنوبية الشرقية مكاناً للمعمودية ، وما يزال جرن المعمودية في مكانه وعليه كتابة يونانية . وترى في الممر وامام

المحراب عدداً من الاضرحة التي تحتوي على رفات بعض الموتى ، وتبين ان بعض هذه الأضرحة سطي عليها قديماً وبعضها الآخر ما يزال على حالته الاولى، ولكن شيئاً ذا أهمية لم يعثر عليه في أي منها .

اما الاديرة فتنتشر حول الكنيسة الى الغرب والشمال منها ، واضخمها الدير الجنوبي. ولا بد ان هذه الأديرة كانت مأهولة بعدد لاباس به من الناس ، هـذا اذا أخذنا بعين الاعتبار اتساع الأبنية وامكانات السكن فيها .

يستطيع الشخص الذي يقف على الشرفة الى الغرب من الكنيسة ان يملأ بصره بمنظر رائع عبر وادي الاردن ، واذا كان الجو صافياً فيمكن روئية الابراج على جبل الزيتون ومدينة اريحا بوضوح . ان نهر الاردن نفسه يكون مختفياً في مجراه العميق ولكن تعرجاته تبدو واضحة. اما المنظر الغالب امام العين فهو البحر الميت بامواهه اللامعة تحت ضوء الشمس على انخفاض ٣٥٠٠ قدم . ولا بد ان يكون موسى قد وقف غير بعيد من هذا المكان وادار انظاره في ارض الميعاد ، لان جبل نبو الذي تذكره التوراة بهذا الاسم ما يزال باقياً الى ايامنا هذه، اذ ان احدى التلال المجاورة تدعى اليوم باسم جبل نبا . اما اسماء الاماكن التي تذكر التوراة ان موسى دفن عندها (سياغة وبعل بيور) فلا توجد اسماء حديثة مطابقة لها . وبناء على ما جاء في حجر الملك ميشع فلا بد ان قرية كبيرة كانت موجودة في جبل نبو ، لان ميشع يقول انه ذبح ٧٠٠٠ من السكان ونزع الآنية عن مذبح (يهوه) ، ولكـن من المحتمل ان ميشع كان يقصد قرية المخيّط .

وقد نظّم الفرنسيسكان في البنايات التي انشاؤها ، البقايا الاثرية التي عثر عليها اثناء الحفريات . ويمكن للزائرين مشاهدة هذه الاثار اذا ابدوا رغبتهم في ذلك .

وتقع المخيّط على بعد ثلاثة كيلو مترات جنوبي الطريق .وتوجد هناك باحة الفسيفساء المتقنة الصنع وما تزال سليمة كلها تقريباً .وكانت هذه الباحة ارضية كنيسة تعود لاواخر القرن السادس او اوائل القرن السابع ، وقد قام الفرنسيسكان بتعزيل الانقاض من هذه الكنيسـة وأنشأوا بناء مسقوفاً فوقها للمحافظة على الفسيفساء . ويزد ان صحـن الكنيسة كله بصورة شجرة كرمة تتفرع غصونها وتلتوي في دوائر وتظهر فيهـا صورة اشخاص وحيوانات. ويبدو الرجال مجتمعين يعصرون قطوف العنب بينما يلعب أحدهم على مزمار احتفالا بالمناسبة

السعيدة . ونقشت امام المذبح كتابة تقول ان الكنيسة اعطيت اسم القديس لوط والقـــديس بروكو بيوس وان منشئيها هما استيفن وايليا ابني كومتيسا، ومن «اجل راحة يوحنا انسطاسيا واولئك الذين تبرعوا ، الذين يعلم الله اسماءهم». وترى بين الاعمدة مناظر مختلفة : مشاهد مائية، حيوانات اسطورية، كنيسة بجانب نهر او بحر حيث ترى رجلا يصطاد السمك بكثرة: وامام المدخل مشهد طريف لعجول على جانبي مذبح النار ورسوم الاشجار وراءها . وفي الممشى ترى الخراف حول شجرة في كل من الجانبين ، وهذا من المناظر الشائعة كثيراً في كنائس ذلك العهد (١) :

زرقاءماعين :

تتفرع من مأدبا طريق اخرى بانحراف بسيط الى الجنوب الغربي تؤدي الى ينابيـــع زرقاء ماعين التي تعرف باسم (كاليرهو) وتقع هذه الينابيع في وادي زرقاء ماعين وهو جرف عميـــق شديد الانحـــدار ، وتتألف من سلسلة من البرك الكبيرة والصغيرة ذات الحرارة المختلفة . ففي بعضها تشتد الحرارة بحيث تستطيع ان تسلق البيضة وفي البعض الاخر تعتدل الحرارة بحيث تستطيع الاسترخاء في جوفها بصورة مريحـــة . ومن ابرز المشاهد مساقط المياه الحارة التي تنصب في اكبر البرك .وكانت هذه الينابيع مشهورة في عهد الرومان: مع انه لا تبدو اية اثار قديمة عندها ، وهي الينابيع التي كان هيرودس الكبير ينزل اليها من قصره في مكاور على قمة الجبل الى الجنوب، كي يعالج الادواء المختلفة التي كان يتألم منها .



(١) لا بد هنا من الاشارة الى كتاب (مادبا وضواحيها) تأليف الاب جورج سابا وروكس بن زائد العزيزي اذ يتضمن القسم الاول منه معلومات غزيرة عن تاريخ مادبا وآثارها .

الفصل الرابع

جرش : الرّحالة الالماني سيتزن يكتشفها مجــدّدا سنة ١٨٠٦ – العصر النيوليثي – البلدة الهيللينية – عضو حلف الديكابوليس – عصرها الذهبي في القرنين الثاني والثالث – انشاء الكنائس ودمار البلدة – وصف الآثار .

توجد في الشرق الأوسط ثلاث مدن عظيمة من مدن العصور الكلاسيكية ، الا وهي : تدمر وجرش والبتراء . أما تدمر فتوجد في سوريا ؛ بينما توجد جرش والبتراء في الأردن . ولكل مدينة من هذه المدن معالمها التي تستحوذ على اهتمام عالم الآثار ، او المؤرخ او المهندس المعماري ، ولكل منها طابعها المتميز لاجتذاب الزائر . وكذلك نرى ان موقــع كل مدينة ينفرد بطابع خاص ، اذ ان تدمر تقع على حافة الصحراء ، وتقع جرش في واد ترويه المياه ، اما البتراء فتقوم بين جبال ادوم الرملية . وتتفرد جرش وحدهـــا بين المدن الثلاث بانها مدينة رومانية تقليدية من المدن التي كان الرومان ينشئونها في المقاطعات ، ويبدو هذا واضحاً في مخططها وهندسة بنائها . وربما كانت جرش افضل مثال في الشرق الاوسط لمدينة رومانية من هذا الطراز احتفظت بمنشئاتها قائمـــة اكثر من سواها حتى اليوم . ولا شك ان تدمر والبتراء تعرضان كلاهما ملامح كثيرة خاصة بالشعوب التي صممتهما وانشأتهما ، ولكن من الواضح ان مهندساً رومانياً قام بوضع المخططات والتصاميم لانشاء جرش كوحدة متكاملة ، كما لا بـــد ان الرومان قاموا بالاشراف عـــلى انشاء الابنية ، مع انه لا شك بان معظم العمال والصناع كانوا من السكان المحليين . ولا بد ان عملا كهذا اقتضى تشغيل جيش عظيم من البنّائين والمثّالين الى جانب اولئك الذين قطعوا الصخور من المحاجر المحلية المجاورة ، لأن الجانب الاعظم من المنشآت التي نراها اليوم – جرى تصميمها وانشاؤها خلال فترة قصيرة من الزمن نسبياً .

تقع آثار جرش في واد بين جبال جلعاد ، ويمكن الوصول اليها من عمان بالسيارة في ساعة وربع الساعة على الطريق الجديدة ؛ يمتد الوادي الى الشمال والجنوب ، وبينما تتقارب التلال في الجهة الشمالية بعضها من بعض وتكتنف المنطقة ، فانهـــا في الجهة الجنوبية تنفرج

حتى لترى في الافق البعيد لمحات من قرية صويلح التي تقع على طريق عمان ــ القدس . اما الوضع العام فيشكـّل جانباً مهما من سحر الموقع كله، فهناك الجدول الصغير الذي يجري في وسط المدينة ويقسمها الى قسمين : شرقي وغربي ، حتى في ايام الصيف الحارة عندما تكون التلال المحيطة جافة سمراء ، فان اشجار الجوز والحور النامية على جانبي الجدول تبدو دائماً خضراء ومبهجة للناظرين : وتقع البلدة الحديثة كلها على الجانب الشرقي وكان معظم سكانها من الشراكسة الذين انزلهم الأتراك هناك في اواخر القرن المــاضي . ولا حاجة للقول بأن اولئك السكان ماهرون في تصنيع الحجارة الكبيرة ، ومع ان هذه المهــارة انصرفت في الاعوام الاولى الى التدمير ، فانها منذ نهاية الحرب العالمية الاولى اخــذت تعمل في المشاريع الحكوميةالرامية الى التجديد والبناء ،لذلك كانت خدمات اولئك الصناع ثمينة للغاية (١) . وقد انشأ الاتراك منزلا لهم ذا برج مستدير في زاوية فناء هيكل ارتميس من اجل اعمال الادارة الحكومية ، وليكون مكاتب للموظفين ومخفراً للشرطة وسجنا واسطبلا في وقت واحــد . اما المنزل الحديث الآخر الذي انشىء بين الآثار على رابية شرقي ساحة الندوة (Forum) ، فقد انشأته بعثة اميركية ــ انكليزية مشتركةاثناء قيام اعضائها بالحفريات هناك في العقد الثالث من هذا القرن .

لقد كشف الرحالة الالماني سيتزن سنة ١٨٠٦ للعالم الغربي عن وجود آثــار جرش . ومنذ ذلك الحين زاد عدد الزوار والسياح والعلماء الذين يفدون اليها زيادة مضطردة . واذا نظرنا الى الامر من وجهة نظر آثارية محضة ، فان الآثار التي نراها هي آثار حديثة نسبياً ، اذ لا يوجد اي اثر قائم يعود بتاريخه الى ما قبل التاريخ المسيحي ، ولكن الدلائل تشير الى ان الموقع كان مأهولا بالسكان حتى في عصور ما قبل التاريخ ، وهذا ما نتوقعه فعلا من مكان تجري فيه مياه عذبة بصورة دائمة . والامر المدهش هو ما يبدو من وجود فجوات زمنية لم تكن جرش خلالها مأهولة بالسكان ، او على الاقل فان الناس الذين اقاموا فيها خلال تلك الفجوات الزمنية لم يكن عددهم كبيراً حتى يخلفوا بعدهم اية آثار. على ان اثار جرش الحالية تدين ببقائها في هذه الحالة الممتازة الى الفترة الاخيرة الغامضة من الفجوات الزمنية ، وهي الفترة التي تمتد ابتداء من القرن الثــالث عشر ب.م تقريباً حتى انشاء القرية الحديثة سنة ١٨٧٨ . كما ان عدم وجود ايةقرية مجاورة كانمفيداً من حيث ان الآثار لم تستعمل كمحجر ملائم للحصول على حجارة منحوتة جاهزة للاستعمال . ونرى ان وجود قرى الى جانب

---

(١) يعني المؤلف هنا ان سكان جرش كانوا يومذاك يبنون منازلهم من حجارةالمدينة الاثرية . ومن المؤسف ان الجهل كان سائداً بين الاهلين وموظفي الحكومة في عهد الاتريك ، لذلك لم تكن للآثار اهمية في نظارهم .

الاماكن الاثرية قضى تقريباً على مدن اكبر حجما من جرش ، مثل جـدارا (ام قيس) وفيلادلفيا (عمان) . ومن حسن الحظ ان قرية جرش العصرية انشئت في الجانب الشرقي ، حيث يبدو ان الاقدمين لم ينشئوا عمائر عامة كبيره ، وحيث لم يتح الوقت الكافي للسكان الجدد لكي يوقعوا بالآثار تخريباً مهما . ومع ذلك فان الرحالة شوميكر الذي زار جرش سنة ١٨٩١ يصف كيف ان الشراكسة كانوا يضعون الغاما من ملح البارود تحت اعمدة الشارع الرئيسي وينسفون عمودا بعد عمود لكي يعثروا على الحجارة التي تلائم مقاصدهم (١) .

لا بد ان ثروة جرش في ايام عزها كانت طائلة ، ويبدو ان هذه الثروة كانت تنتج بصورة رئيسية من المحاصيل الزراعية ، اذ توجد الى الشرق منها حقول قمح واسعة خصبة ، وذلك لان جرش لم تكن واقعة على خط من خطوط التجارة رغم موقعها الاستراتيجي .

ومن المحتمل ان مناجم الحديد في تلال عجلون الى الغرب من جرش كـانت تستغل وتساهم في ازدياد الثروة ، حتى ان احد الكتاب العرب في القرن الثالث عشر بعـد الميلاد يذكر انها كانت مشهورة بصناعة المدى الدقيقة . واذا انعمنا النظر في عدد سكان البلـدة الحالية والمساحة التي تؤلفها ، فاننا نستطيع القول ان الحد الاعلى للسكان في المدينة القديمة كان يتراوح بين ١٣٫٠٠٠ و ١٨٫٠٠٠ نسمه ، وهذه الارقام طبعا لا تزيد عن كونها تقديرات محضة . اما الاسوار التي كانت تكتنف المدينة والتي يمكن مشاهدة اجزاء كثيرة منها ، فلم يكن المقصود منها مقاومة حصار قد يفرضه الاعداء ، بل بالاحرى لمنع الغزاة القادمين من الصحراء الذين كانوا يشكلون تهديداً دائميا للسكان المقيمين في القرى . والدليل على ما تقدم : ان السور لم يكن من المنعة والضخامة بحيث نعتبره تحصينا دفاعيا .

بعد الحرب العالمية الاولى عندما اصبح الاردن جزءا من منطقة الانتداب البريطاني على فلسطين — بدأت دائرة الاثار تهتم بهذا الموقع اهتماما فعالا ، وقد اجريت منذ عام ١٩٢٠ حفريات واسعة بالاضافة الى اعمال الترميم والصيانة . ويمكن ان نضرب مثلا واحداً عـلى

---

(١) انا لا اصدق حكاية شوميكر هذه ، لان حجارة الاعمدة الضخمة لم تكن لازمة للشراكسة اوائل مجيئهم عندما كانوا يكتفون ببناء منازل بدائية صغيرة لهم ، ولا بد انهم كانوا يكتفون بانتقاء ما يلائمهم من الحجارة الصغيرة الملقاة على الارض والتي يسهل عليهم نقلها الى العدوة الشرقية . ثم ان ملـح البارود لا يصلح لنسف الاعمدة ، ولم يظهر أي دليل على ذلك . وأعتقد ان ابعد مدى كانوا يستطيعون الذهاب اليه هو ان يعمـدوا الى تقطيع بعض حجارة البناء الضخمة .

جهود دائرة الآثار بأن ساحة الندوة (الفوروم) والشارع الرئيسي كانا مدفونين كليا تحت الانقاض ، وان اختلاف اللون في الجزئين العلوي والسفلي من احد الاعمدة يدل على مسافة العمق التي كان العمود مدفونا فيها ، كما انها تعطي بعض الدلالة على طول الفترة التي قضاها العمود في تلك الحالة ، لان تكوّن الطحالب على الحجر نتيجة لأشعة الشمس ، يقتضي مدة اكثر من بضع سنوات . وبالاضافة الى ذلك ، فان المدخل العظيم لهيكل ارتميس كان في حالة من الخراب والتفسخ ،حتى ان الدائرة قامت بنقضه حجرا حجرا ،ثم اعادت بناءه من جديد مع اضافة حجارة جديدة حيثما اقتضت الضرورة ذلك . ولكن ما يزال هناك عمل كثير يجب القيام به ، وقد ابدت الحكومة الاردنية منذ انتهاء الانتداب عام ١٩٤٨ سخاء عظيما في رصد المخصصات لاغراض الصيانة والتجديد ، هذا مع العلم بان موارد الحكومة زهيدة حقا (١) .

التاريخ :

تمّ العثور ، في المنحدرات الواقعة الى الشرق من قوس النصر ، على كمية من الادوات الصوانية ومن جملتها بعض المعاول اليدوية الصغيرة الدقيقة الصنع ، ويدل اكتشاف هذه الادوات على ان جرش كانت مأهولة بالسكان في العصر النيوليثي حوالي ٦٠٠٠ سنة قبل الميلاد. ومن المحتمل ايضا ان الكهوف الطبيعية المطلة على الجدول في هذا المكان ، كانت كذلك مأهولة في تلك الفترة . وقد كان الموقع الذي يقوم فيه الان خزّان المياه في الشمال الشرقي من المدينة ــ قرية تعود الى العصر البرونزي الاول ، واثناء انشاء خزان الماء تم العثور على قطع صوانية وادوات اخرى تعود الى تلك الفترة اي حوالي ٢٥٠٠ سنة قبل الميلاد . وعلى رؤوس التلال المجاورة بقايا خربة لبعض الانصاب (Dolmens) وهي تعود اما الى العصر الخالكوليثي او اواخر العصر النيوليثي حوالي (٤٠٠٠) سنة قبل الميلاد . ولكن لم يتم العثور حتى الان على اماكن سكن تعود الى تلك المرحلة . ولا توجد الان بقايا ظاهرة للعيان من اية قرية او محلة سكن يعود تاريخها الى ما بعد قرية العصر البرونزي الاول المذكورة اعلاه . حتى لو كانت هناك قرية في الموضع الذي انشأ فيها الرومان مدينتهم الحالية ــ فلا بد ان تكون بقاياها قد تلفت او دفنت اثناء عمليات البناء الضخمة .

(١) حقا لقد ازداد الوعي بين المسئولين من رجال الحكم والاهلين على السواء بأهمية الآثار والثروة العظيمة التي تمثلها للبلاد . وفي عام ١٩٦١ رصدت الحكومة ٧٠ ألف دينار لاعمال الصيانة والترميم اذ امكن بواسطتها القيام بأعمال مهمة في البتراء وجرش ومدرج عمان . اما الخطوة الكبرى في هذا المجال والتي يجب ان تسجل بالتقدير ، فهي تلك التي قامت بها حكومة السيد وصفي التل في صيف عام ١٩٦٢ اذ جندت مفرزة من سلاح الهندسة الملكي مع آلياتها القوية لرفع عدد كبير من الاعمدة الملقاة على الارض في جرش وتعزيل الركام عن الشوارع المبلطة وكذلك الطين الذي تراكم عبر العصور في البركتين .

لا نستطيع الان ان نجزم تماما بالتاريخ الذي بدأت فيه جرش تبرز من غياهب النسيان وتتحول من قرية صغيرة الى مدينة هيللينية مهمة ، مع ان هذا التحول لم يكن ممكنا قبل القرن الرابع ق . م . وتدلنا الكتابات على ان المدينة كانت يوما ما تسمى (انطاكية) الواقعة على النهر الذهبي(Antioch on the Chrysorhoas) وهذا الاسم الفخـــم كان يطلق عـــلى الجدول الصغير الذي ما يزال يجري في الوادي . اما الاسم الاخر القديم للمدينة ، فهو جراسا (Gerasa)وربما كان اسم انطاكية يحمل شيئا من الاهمية ، اذ يوحي لنا بـــان احد الملوك السلوقيين الذي كان يحمل اسم انطيوخس هو الذي كان مسؤولا عن تحويلها وتطويرهـــا . واذا صحّ هذا ، فمن المحتمل ان يكون انطيوخس الرابع في اوائل القرن الثاني قبل الميلاد . لاننا نعرف انه كان كثير الاهتمام بالاردن . ومهما يكن من امر فان كتابات اخرى تشير الى وجود روايات عديدة عن انشاء المدينة ، فبعض هذه الروايات يعزو الامر الى الاسكندر الكبير ، وبعضها يعزوه الى (برديكاس) احد قواد الاسكندر ، وكلاهما عاش في القرن الرابع قبل الميلاد . وهناك مرشح آخر لهذا الشرف هو بطليموس فيلادلفس الثاني حاكم مصر (٢٨٣—٢٤٦ ق . م .) الذي افتتح البلاد واخضعها لحكمه مدة من الزمن وهو الذي جدد بناء عمان واطلق عليها اسم فيلادلفيا على اسمه هو . ولكن من المحتمل ان كل واحد من هؤلاء اسهم نوعا ما في بناء جرش ، وان بروزها كمدينة هيللينية فخيمة رائعه بعد ان كانت قرية حقيرة ذات اكواخ من الطين — يعود الى ازدياد رخائها والى استتباب الامن ، اكثر ممـــا يعود الى جهود اي حاكم واحد بعينه .

لا يتعرّض التاريخ لذكر جرش حتى نهاية القرن الثاني قبل الميلاد ، عندما يشـــير المؤرخ يوسيفوس اليها بأنها المكان الذي عمد ثيودوسوس « طاغية فيلادلفيا » الى نقـــل كنزه اليه لتأمينه في هيكل زفس بعد اخراجه من جدارا . ويبدو من هذا ان هيكل زيوس في ذلك الحين كان معبدا لا يجوز انتهاك حرمته ، وان اي شخص يلجأ اليه يكون امينا على نفسه من الاعتداء ما بقي داخل نطاقه ، وكذلك الحال بالنسبة للامتعة والاموال التي توضع فيه من اجل الحفـــاظ عليها . ومهما يكن من امر فان ثيودوسوس لم يلبث أن خسر جرش بعد هذا الحادث بقليل اذ استولى عليها اسكندر جانيوس حـــاكم اليهود وكاهنهم الاعـــلى (١٠٢ — ٧٦ ق.م) ويظهر ان جرش بقيت في ايدي اليهود حتى قدوم بومبي القائد الروماني. ولا شك انها نالت نصيبا من نتائج مخاصمات الحكام اليهود الصغار ومنافساتهم التي لم تكـــن تهدأ أبـــدا :

لم يبق من المدينة الهيللينية اية بقايا يمكن مشاهدتها اليــوم ، ولكن عثر عــلى بقايا رسوم منها خلال الحفريات التي اجريت في منطقة المصلّبة الجنوبية (Tetrapylon) . ودلت تلك الرسوم على ان الشارع الرئيسي كان يمتد امتدادا مخالفا لامتداد الشارع الروماني الذي أنشيء بعده . ويعتبر اكتشاف تلك الرسوم ، بالاضافة الى النصوص الكتابية ، الادلــة الوحيدة في الوقت الحاضر على وجود تلك المدينة ، هذا الى جانب اكتشاف قطعــة نقد أو جذاذة أثرية من مخلفات ذلك العهد . والواقع انه لولا ما ورد من اشارة الى هيكل زيوس ، لما استطعنا ان نكوّن اية فكرة عن طبيعة الابنية التي كانت قائمة في ذلك الحين . ويظهر من كتابات معينة وجدت في جوار ساحة الندوة ، وهيكل زيوس ، ان المدينة كانت اثناء القرن الاول ، وربما ايضاً اثناء القرن الثاني ق. م. ، تمتد من هناك حتى منطقة الكنيسة الكاتدرائية ، بينما يقدّر آخرون ان المدينة ربما كانت تشمل كذلك منطقة هيكل أرتميس . ومهما يكن من امر فليس من المستطاع التحدث عن المدينة التي كانت قائمة قبل العصر المسيحي ، الا اذا تم القيام بحفريات اخرى .

وفي عام ٦٣ ق . م . حدثت حادثة أدت ، ليس الى تغييــر مجرى التاريخ في جرش وحدها ، بل الى تغييره بالنسبة الى جميع اقطار الشرق الادنى .. ففي ذلك العام فرغ بومبي من افتتاح الجانب الاعظم من المنطقة ، وابتدأ بتقسيمها الى مقاطعات لتسهيل شؤون الادارة ، ونتيجة لهذا التقسيم أُلحقت جرش والاراضي التابعة لها بالمقاطعة السورية .

كانت هذه الحادثة نقطة التحول في تاريخ جرش ، وقد اعتبرتها المدينة في تقويمهــا كذلك ، لانها بقيت تسجل جميع التواريخ بحسب تقويم عهد بومبي حتى الايام الاخيرة من حياتها ، باعتبار انها مركز امامي للحضارة الغربية . وكانت المدن في ظــل الادارة الهيللينية تتمتع ببعض مزايا الحكم الذاتي ، وظلت هذه السياسة الحكيمة متبعة في ظل الادارة الجديدة . ولقد تمتعت جرش بهذه الحقوق ، وفي اوائل العهد الروماني من تاريخهــا دخلت في حلف المدن الحرة المعروف باسم حلف الديكا بوليس . وربما كانت اعظم الفوائد التي منحهــا الحكم الروماني للمقاطعات والمستعمرات الرومانية انه وطد فيها درجة من الامن لم يعرفهــا الشرق الاوسط من قبل (١) . اما تأثير هذا الامن على جرش — والامن هــو ضرورة حيوية للنمو والتطوير في كل مكان — فقد كان في ازدهار الزراعة والتجارة ازدهارا عظيما

---

(١) Paxromana — السلم ضمن نطاق الامبراطورية الرومانية .

حتى ان الناس اخذوا يجدون وقتا للاهتمام بالفنون التي تزدهر في ايام السلم . واخذت جرش تتبادل الاعمال التجارية الناجحة مع الانباط خلال القرن الاول ق . م ؛ والقرن الاول ب.م وقد عثر فيها على نقود كثيرة من نقود الملك الحارث الرابع . ولقـــد سبق للنفوذ النبطي ان لعب دورا في تطوير جرش ، فالحجارة المنحوتة على طراز « خطوة الغراب » تدل على ان طراز الهندسة المعمارية عند الانباط كان معروفـــا ومستعملا فيها . وهنـــاك كتابة مزدوجة باللغتين النبطية واليونانية ، ولكنها لسوء الحظ تكاد تكون غير مقروءة ، ومع ذلك هنـــاك آخرون يذكرون هيكلا باسم « الرب المقدس بكيدس » وكذلك « الاله العربي ».ونستنتج من هذا ان الاشارة الاخيرة تتجه الى « ذو الشرى » وهو المعبود الاكبر عنـــد الانباط. ومما له دلالة ان الكتابة التي تشير الى ذلك المعبود والحجارة المنحوتة على شكل خطوة الغراب ، تم العثور عليها في مكان واحد قرب الكاتدرائية وساحة البركة . وهناك بقايا هيكـــل قديم تحت الكاتدرائية ، يرجح بأنه كان هيكل الاله العربي الذي قيل فيما بعد انه هيكل ديونيسيوس.

لا بد ان الادارة الحكيمة الامينة وفرت للمدينة إمكانات جمع ثروة كبيرة خلال هذه الفترة ، لاننا نجد اهاها في القرن الاول ب ؛ م . يباشرون العمل في برنامج إعمـــار يكاد يكون شاملا . ولقد تم وضع مخطط جامع للمدينة ، يتألف محوره حسب التصميم التقليدي للرومان : من شارع رئيسي تحيط الاعمدة بجانبيه ويتقاطع مـــع شارعين آخرين ، بحيث تتحكم هذه الشوارع في وضع كل شيء آخر في المدينة . ومن الواضح انه لم تدخل على هذا المخطط اية تعديلات مهمة طوال حياة المدينة . وهناك كتابة على البوابة الشمالية الغربيـــة في نهاية الشارع الشمالي ، تنبئنا ان السور المحيط بالمدينة تم انشاؤه في العامين ٧٥ – ٧٦ ب.م . وهكذا وضع السور حداً للمساحة التي يمكن ان تنتشر فيها الابنية . وحوالي السنة ٢٢–٢٣ ب.م . بدأ العمل في انشاء هيكل جديد للاله زفس ، وكان هذا الهيكل ما يزال في طـــور البناء سنة ٦٩ – ٧٠ ب.م. وكان المواطنون الأثرياء يساهمون في نفقات الابنية ، ويظهر انهم كانوا يشعرون بالفخر اذ يساهمون في تجميل مدينتهم . وفي نفس الوقت كان العمل يجري في المدرج الجنوبي الى جانب هذا الهيكل ، كما كان يجري العمل في تحسين هيكل ارتميس وتجميله بانشاء رواق وبركة ، وفي مكان آخر غير معروف أنشيء ايضا مزار للامبراطور طيبا ريوس . وفي هذه الفترة احيط الشارع الرئيسي باعمدة على الطراز الايوني ، وهي اعمدة ما تزال قائمة في ساحة الندوة ، وعلى امتداد الشارع شمالي المصلّبة الشمالية . والواقع ان المدينة كلها كانت كخلية النحل حافلة بالحركة والنشاط ، وقد بلغت درجة من الثراء لم تعرفها من قبل او من بعد .

لم يستمر هذا النشاط الواسع خلال القرن الثاني فحسب ، بل انه ازداد زيادة ملحوظه بعد ان مدّ الامبراطور تراجان رقعة الامبراطورية الرومانية واخضع مملكة الانبـــاط سنة ١٠٦ ب . م . وانشأ سلسلة ممتازة من الطرق في جميع المقاطعات . وازدادت تجارة جرش شيئا فشيئا وتبع ذلك ازدياد ثروتها ، حتى ان عدداً من الابنية العامة الكبيرة الـــتي كانت تعتبر من الطراز الاول في القرن السابق — جرى هدمها لكي تحل محلها منشئات اكثر فخامة وزخرفة وتنسيقا . وكانت البوابة الشمالية احدى هذه المنشئات الجديدة ، اذ أُعيد بناؤهـــا على تصميم جديد لكي تمر بها طريق تراجان عام ١١٥ ب . م . وفي هذا العهد ايضاً اخذت المدينة تشهد عددا من الاحتفالات العامة في مواعيدها السنوية ، ومن جملتهـــا احتفالات المصارعة والقوى وغيرها . وتنبئنا بعض الكتابات عن اريحية رجل كريم هو تيتوس فلافيوس كيرينا الذي اقام المآدب للمنتصرين والمهزومين على حد سواء . اما الحـــمامات فقد كانت ظاهرة اساسية في حياة الرومان ، اذ لم يكن اي روماني سليم العقل يتصور ان الحياة جديرة بان يعيشها المرء دون حمامات ، ولو للحظة واحدة . وهكذا كانت جرش تملك حمامين احدهما واسع وضخم الى الجانب الشرقي من جدول الماء ، والثاني اقل ضخامة الى الجانب الغربي . اما مهام هذه المؤسسات فقد كانت اوسع بكثير مما نعرفه عن الحمام التركي العادي ، اذا كانت تمثل حياة النوادي الخاصة في ذلك العهد ، وكثيراً ما كانت تستعمـــل من اجل خنق قريب غير مرغوب فيه بواسطة البخار ، كما كان الوجهاء الطامحون او الاغنيـــاء يقيمون فيها الحفلات البهيجة .

وهكذا ، فان القرن الثاني بعد الميلاد شهد العصر الذهبي لمدينة جرش ، لان اكـــثر الابنية العظيمة التي نعجب بها اليوم شيدت اثناءه . وقام الامبراطور هدريان بزيارة المدينة زيارة شخصية وقضى فيها جانبا من فصل الشتاء سنة ١٢٩ — ١٣٠ ، وكانت زيارته ايذانا ببدء حركة جديدة من النشاط العمراني . وقد شيد قوس النصر تخليداً لهذه المناسبة المهمة . ويبدو ان النية كانت تتجه الى توسيع مساحة المدينة حتى موقع القوس ، لان طرفي الجدار تركا ناتئين مشرشرين كأنما يقصد بذلك التحام جدار اخر بذينك الطرفين . ولكن يبدو ان زعماء المدينة كان لديهم من الاعمـــال ما يكفي ، لان المشروع اهمل بعد رحيل هدريان وعـــ الاهتمام ينصب على منتصف المدينة . وها هنا كان العمل قد بدأ في برنامج للتوسع والبناء ، وهو برنامج كان يشمل فيما يشمل تعريض الشارع الرئيسي من ساحة الندوة الى هيكـــل ارتميس ، وكذلك استبدال الاعمدة ذات الطراز الايوني باعمدة اضخم وافضل على الطراز

الكورنثي . وقد تم جلب اعمدة المرمر من اسيا الصغرى واعمدة الجرانيت من اسوان، زيادة في الابهة والفخامه . وهدمت الهياكل ، ثم اعيد بناؤها لتكون اكثر ضخامة وروعة ، ومن جملتها هيكل الاهة المدينة : ارتميس . وهذا البناء الجديد الذي انشئت له بوابة فخيمة ومدخل طويل – منح اسم ارتميس سنة ١٥٠ ؛ اما هيكل زيوس فقد اعيد بناؤه مرة اخرى وتم تدشينه حوالي سنة ١٦٣ كما دشن سبيل الحوريات سنة ١٩١ . وقد شيد ايضاً هيكل نمسيس في محاذاة البوابة الشماليه من الخارج ، ولكن لم يبق منه اي اثر حتى الان . وانشيء هيكل اخر على مسافة ابعد في الوادي ، ودشن باسم زيوس ابيكاريوس ، وقد بناه قائد مئة . وتسجل لنا كتابات تلك الفترة قيام المواطنين بانشاء المحاريب وقواعد الاعمدة والتماثيل والشواهد ، وبعض الابنية الاخرى التي لا نستطيع التعرف عليها الان . كما ان كتابات اخرى تدل على وجود كثيرين من الكهنة الذين كانوا من اشياع مذهب عبادة الاباطرة الاحياء ، وانه كان هنالك معابد باسم (زيوس هليوس سيرابيس) و (زيوس بوسيدون) و (ايزيس) و (ابو للو) و (ديانا) . وتحتفظ لنا نصوص اخرى باسماء عدد من حكام المقاطعات والجباة وموظفين اخرين ، وهناك اشارة الى وجود جنود من فيلق ليبيا الثالث ، ومحام من فيلق (جمينا) العاشر .

ان المصدر الرئيسي للمياه الذي كانت تستقي منه المدينة هو النبع الذي يتفجر داخل الاسوار والذي يعرف الان باسم عين القيروان ، وهو نبع ماء قوي لا تنقطع مياهه ، ونادرا ما تهبط دون المستوى العادي . ولكن لما كانت هذه العين تتفجر في قاع الوادي ، فان مستواها كان منخفضا عن مستوى القسم الغربي من المدينة حيث توجد الهياكل الكبيرة ونوافير الماء . وهكذا جيء بالماء بواسطة قناة من نبع البركتين الذي يقع على بعد حوالي كيلو متر في الوادي الى الشمال ، ويرتفع مستواه ارتفاعاً لا بأس به فوق مستوى نبع القيروان . ويظهر ان مياه نبع البركتين كانت كافية لسد حاجات الجانب الغربي من المدينة على الاقل ، مع ان المرء لا يستطيع الاقتناع بأن الماء الذي يتفجر من هذا النبع حالياً يمكن ان يكون كافيا .

بلغت المدينة قمة تطورها وثرائها في اوائل القرن الثالث ، عندما جرى ترقيتها الى مرتبة « مستعمرة » ؛ وهكذا بقيت بارزة على هذه الهضبة الحالمة بضع عشرات من السنين ؛ ولكن سرعان ما بدأت مرحلة الانحدار التدريجي ، ورغم مجيء فترات قصيرة مؤقتة من الازدهار ، فان العصر الذهبي فات وانقضى . ولقد كان هذا الانحدار التدريجي ذا علاقة وثيقة بمقدرات الامبراطورية الرومانية . وهكذا توقف النشاط العمراني ، مع اننا لا

نستطيع ان نجزم فيما اذا كان التوقف حدث فجأة او بصورة تدريجيـــة ، ولكن توجد لدينا زخارف ومنحوتات أُهملت قبل ان تستكمل جميع مراحلها . وفي نهايـــة القرن الثالث نجد قطعا منحوتة من الحجر يجري استعمالها في البناء مرة ثانية، وهذه ظاهرة تتسم بطابع التقهقر والانحطاط دائما .

كان من نتائج خراب تدمر في الشمال وتوسّع مملكة الساسانيين في العراق ان توقفت تجارة جرش على نطاقها الواسع ، وأُهملت طرق التجارة في الصحراء ، وتحولت طرق نقل البضائع الى البحر . ولا بد ان المدن الواقعة على الاطراف الشرقية للامبراطوريـــة الرومانية مثل جرش ، شعرت بنتائج هذه التطورات الخطيرة حال حدوثهـــا . اضف الى ذلك ان ضعف السلطة الرومانية دفع قبائل البادية التي تميل بغريزتها القديمة الى السلب والنهب ، الى القيام بنشاطاتها المعهودة فأصبح الامن مضطربا . ولكن الامبراطور ديوكليتيان هزم الساسانيين (حوالي سنة ٣٠٠ ب م) مما ادى الى مباشرة بعض اعمال البناء في جرش خلال فترة قصيرة من الزمن . ويعود الى هذه الفـــترة انشاء ساحة السوق (PLAZA) المستديرة والدكاكين المحيطة بالمصلّبة الجنوبية . وعلى اية حال ، فان نوعية البناء لم تكن من الطراز الرفيع ،ولكنها لم تكن من الرداءة بما يوازي رداءة بعض ابنية العهد البيزنطي الاخير . وقد حفرت كتابات كثيرة من كتابات هذه الفترة على صفحات قواعد او اعمدة قديمة، بل ان بعضها تم حفره فوق كتابات قديمة كانت مطموسة جزئيا .

وفي منتصف القرن الرابع ، كانت قد نشأت في جرش طائفة كبيرة من المسيحيين ، وكانت الكاتدرائية وساحة البركة(Fountain Court) قد صارتا رهن الاستعمال : ويذكر الكاتب ابيفانيوس — وهو من كتاب القرن الرابع – ان بعض معاصريه شربوا من نافورة جرش التي كانت مياهها تتحول الى خمر كل سنة يوم الاحتفال بذكرى اعجوبة قانا الجليل: ولكننا لا نستطيع ان نستخلص من آثار جرش ذاتها سوى القليل من المعلومات الخاصة بهذا القرن . فالكتابات مفقودة ،والاشارة الخارجية الوحيدة تنبئنا ان المطران اكسرسيوس مثّل مسيحيي جرش في مجمع سلوقية سنة ٣٥٩، كما ان المطران بلاكوس مثّلهم في مجمع خلقدونيا سنة ٤٥١ ، ولا بد ان المسيحية كانت قد اصبحت في ذلك الوقت الديانة السائدة في المدينة . واثناء السنوات ٤٤٠ ـ ٤٤٣ اجريت بعض الترميمات في تحصينات المدينـــة ، كما شيدت كنيسة الانبياء والرسل والشهداء اثناء عامي ٤٥٤ — ٤٥٥ ، وكنيسة القديس ثيودور اثناء السنوات ٤٦٤ — ٤٦٦ عندما اعيد بناء ساحة البركة على نمط جديد .

وفي عهد جوستنيان (٥٢٧–٥٦٥ بم) ازداد الرخاء في المدينة وانشيء ما لا يقل عن سبع كنائس . وتذكر لنا الكتابات انه تم تشييد ابنية عامة اخرى دون تفاصيل عن طبيعتها، وتجدد الاحتفال سنة ٥٣٥ بعيد وثني للمياه باسم (مايوماس) . ولقد اجريت حفريات في اكثر هذه الكنائس . ونحن نستطيع ان نكّون فكرة طيبة عن الحياة في ذلك العهد نتيجة للاشياء التي تم اكتشافها . ومن الواضح ان السكان كانوا يستمتعون بشيء من الرخاء، ولكنه رخاء لا يمكن مقارنته بالحياة المزدهرة الرغيدة التي عرفتها جرش سابقا. كان المهم في الامر هو المحافظة على المظاهر ، اما الجمال فقد كان سطحيا جدا . ولقد كان المرمر اللامع والفسيفساء ذات الالوان الزجاجية البراقة التي تغشى جدران الكنائس ، تخفي وراءها طرازا من البناء يصعب ان نتصور ما هو اكثر رداءة منه . ولما كانت الكنائس في هذا العهد هي المحور الرئيسي للحياة ، فانها بطبيعة الحال تعكس طراز تلك الحياة . وكانت النساء ذوات الملابس الزاهية يزدحمن في المتاجر ويترددن على الكنائس ، وكانت الحلى التي كن يتزيّن بها تبدو كأنها قلائد ثمينة واقراط ذهبية ، ولكن عند فحصها بدقة كان يتبين انها لم تكن سوى قلائد من الزجاج واقراط من البرونز المطلي بطبقة رقيقة من الذهب . ومع ذلك كانت المظاهر على شيء من الرونق والجمال، ولم تكن الحياة كئيبة او عسيرة . وقد كانت هناك حمامات انشأها المطران بلاكوس في محاذاة كنيسة القديس ثيودور ، لكي يستعملها افراد الطائفة ، وربما كانت هذه الحمامات اول مثال على ان «النظافة من الايمان». وكان للمرتّلين ناد في مواجهة الكنيسة لا يفصل بينها وبينه الا الطريق ، اما رجال الكهنوت فقد كانوا يقيمون في مساكن واسعة مريحة الى جانب ساحة الكنيسة .

على ان كل هذا الجمال الخارجي وكل وسائل الراحة – امكن تحقيقها فقط على حساب الابنية التي انشئت سابقا وخاصة الهياكل. ولا بد ان حملة محمومة من حملات التخريب تناولت المعابد الوثنية ، ويبدو كأن اولئك الذين انشأوا الكنائس لم يقتطعوا حجرا جديدا واحدا بل انصرفوا الى استعمال الحجارة التي نحتها الناس الذين سبقوهم ، حتى ان الفناء الجميل الذي كان امام هيكل ارتميس ، انشيء فيه مصنع للفخار .

وفيما نعلم ، فان المطران جنيسيوس أنشأ آخر كنيسة في جرش سنة ٦١١ ب . م. ثم كانت بداية النهاية في حدوث الغزو الفارسي سنة ٦١٤ب .م. والأثر الوحيد الذي بقي حتى اليوم ، من آثار ذلك الغزو – هو أعمدة الاهداف في ملعب الخيل (Hippodrome) الذي تحول الى ملعب لممارسة لعبة البولو (الصولجان) . وفي عام ٦٣٦ وقع الفتح الاسلامي. وبعد ذلك ، وقعت سلسلة من الزلازل العنيفة وعلى الاخص الزلزال الذي حدث سنة ٧٤٧

فتهدمت اكثر الكنائس والابنية ، واذ لم يكن هناك من يجدد بناءها ، فقد بقيت على حالها . وتعطينا كنيسة القديس ثيودور مثالا ممتازا على ذلك . ومهما يكن من امر فان تقلص المدينة وهجرة الاهلين منها حدثا بالتدريج ، لان بعض الكنائس كانت ما تزال قيد الاستعمال سنة ٧٢٠ للميلاد .

يكاد هذا يكون آخر ما نعلم عن جرش . ونرى من الحفريات ان منطقة ساحة الندوة والمصلّبة الجنوبية ، كانتا ما تزالان مأهولتين في اواخر القرن الثامن. ولكن الاشارة الاخيرة التي نعرف عنها كتبت في القرن الثامن عشر . ذلك ان فارسا من فرسان الصليبيين هو (وليم الصوري) يذكر ان (جرش) كانت مأهولة بالسكان منذ أمد طويل . وفي هذه الاثناء وضع اتابك دمشق فيها حامية مؤلفة من اربعين رجلا ، وقد قام هؤلاء بتحويل هيكل ارتميس الى قلعة . وخلال السنوات ١١١٨ — ١١٣١ استولى عليها بلدوين الثاني ملك القدس الصليبي ودمّر الهيكل تدميرا تاما. وتظهر بوضوح على واجهات الجدران الداخلية للهيكل — آثار الحرق الذي يبدو انه الوسيلة التي اتبعها بلدوين في تدميره . امـا ياقوت ، الجغرافي العربي الذي عاش في القرن الثالث عشر ، فيقول ان بعض الناس وصفوا جرش له بأنها حقل من الخرائب التي لا يقيم فيها احد من الناس .

وهكذا بقيت جرش على حالتها تلك حتى ارسل اليها الترك جالية من الشراكسة عام ١٨٧٨ . وحتى هذا اليوم نرى العرب ، حتى اولئك الذين يقيمون في جنوب فلسطين ، اذا ارادوا ان يتحدثوا عن مكان شديد الخراب ، قالوا : انه يشبه خرائب جرش ! .

الآثـار :

يرى المرء اول ما يرى ، عندما يقبل على جرش ، قوس النصر ذات البوابات الثلاث التي ما تزال قائمة حتى منتصف ارتفاعها الاساسي تقريبا . وتبلغ القوس الوسطى ٣٩ قدما في الارتفاع و ٢١ قدما في العرض و ٢٢ قدما في العمق ، بينما يبلغ عرض الاقواس الثلاث ٨٥ قدمـا . وكـانت قوس النصر هـذه بمثابة بوابة شرف تقـوم على موازاة البوابة الجنوبية التي هي المدخل الرئيسي للمدينة. ولم تكن هذه القوس تفتح الا لدخول الشخصيات البارزة التي يرغب زعماء المدينة ان يرحبوا بها ترحيبا خاصا . وتحمل قواعد الاعمدة البارزة في جدار الواجهة من الجانبين نقوشا تمثل اكاليل من اوراق الخرشوف ، وهي ظاهرة غير عادية نراها تتكرر في البوابة الجنوبية . اما الساحة الكبيرة الواقعة الى الغرب وراء القوس فهي ملعب للخيل طرفه الشمالي شبه مستدير . وكان هذا الملعب ذات يوم محاطا بصفوف من المقاعد في جميع جوانبه عدا الجانب الجنوبي ، وما يزال صفان او ثلاثة من المقاعد قائما في

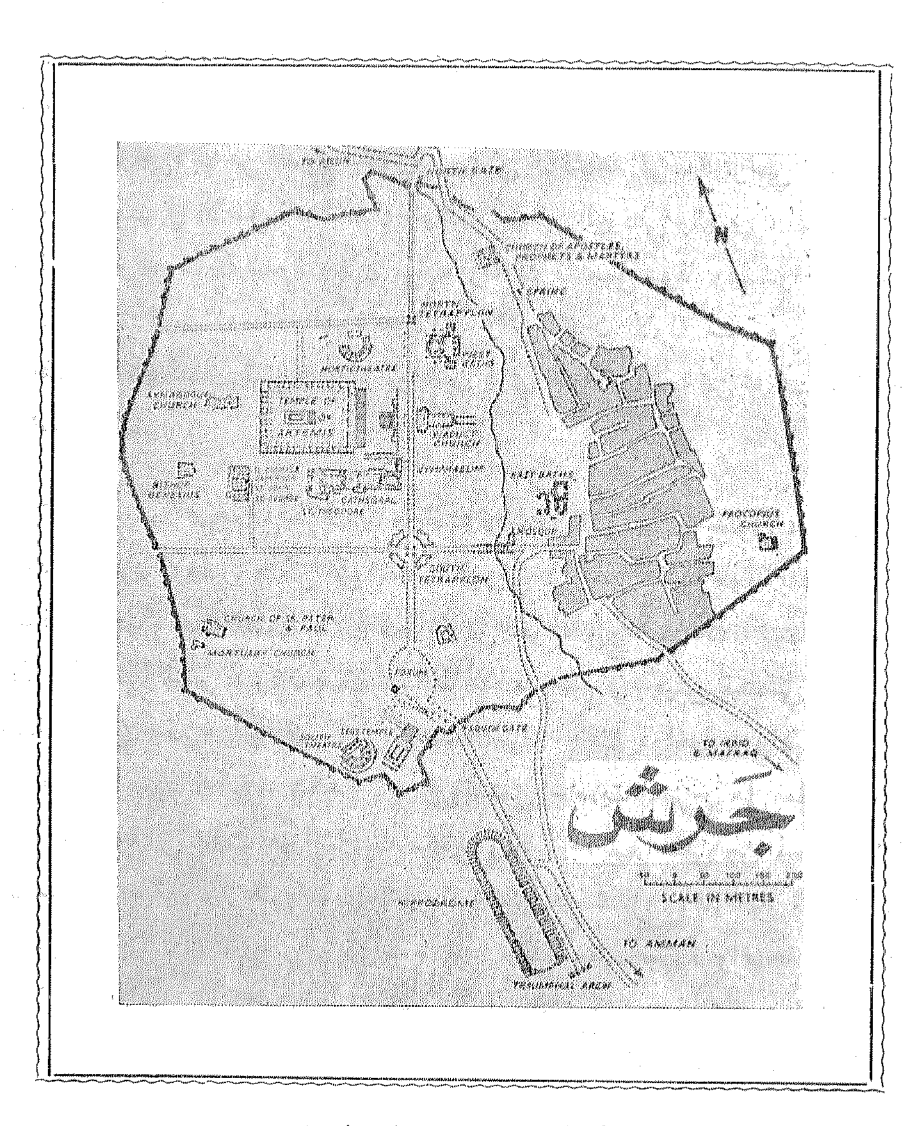
مكانه في الجانب الغربي . وفي وقت لاحق – تقلصت مساحة الملعب بعد ان اضيف اليه طرف آخر شبه دائري في منتصف طوله . وتمر الطريق المتجهة الى الآثار حاليا من جانبه .

ولقد كانت البوابة الجنوبية ذات ثلاث اقواس ، مثلها مثل قوس النصر ، ولكنها اصغر حجما بكثير ، وكانت قد اصيبت بالدمار واجريت فيها حفريات جزئية في الجانب الغربي . وفي هذه الحفريات يمكن مشاهدة باب غرفة حارس البوابة ، وفي كلا الجانبين برج من ابراج سور المدينه . والى جانب هذه البوابة مكتب محافظ الآثار الحالي حيث تباع تذاكر الدخول .

نحن الآن في مدخل المدينة نفسها ، وعلينا ان نتذكر بضع نقاط عندما نتطلع بأبصارنا نحو الآثار ، وهي نقاط يمكن ان تساعدنا على تكوين فكرة واضحة عنها : فالهياكل كلها كانت مسقوفة بالقرميد الاحمر ، ورؤوس الاعمدة المنحوتة نحتا دقيقا وكذلك السواكف(١) كانت كلها مدهونة بالالوان المشرقة من حمراء وزرقاء وخضراء وصفراء ، بينما كانت الابنية الرئيسية تزدان بعدد كبير من تماثيل المرمر . ولا شك ان اشياء اخرى سوف تخطر للذهن المتسائل ، ولكن النقاط التي سبق ذكرها تكفي لاعطاء انطباع عام . ولقد كانت جميع المواد اللازمة للبناء متوافرة محليا على اختلاف انواعها ، مع ان اعمدة الجرانيت وكتل المرمر المنشورة بالمناشير كانت تستورد من الخارج زيادة في التجميل والتفخيم .

نعبر من البوابة الجنوبية مباشرة الى ساحة الندوة وهي مبلطة في اطرافها الخارجية بالواح كبيرة من الحجر القاسي ، مثلها في ذلك مثل الشارع الرئيسي ، اما الوسط فبلط بالواح حجرية اصغر او اقل صلابة . والساحة ذات شكل غريب حقاً ، لا يتفق مع اي تخطيط هندسي معروف . ومن الواضح انها انشئت على هذا النسق الغريب لسبب لا نعلم عنه شيئاً ، مع ان الطريق الى هيكل زيوس لا بد ان تكون احدى الاسباب التي تركت اثراً في التصميم . ويبلغ عمق جدار الاساس التي تقف عليه الاعمدة الشرقية ما يزيد على ٣٦ قدماً في الطرف الجنوبي . اما تيجان الاعمدة فمن الطراز الايوني ، بينما نرى احد تيجان الاعمدة في الشارع الرئيسي من الطراز الكورنثي ، ونجد الطراز الايوني مرة اخرى في الشارع الرئيسي الى الشمال من بوابة ارتميس . ويلاحظ ان العمودين القائمين في الطرف الشمالي من صف الاعمدة الشرقي ، اقرب الى بعضهما البعض مما هي عليه الاعمدة الاخرى ، وسبب ذلك انهما نقلا من مواضعهما الاساسية لافساح المجال لاقامة قوس فوق مدخل الشارع الرئيسي عندما جرى تعريضه . ونستدل من هذا

(١) جمع ساكف وهو اعلى الباب الذي يقابل الخشبة التي يوطأ عليها .



« مخطط مدينة جرش التاريخية »

وتبدو في الحدود التي كانت تقوم عليها اثناء عمرانها ، ويلاحظ فيها بوضوح ، مدخل المدينة من (باب عمان) ، كما يلاحظ فيها (شارع الاعمدة) ، والساحة الكبرى ، التي كانت تقوم في وسط المدينة ، ثم بقية المعالم التاريخية الأخرى .

بالاضافة الى رؤوس الاعمدة الايونية ، ان ساحة الندوة انشئت في تـــاريخ سابق لتاريخ انشاء الشارع الرئيسي ، اما النتوءات البارزة التي نراها في حجارة الاعمدة ، فالقصد ان تمسك بها الحبال عند رفعها الى مواضعها . على أننا لا نعلم الهدف من وجـــود الكراسي الحجرية في الوسط ، وقد عثر عليها مبنية في جدار انشيء في تاريخ متأخر قريباً مـــن موقعها الحالي ، وربما جيء بها من المدرج الجنوبي . ويمكن ان نشاهد قرب الكراسي بقايا قاعدة مربعة ربما كانت في الاصل قاعدة تمثال . واثناء العهدين البيزنطي والعربي ، انشئت منازل صغيرة فوق ارض ساحة الندوة ، لانها لم تعد يومذاك تستعمل سوقا ونـــدوة للاجتماعات العامة ؛ ويحتمل ان انشاء ساحة الندوة يعود الى اوائل القرن الاول ب . م . وقد نحتت على بعض اعمدة الصف الشرقي اسماء مواطنين ذوي غيرة وحمية ممن تبرعـــوا بأموالهم للمساهمة في انشائها .

تؤدي درب ضيقة من طرف ساحة الندوة الجنوبي الى المدرج الجنوبي ، الذي انشيء ايضاً خلال القرن الاول ، ولكن على النمط الكورنثي . وهناك كتابة طويلة باللغة اليونانية على صفحة الجدار تحت الصف الأدنى للمقاعد من الغرب ، وهذه الكتابة تنبئنا عن صف ضابط قدّم تمثالا للنصر ، وكان صف الضابط هذا قد خدم في جيش نبطـــي اثناء الثورة اليهودية سنة ٧٠ ب . م . ، وقد كان ثمن هذا التمثال ٣٠٠٠ دراخما ، ونصب في عهد الامبراطور دوميتيان (٨١ — ٩٦ ب . م) . وتشتمل اساسات المسرح على بعض حجارة الاعمدة الغشيمة التي تبقت بعد انشاء بناء سابق . وكان الجانب الخلفي من المسرح يتألف في الاصل من طابقين ويزدان باعمدة ومحاريب تحتوي على تماثيل . وقد اعيد الآن بنـــاؤه حتى بداية الطابق الثاني ، وبالرغم عن عدم اتمامه ، فانه يعطي صورة واضحة للحالة التي كان عليها في الاصل . وكان هنالك ٣٢ صفا من المقاعد تتسع الى ٤٠٠٠ او ٥٠٠٠ متفرج ، وتحمل صفوف المقاعد التحتانية ارقاماً مما يدل على انها كانت تحجز لاشخاص معينين .

يقع هيكل زيوس في محاذاة المدرج من الجهة الجنوبية ، وقد تم انشاء البناء الحالي في اواخر القرن الثاني ب . م . (١٦١ — ١٦٦) ولكن يبـــدو ان الموقع كـــان يعتبر موقعاً مقدساً منذ القديم . وفي الاصل كانت الاعمدة تقف حول محيط البناء الرئيسي ، ولكن هذه الاعمدة — عدا واحد منها — تهاوت بفعل الزلازل الارضية ، وانك لترى اثنين منها في الجهة الشمالية مطروحين على الارض باكملهما من القاعدة حتى الرأس . وكانت الطريق

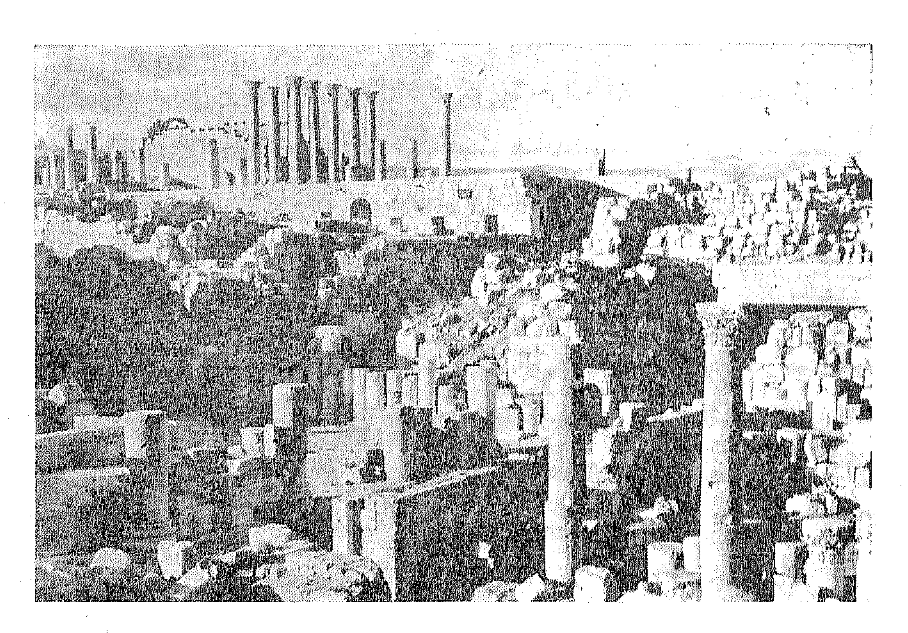
الموصلة بين الهيكل وساحة الندوة تتألف من عدد كبير من الدرج لم تبق منه حتى اليوم درجة واحدة . وهناك ظاهرة جديرة بالاهتمام الا وهي تلك الاقبية الضخمة التي انشئت لرفع مستوى ساحة الهيكل ولكي تمر الدرجات فوقها . ويمكن مشاهدة احد هذه الاقبية وطوله حوالي ١٠٠ قدم ، عند التلعة المنخفضة القريبة من الطريق ، اما الاقبية الاخرى فتستعمل مخازن للوازم والادوات .

نعود الآن الى ساحة الندوة ، ونشرع بالسير في شارع الاعمدة الرئيسي الذي يمتد مع امتداد المدينة كلها من ساحة الندوة حتى البوابة الشمالية ، على مسافة حوالي ٦٠٠ متراً . ولقد انشيء الشارع الاساسي خلال الفترة ٣٩ — ٧٦ ب . م . على الطراز الايوني . اما الطراز الكورنثي الذي يظهر مع امتداد الشارع حتى بوابة ارتميس فيدل على توسيع الشارع وتجديد بنائه في النصف الاخير من القرن الثاني . وانك لترى كثيراً من القواعد المربعة للاعمدة لم يتم نحتها ، وخاصة تلك الاعمدة القائمة الى اليسار بعد مغادرة ساحة الندوه ، كما ان بعض الاعمدة الضخمة تختلف في ارتفاعها مما اقتضى تعديل السواكف . ويمكن ملاحظة هذا الاختلاف ايضاً في الاعمدة التي سبقت الاشارة اليها . ومما هو جدير بالملاحظة ان الاعمدة التي كانت تقام امام الابنية العامة الضخمة — كانت ترتفع حتى توازي الواجهة في ارتفاعها . ويمكن مشاهدة هذا من الاعمدة القائمة امام سبيل الحوريات ومدخل هيكل ارتميس . وما يزال الشارع يحتفظ بالحجارة المنبسطة التي تم تبليطه بها على طول امتداده ، ويمكن للمرء ان يرى بوضوح آثار عجلات العربات في بعض الاماكن ، وخاصة قرب المصلّبة الجنوبية. ومن المرجح ان رصيف المرور الجانبي المرتفع ، بين الاعمدة والدكاكين ، كان مسقوفاً على نحو ما . وكان يتخلل الارض التي يمر عليها الشارع في المنتصف ، مصرف ماء واسع ، تنتظمه فتحات على مسافات متساوية ، وكانت لهذه الفتحات اغطية ذات حلقات حديدية مثبتة بالرصاص ، على ان القرويين كانو يعمدون الى بتر هذا الرصاص لاستعماله في بنادقهم القديمة (الموزر) .

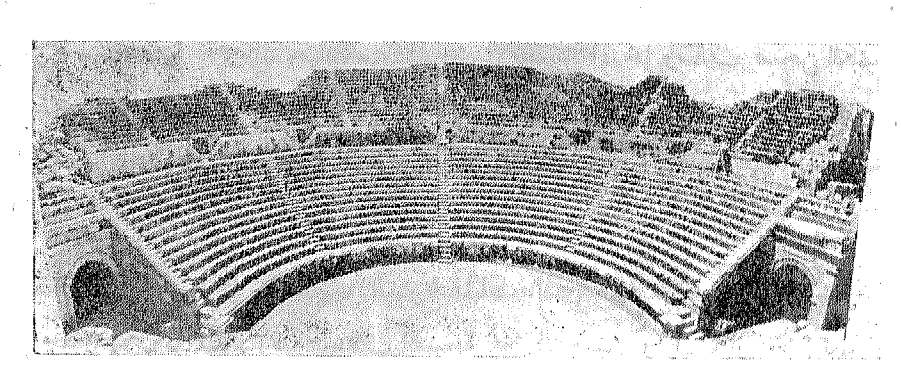
ولقد كان الشارع يشتمل على عدد من الصهاريج والنوافير ، وأعظمها سبيل الحوريات . ويمكن مشاهدة الثقوب في الحرزة كي تنزل مياه الامطار بواسطتها الى المصرف الرئيسي . وفي وسط المصلبة الجنوبية يلتقي مصرف الشارع الرئيسي مع مصرف الشارع الفرعي .

أنشئت مصلّبتان على تقاطع الشارع الرئيسي مع الشارعين الفرعيين ، وتتألف المصلبة الجنوبية من اربع قواعد مربعة تحمل كل منها اربعة أعمدة فوقها هرم مدرج ، ويرجّح ان تمثالا كان يرتفع فوق ذلك الهرم . وقد أعيد بناء القاعدة الجنوبية الشرقية حتى مواطيء الاعمدة ، ولكن الكتابة على الواجهة الجنوبية هي كتابة بيزنطية ، أضيفت فيما بعد. اما الدكاكين وساحة السوق التي تحيط بها ، فقد أنشئت في أواخر القرن الثالث او اوائل القرن الرابع ، ولكنا لا نملك اي دليل عن التاريخ الذي انشئت فيه المصلبة . اما الشارع المتقاطع فيسير غربا حتى يبلغ بوابة السور ، ويسير شرقا بانحدار حتى يصل الى جسر كان يقوم في منتصف الوادي .

واذا واصلنا السير في الشارع الرئيسي ، فاننا نبلغ بعد ذلك البوابة وطريق الدرج المؤدي الى الكاتدرائية والذي تحيط الدكاكين بجانبيه . ولكن هذه البوابة هي في الواقع بوابة هيكل كان هنالك سابقا ، وتبدو تحت الدرج بقايا ذلك الهيكل . وفي محاذاة هذه البوابة يقوم سبيل الحوريات الذي تم انشاؤه سنة ١٩١ ب.م .وكان يعتبر هيكلا للعذارى (Nymphs) التي تقيم عادة في الماء ، كما كان في الوقت نفسه السبيل المزخرف الرئيسي للحصول على الماء في المدينة . وقد انشيء هذا السبيل في طابقين كان الاول منهما مغشى بالمرمر ، اما الطابق الثاني فقد كان مغشى بالجبس والدهان . وفي الجانب العلوي من المحراب الذي يقع الى اليسار ، يمكن للمرء ان يشاهد بقايا هذا الدهان الذي يبدو كمثلثات خضراء وبرتقالية . وكانت تعلو السطح قبة نصفية ولكن لم يبق سوى قطع صغيرة من التراب البركاني الذي كان مادة البناء . اما في محاريب الطابق الاول فقد كانت تنتصب تماثيل يحتمل انها كانت تمسك آنية لكي يتدفق الماء منها في الحوض الكبير الموجود تحتها ، وما نزال حتى اليوم نرى ثقوب أقنية الماء . اما الماء الزائد في الحوض : فقد كان يتدفق من رؤوس أسود هناك الى المجاري في رصيف المرور الجنوبي ، وما يزال احد هذه المصارف مزدانا برسوم سمك الدلفين . وقد انشيء في وقت لاحق حوض حجري ضخم في منتصف الرصيف ، مع اننا لا نعرف الغاية من انشائه الا اذا أريد به أن يشغل فراغاً ما . ولا شك ان الزخارف المنحوتة في هذا البناء هي أجمل ما في جرش كلها من نوعها . وتقوم في محاذاة سبيل الحوريات دكاكين أخرى يزدان احدها بواجهة ذات عمودين .



آثار جرش : وتبدو في أعلى الصورة أعمدة هيكل (ارتميس) ، التي
ما زالت تحدث الاجيال عن عظمة (مدينة جرش) الخالدة :



جانب من المدرّج الجنوبي في جرش : وهو احد مدرجين كبيرين ،
كانت تشتمل عليهما المدينة ، ويقوم الثاني في الجانب الشمالي منها .

ثم نأتي الى بناء من اضخم الابنية في جرش واكثرها جلالا ، الا وهو هيكل ارتميس ومدخله الفخم التي كانت الالهة الراعية للمدينة ، لذلك جاء هيكلها اكثر فخامـــة واعظم مظهرا من سواه . انه ما يزال واقفا بجلال فوق كل ما حواليه من آثار ، وامامه تقف اعمدته الضخمة المتناسقة في ضخامتها مع الهيكل التي بقيت صامدة رغم الزلازل العديدة . ولكن الهيكل نفسه ليس الا بناء يتوسط مخططـــا عظيما واسعا من الباحـــات والبوابات التذكارية والممرات المدرّجة . وهذا كله يعـــود الى منتصف القرن الثاني ب م . حيث تم الفراغ من المدخل سنة ١٥٠ ب م . وكانت بداية ذلك المخطط في الجانب الشرقي من جدول الماء حيث كانت تقطع الوادي طريق منحدرة فوق جسر لم يبق شيء منه حتى اليوم ، رغم ان رحالة عبر به خلال القرن الماضي وشاهد جانبا منه وقام بتصويره . وليست الكنيسة التي ندعوها اليوم باسم كنيسة الجسر (Viaduct) سوى امتداد لهذه الطريق ، التي كانت تتخللهـــا بوابة مثلثة كانت قائمة في موضع صدر الكنيسة الحالي . وقد استعملت حجارة اقواس البوابة في بناء صدر الكنيسة هذا ، ويمكن مشاهدتها ملقاة بين بقايا الاعمدة الخارجية للقوس . وهذه الكنيسة هي الوحيدة من نوعها — فيما نعرف — التي تتوغل متطفلة في بناء كلاسيكي . وعلى ارضية الفسيفساء للغرفة المستديرة في الجانب الشمالي من ساحة الكنيسة نرى كتابة تعطي تاريخ : ايار سنة ٥٦٥ ، وهذه الفسيفساء ما تزال مدفونة تحت الانقاض . وفي الواقـــع ان الجهود الحقيقية لتحويل البناء الى كنيسة كانت بسيطة جدا ، فالاعمـــدة والجدران الخارجية بقي معظمها في مكانه ، بينما عمد البناؤون الى استعمال حجارة القوس المتساقطة في انشاء صدر الكنيسة . اما الارضية فقد كانت مبلطة سلفا فلم يبق الا تضييق المدخل وسقف صحن الكنيسة . وهناك ظاهرة غريبة بالنسبة الى جرش الا وهي الحوض التي كانت تحفـــظ فيه المياه التي تستعمل لغسل الاواني المقدسة وايدي المحتفلين ، وهو عبارة عن جرن عميق محفور في الحجر ، ومن المحتمل ان المذبح كان يقوم فوقه .

كان صحن الكنيسة في الاصل هو الشارع المبلط الذي تحيط الاعمدة بجانبه ، وخلف الصحن جدار دون نوافذ ، وقد تم سقف الفسحة بين الاعمدة والجـــدار حتى تغدو ممرا جانبيا . بعد ذلك نرى ساحة ذات شكل غريب تحولت فيما بعـــد الى رواق امام الابواب الرئيسية للكنيسة ، اما جانبها الغربي فاكثر عرضا من الشرقي ، لكي يتاح للناس ان يمتعوا انظارهم برؤية مدخل هيكل ارتميس ، ذلك لان الشارع الرئيسي كان من الضيق بحيث لا يتيح للمشاهدين ان يتملّوا من منظره البديع . وفي هذا الموضـــع من الشارع نرى مثالا

عجيبا مما تستطيع ان تفعله الزلازل ، اذ نرى قوسا ملقاة على الارض من الطنف العلوي ، وكل حجر من حجارتها في موضعه الطبيعي ، رغم ان الزلزال قذف بالقوس وطنفها من مسافــة لا تقل عن ستين قدما ، ولا بدّ انها كانت في الاصل جزءا من مدخل ارتميس او من اعمدته الامامية . فاذا ما قطعنا الشارع ومررنا من البوابة الكبرى ، واجهتنــا سلسلة من الدرج العريض تؤدي الى ساحة مشرفة . وهنا تواجه المرء واجهة البناء الذي يكتنف فناء الهيكل ، وهو عبارة عن صف من الاعمدة وراءها جدار تتخلله بوابة من الوسط . كان طول هذا الجدار في الاصل ١٢٠ مترا ، تمتد مع مسافته كلها سلسلة اخرى من الدرجات يعبر عليها الناس من الساحةالمشرفة الى رواق المدخل الامامي. ولم يبق من هذهالدرجات حتى اليوم الا بقايا قليلة يمكن مشاهدتهــا عند الطرف الجنوبي للساحة ، تلك الساحة التي يرتفع ركامها الآن بضعة امتار عما كانت عليه في الاصل .

اما فناء الهيكل نفسه فقد كان محاطا من جوانبه الاربعة بجدار وصفّ من الاعمدة ، ويبلغ طول الجدارين الشرقي والغربي ١٦١ مترا اما الشمالي والجنوبي فيبلغ ١٢٠ مترا . وكان هنالك مدخل واحــد في كل من الجدارين الشمالي والجنوبي . وقد اقيمت غرف عديدة في الساحة الواقعة بين الرواق والجدار . وكان هنالك ممر آخر من الدرج يؤدي الى الهيكل ، ومن سوءالحظ ان هذا الممر قد زال الآن ، كما كان هنالك مذبح في الفناء على موازاة محورالهيكل. ويمكن ان نشاهد زاوية من هذا المذبح تحت الابنية البيزنطية قريبا من افران الفخار .

ومن اجل رفع مستوى فناء الهيكــل ، فقد تم بناء قبوين كبيرين في الجانبين الشمالي والجنوبي حيث تنحدر الارض هناك . اما القبو الجنوبي فيستعمــل الآن متحفا محليا يضم بعض الكتابات والنقوش والفسيفساء التي عثّر عليها بين الخرائب .

اما هيكل ارتميس نفسه فقد اقيم فوق عدد من الاقبية لكي يزداد ارتفاعا ، وتبلغ مساحة البسطة العظيمة التي بني عليها ٤٠ مترا في الطول و$\frac{1}{2}$٢٢ في العرض و$\frac{1}{2}$٤ في الارتفاع . ويبلغ ارتفاع الاعمدةالجميلة $\frac{1}{4}$١٣مترا اي ٤٤ قدما ، وكان صف منها في الاصل يكتنف الهيكل من جميع جهاته عدا المقدمة التي كانت تزدان بصفين من الاعمدة . اما الآن فلم يبق قائما منها سوى الاعمدة الامامية . وقد تزحزح بعضها عن امكنتها الطبيعية ، بل ان احدها يتمايل

عندما تشتد الريح حتى لتسمع دقاته لمسافة لا بأس بها . وهناك اربع درجات تصعد الى مدخل الهيكل المسدود حالياً . وتتسم داخلية الهيكل بالبساطة التامة مثلها في ذلك مثل الجوانب الخارجية ، اللهم فيما عدا محاريب مستطيلة في الجدران كانت في الاصل مغشاة بالواح من الرخام .

وهناك طاقات في مداميك الحجر العليا كانت ترتكز عليها الدعائم الخشبية للسقف . أما قدس الاقداس فلم يكن سوى منصة مرتفعة تحت اقواس في الطرف الجنوبي حيث كان تمثال الالهة أرتميس . ومما هو جدير بالذكر أن الكهنة وحدهم كان يسمح لهم بدخول الهيكل ، بينما كان يتعين على المصلين والمتعبدين ان يقفوا خارجا في الفناء .

وعندما غدا الهيكل عرضة للاهمال بعد القضاء على عبادة الاوثان ، أخذ البيزنطيون ينشئون أخصاصهم وافرانهم في ساحته ، كما اخذوا ينتزعون الحجارة بين منحوتة وغير منحوتة وينقلونها لبناء الكنائس . واخيرا عمد العرب في القرن الثاني عشر الى سد الباب الرئيسي ، كما أنشأوا الجدران بين الاعمدة وحولوا الهيكل الى قلعة . ولم يلبث الصليبيون ان استولوا على الهيكل ودمروه ، ولا شك ان معظم الخراب الذي نراه اليوم حدث في ذلك العهد . ولقد اقتصرت الحفريات هنا على بضعة خنادق وحفر تجريبية ، ومع ذلك فانها تظهر مبلغ عظمة هذا الاثر النفيس فيما لو امكن ازاحة الانقاض ن ساحته يوما ما ، ولو امكن القيام ببعض الترميمات . وفي الوقت الحاضر يمكن الدخول الى بناء الهيكل من باب صغير تم قطعه في الواجهة الجنوبية عند تحويله الى قلعة .

يستطيع المرء ان يحصل على منظر ممتاز لسور المدينة اذا هو وقف عند هيكل ارتميس . وما تزال معظم اجزاء هذا السور في حالة جيدة عبر امتدادها مع المنحدرات والتعاريج على جانبي الوادي ، ولكن الجانب الشرقي في حالة افضل . ويعطي هذا السور دليلا على نمو المدينه وتطورها اثناء اتساعها التدريجي ، فهو كثير التعاريج من الجهة الغربية : لا ليتمشى مع وعورة الموقع بل لكي يضم في داخله المناطق العامرة بالابنية . اما من الجهة الشرقية فالبناء يسير في خطوط طويلة مستقيمة . ويبدو ان انشاء السور كله تم في حقبة واحدة الا وهي اواخر القرن الاول ب.م. ، لاننا لا نرى اي تنويع في طراز البناء ، فيما عدا آثار الترميم الذي اجري فيما بعد . اما تصميم السور فقد كان يشتمل على أبراج مربعة منيعة أقيمت على

أعاد منتظمة طول كل منها حوالي ٥٠ متراً، بينما أنشيء السور بالحجارة الضخمة المنحوتة نحتا حسنا على الواجهتين مع ملء الفراغ بين الواجهتين بالدبش والتراب ، بحيث بلغ عرض السور مترين ونصف المتر . ويبدو ان القصد من انشاء السور هو رد الغزوات او الهجمات الفجائية ، لا مقاومة حصار منظم تدعمه الآلات ، لان السور لم يكن محاطا بخندق .

يضيق الشارع بعد ان يجتاز هيكل أرتميس ، ويظهر النمط الايوني فيه مرة أخرى . وتوجد في التقاطع الشمالي للشارع مصلبة أخرى تختلف في تصميمها اختلافا كليا عن مصلبة التقاطع الجنوبي ، وتتألف هذه من اربع قواعد متصلة بأقواس ، وتعلو فوقها قبة الحمام المجاور لها . وقد انشئت هذه المصلبة على شرف (جوليا دومنا) وهي الزوجة السورية للامبراطور سبتيموس سفيروس (١٩٣ — ٢١١ ب.م) وأقيم في الواجهتين الشمالية والجنوبية عمودان منفصلان ، تحت على قاعدة كل منهما رأس اسد كان الماء يتدفق منه ويصب في حوض تحته . ومن هنا تمتد درب تؤدي الى الحمامات الغربية التي أنشئت على الترجيح في القرن الثاني ، وهذه الحمامات تشتمل على مثال من اقدم الامثلة مما يدعى اليوم فنيا « القبة المعلقة » اي قبة مستديرة فوق غرفة مربعة . وكان هناك في الاصل ثلاث قباب كهذه : احداها على الغرفة الكبيرة الغربية والقبتان الاخريان على الغرفتين الشمالية والجنوبية . اما اليوم فلم تبق منها سوى القبة التي تعلو الغرفة الشمالية الصغيرة . وفي الجهة الغربية لهذه الحمامات وهي الجهة الاكثر قربا من الشارع ، أنشيء فناء جميل يقوم فيه صفان من الاعمدة . ومهما يكن من أمر ، فانه لمن العسير التحدث عن الحمامات حديث الواثق بسبب عدم إجراء أية حفريات في هذا البناء حتى الان ، وكذلك بسبب ما حل به من دمار .

اما البوابة الشمالية ، كما نراها اليوم ، فقد أنشئت سنة ١١٥ ب.م. في عهد كلوديوس سفيروس مبعوث الامبراطور تراجان ، وهو الذي جدد بناء الطريق من بيلا (طبقة فحل) على مشارف وادي الاردن الى جرش . ومن الغريب أن جدار البوابة من الناحية الغربية اكثر عرضا مما هو عليه في الناحية الشرقية ، والسبب في ذلك ان شارع الاعمدة الرئيسي يلتقي مع طريق بيلا على شكل زاوية منفرجة ، فاتجهت رغبة المهندس الى اقامة واجهتي البوابة قبالة كل من الطريقين على زاوية مستقيمة بدون انحراف . وعلى بعد حوالي كيلومتر واحد من البوابة الشمالية ، يتفجر النبع الذي كانت مياهه تسقي النصف الغربي من المدينة : وهذا النبع يدعى الآن باسم البركتين ، والاسم مشتق من البركة الحجرية العظيمة التي

يفصلها جدار في منتصفها حيث يتدفق النبع ، ويتصل بهذه البركةمن الجهة الغربية مدرج صغير . وهناك كتابة تعود الى القرن السادس مفادها ان الاحتفالات بعيد المـاء الذي كان معروفا باسم (مايوماس) كانت تجري هناك ، وكانت العناصر المسيحيه تعتبرها احتفالات فاضحة وتنظر اليها بعين السخط لان الاستحمام فيها كان مختلطا للجنسين . ومن المدهش حقا ان نعلم أن هذه الاحتفالات كانت ما تزال تجري في تلك الحقبة عندما كانت الديانة المسيحية في غاية القوة .

كان يحيط بالبركة أصلا صف من الاعمدة ، مما كان يضفي عـلى المكان مزيدا من الروعة ، ولا بد ان الاشجار كانت تكتنفه من كل جانب ، حتى ان الرحالة بركهاردت الذي زار الموقع سنة ١٨١٢ وصفه بأنه « بقعة رومانتيكية في غاية الروعة حيث أشجار البلوط والجوز الكبيرة تلقي ظلالها على الجدول » . ويعود تاريخ انشاء هذه البركة الى اوائل القرن الثالث ، اما المدرج فقد انشيء بعد ذلك بزمن قصير .

تتفرع من المصلبة الشمالية طريق تتجه غرباً وهي محاطة من الجانبين بصفين من الاعمدة ذات الطراز الايوني ، ويمكن مشاهدة اطراف ثلاثة منها بارزة بين تراب الحقول . وهناك درب تؤدي الى ساحة سوق انشئت عـلى الطراز الكورنثي وفيها اعمـدة جميلة ضخمة وسواكف جسيمة . وفي محاذاة هذه من الجنوب يقوم المدرج الشمالي وهو اصغر بكثير من المدرج الجنوبي . لم تجر أية حفريات حتى الآن هنا ، ولا يعرف تاريخ بناء هذه المنشآت ، ولكن يرجح بأنها اقيمت في القرنين الثاني او الثالث .

اما في الجانب الشرقي فلم تبق اية آثار ضخمة فيما عدا الحمامات الشرقية وهي في حالة خراب شديد . على ان احدى الغرف ما تزال تحتفظ بعقدها كاملا وهو عقد بالغ الضخامة . ويستعمل هذا الحمام حالياً اسطبلا للحيوانات ، ويمكن الوصول اليه من شارع بلدة جرش الرئيسي ، وليس من المستطاع تعيين تـاريخ انشاء هذه الحمامات ، ولكـن يرجح انها انشئت في وقت لا يتعدى القرن الثاني ب . م .

الكنـائس :

فاذا ما حولنا اهتمامنا الى الكنائس المسيحية ، وجدنا ان (جرش) تشتمل على بقايا ثلاث عشرة كنيسة ، ولكن من المرجح جداً ان بقايا كنائس اخرى ما تزال مدفونة تحت الانقاض ، لان مدنا اخرى اصغر مـن جرش بكثير كانت تضم عدداً اكـبر من هذه الكنائس . اما تاريخ انشائها فمتقارب ، عدا واحدة بعينها ، كما لم تجر فيها أية اعمال ترميم

او تجديد منذ ان تركت مهجورة في القرن الثامن او القرن التاسع . لذلك فان هذه الكنائس تمثل مادة ذات اهمية من الطراز الاول لدراسة فن البناء المعماري عند المسيحيين الاوائل ، خاصة لما يعرف عن تاريخ انشائها ولان تصاميمها الاصلية بقيت دون تغيير او تبديل . وقد كانت معظم الجدران الداخلية في هذه الكنائس مغلفة بالرخام او بألواح الحجر الملون او مغشاة بالجبس المدهون واحيانا بفسيفساء الزجاج . ولم يبق لدينا حتى الآن ما يدل على كيفية تزيين الجدران بالزخارف سوى ثقوب الاوتاد التي كانت تثبت بها الالواح ، كما ان رداءة نوعية البناء كانت تختفي في نفس الوقت خلف تلك الزخارف .

من المرجح ان تكون الكنيسة الكاتدرائية اول الابنية المسيحية في جرش كما نعرف حتى الآن ، ولا بد ان هذه الكنيسة تعود الى حوالي ٣٥٠ – ٣٧٥ ب . م . وهي في الواقع الكنيسة الوحيدة التي لا يستطاع تعيين تاريخ انشائها بدقة . اما الدليل الثبوتي على تاريخها فهو اشتراك مطران جرش في مجمع سلوقيا سنة ٣٥٩ ، وما ذكره ابيفانيوس الذي كتب سنة ٣٧٥ عن وجود نافورة ماء في جرش يحتفل فيها سنوياً باعجوبة تبديل الماء الى خمر . وهذه النافورة لا يمكن ان تكون سوى النافورة الموجودة في الفناء غربي الكاتدرائية . وهنالك دليل ثبوتي آخر على هذا هو ان الكنيسة نفسها انشئت في موقع هيكل وثني اقدم عهداً ، هو هيكل (الطفل ديونيسيوس) . ولا شك في ان حادثة الخمر تمثل تحويل الاحتفالات بالشعائر الوثنية الى احتفالات بشعائر الديانة المسيحية المتغلبة .

ولقد سبقت الاشارة الى البوابة والدرجات التي تصل من الشارع الرئيسي الى الكاتدرائية ، وانك تستطيع ان ترى على رأس الدرج قريباً من الجدار الخلفي للكاتدرائية بقايا اجزاء من هيكل صغير شيد على اسم مريم العذراء والملاكين ميكائيل وجبرائيل ، وهذه الاسماء تظهر مكتوبة بدهان احمر على النطاق الظاهر تحت التجويف . اما الاعمدة والتيجان الايونية الملقاة على الارض هنا ، فقد كانت في السابق تؤلف صفاً من الاعمدة حول الجانب العلوي من بئر الدرج .

يمكن الدخول الى الكاتدرائية من الجانب الشمالي او الجنوبي ، اما تصميمها فعلى طراز الباسيليكا العادي ، اي انها كانت تتألف من قاعة مستطيلة لها جناحان شمالي وجنوبي وصدر مجوف يقوم فيه الهيكل ، وهناك مذبح يكتنفه حاجز من الرخام ، بينما يقوم منبر الوعظ في الزاوية الجنوبية الغربية من المذبح . ولقد نقلت الاعمدة وتيجانها ومعظم حجارة البناء من ابنية قديمة ، ولا شك ان اكثرها جاء من هيكل ديونيسيوس . وانك تستطيع ان تشاهد في

خندق حفر في وسط قاعة الكنيسة - جانباً من اساس الحائط الذي كان يقوم عليه ذلك الهيكل الوثني . ويشير صف الاعمدة التي تبدو بقاياها في هذا الموضع - الى المدى الذي انكمشت اليه الكنيسة بعد ان هدمتها هزة ارضية في زمن لاحق . واهم ما بقي من هذه الكنيسة هو الحوض القائم في الناحية الغربية والذي اشرنا اليه سابقاً . وكان هذا الحوض في الاصل يقوم في منتصف ساحة مربعة ويحيط به صف من الاعمدة ، ولكن عندما انشئت كنيسة القديس تيودور في محاذاتها - اقتضى ذلك اقامة الجدار الشرقي والصدر المجوف في ساحة الكاتدرائية بحيث ادى الامر الى خلع صفوف الاعمدة من جانب الساحة الغربي ، وكذلك اعمدة الجانبين الشمالي والجنوبي . ولكن الحوض بقي في مكانه ، كما ان عرش المطران او الكاهن الذي كان يقوم بخدمة القداس ما يزال في موضعه الى الغرب . ولقد كان الماء ينقل الى الحوض في انابيب من الرصاص ، وكانت هذه الانابيب ما تزال في مواضعها عند اجراء الحفريات الاولى ، ولكنها لم تلبث ان سرقت .

يوجد في الجانب الشمالي من ساحة الهيكل ممر من الدرج يؤدي الى المعبر الذي يطل على الطريق الممتدة من سبيل الحوريات الى جانب ساحة هيكل ارتميس . وهناك غرفة على يمين هذه الدرجات كانت تستعمل في القرن السادس مصنعاً لصنع الفسيفساء الزجاجية . اما الى الجانب الجنوبي فتقوم كنيسة صغيرة تذكر لنا كتابة من الفسيفساء انها انشئت « تذكاراً لراحة نفوس اولئك الذين تبرعوا ببنائها ولمريم العذراء » . ويرجح ان هذه الكنيسة الصغيرة انشئت في القرن السادس .

وهنالك ممر من الدرج في الجانب الغربي يقودنا الى كنيسة القديس تيودور ، التي انشئت خلال السنوات ٤٩٤ - ٤٩٦ ب . م . وهناك كتابتان تحملان هذه التواريخ ، احداهما فوق الباب الغربي الرئيسي والاخرى فوق البوابة الخارجية للكنيسة . وفيما يلي نص الكتابة التي كتبت فوق البوابه الخارجية :

« لقد صرت في غاية من الروعة والجمال مما يدهش جميع الذين يمرون بي . اذ انقشعت غيوم الخزي كلها ، وبعد ان كنت قذى في العيون فقد اصبحت عناية الله تحوطني من كل جانب . وفي السابق كانت جثث الحيوانات تلقى في هذا الموضع وتنتشر روائحها الكريهة حتى كان الناس الذين يمرون من هنا يسدون انوفهم ويكتمون انفاسهم حتى لا يستنشقوها . اما الآن فالذين يعبرون هذا السهل المعطر فانهم يضعون ايديهم اليمنى على جباههم لكي يرسموا اشارة الصليب المقدس . فاذا كنت تريد المعرفة فاعلم ان (اينياس) هو الذي منحني هذا الجمال الرائع - اينياس رئيس الكهنة الكلي الحكمة ذو التقوى والورع » .

كانت ارضية هذه الكنيسة مبلطة بالحجارة الملونة والرخـــام ، ولكن لم يبق منها الا القليل . وفي الجنوب الغربي من صحن الكنيسة يوجد جـــرن المعمودية ، بينما يوجـــد في الجنوب الشرقي مصلى صغير ارضه مرصوفة بالفسيفساء . اما المدخل الخارجي للكنيسة فقد كان يحتوي على ثلاثة صفوف من الاعمدة ، بالاضافـــة الى غرف صغيرة مختلفة رصفت ارضها بالفسيفساء . بينما كانت الغرف الموجودة في الجهة الشمالية تستعمل مـــنزلا لرجال الكهنوت . وهنالك ايضاً مصلى صغير في الجهة الجنوبية :

تبدو اعمدة الكنيسة ملقاة على الارض كما سقطت عند حدوث الزلزال حتى لم تبق في مواضعها سوى القواعد . ويظهر ان الدمار كان شاملا بحيث لم تكن هناك اية محاولة لاصلاح الكنيسة او ترميمها . وترى على قواعد الاعمدة حروفاً يونانية يبدو ان البنائـــين وضعوها كعلامات لتسهيل امر رفـــع الحجارة فوق بعضها البعض . وقد تكرر هنا مـــا حدث في الكاتدرائية من ان جميع الحجارة نقلت من ابنية قديمة اخرى .

تغطي ارضية الممر في الشمال الشرقي طبقة من الفسيفساء في مربعات حمـــراء وبيضاء ، ويمكن ان ترى من خلال فجوة في جداره الشمالي جانباً من ادوات التسخين الـــتي كانت تستعمل في حمامات (بلاكوس) المحاذية . ويبدو ان النار كانت توقد في احدى الفترات من هذا الممر . اما مدخل هذه الحمامات فيبدأ من الشارع المحاذي لساحة هيكل ارتميس . ولقد انشأ هذه الحمامات المطران بلاكوس خلال العامين ٤٥٤ – ٤٥٥ م ، ونفهم مـــن احدى الكتابات ان اعمال تجديد اجريت فيها سنة ٥٨٤م . ولكننا لا نعلم فيما اذا كان ذلك المطران الطيب انشأها حباً في عمل الخير ام انه انشأها بقصد الفائدة التجارية . ومهما يكن من امر فانه اتبع التقليد الذي اختطه بناة الكنائس الاخرى فانتزع جميع مـــواد البناء من أبنية قديمة .

وعلى بعد مسافة قصيرة الى الغرب من كنيسة القديس تيودور – كانت تقوم ثلاث كنائس باسماء القديسين : يوحنا ، جورج ، كوسموس وداميانوس . وقد انشئت هـــذه الكنائس الثلاث خلال الفترة ٥٢٩ – ٥٣٣ ب . م . وكانت هنالك تبرعـــات لانشائها ، حتى ان شخصاً يدعى تيودور وزوجته جورجيا تبرعا بمعظم نفقات الكنيسة الاخيرة . ولا شك انهما كوفئا على سخائهما لان صورتيهما واسميهما منقوشان في الفسيفساء يشاهدهما العالم بأجمعه ويعجب بهما حتى يومنا هذا .

ان ترتيب هذه الكنائس الثلاث الى جانب بعضها البعض ، بحيث تفتح كل منها على الاخرى – كان ناشئا عن عادة الكنيسة الارثوذكسية الشرقية بان لا تسمح باجراء خدمة القداس على مذبح كنيسة ما اكثر من مرة واحدة في اليوم . اما بخصوص التصميم فقد انشئت الكنيستان الواقعتان على الجانبين – على طراز الباسيليكا العادي ، بينما انشئت الكنيسة الوسطى وهي كنيسة القديس يوحنا : على هيئة دائرة داخل مربع ، وفي وسط الدائرة (ثريّا) مربعة ترتكز على اربعة اعمدة كبيرة . ويعتبر هذا المخطط صورة مصغرة عن كاتدرائية بصرى في سوريا التي انشئت قبل ذلك ببضع سنوات .

كانت الكنيسة الجنوبية المكرسة باسم القديس جورج ما تزال قيد الاستعمال حتى القرن الثامن ، وهي الوحيدة بين الكنائس الثلاث التي ما تزال مقاعد الكهنة قائمة في صدرها المجوف . وما يزال فيها ايضاً موضعان لحفظ الذخائر الكنسية ، وبقايا حاجزين ، مما يدل على ان بعضاً من اثاث الكنيسة كان قد نقل من احدى الكنيستين المجاورتين حينما بطل استعمالهما . وربما يفسر لنا هذا سبب بقاء الفسيفساء سليمة في كنيسة القديس كوسموس وجانباً من فسيفساء كنيسة القديس يوحنا .

فان تدمير فسيفساء كنيسة القديس جورج لم يتبعه تدمير فسيفساء الكنيستين الاخريين لانهما كانتا قد تهدمتا . ولم يكلف الاشخاص الذين قاموا بالمهمة انفسهم عناء ازاحة الانقاض من اجل تدمير الفسيفساء ، بل لعلهم كانوا يجهلون وجودها . على ان فسيفساء كنيسة القديس جورج ليست بذات اهمية تذكر (وهي ما تزال مدفونة) ولكن فسيفساء كنيسة القديس يوحنا على قدر عظيم من الروعة وتشتمل على صور مدن مختلفة ومن جملتها الاسكندرية وممفيس . وكان هنالك اطار عريض يشتمل على رسوم أشخاص وحيوانات ، ويمكن مشاهدة بعض اجزاء منه في المتحف .

ما يزال اكثر من ثلثي الفسيفساء في كنيسة كوسموس وداميانوس سليما لم يصبه اذى ، وقد قامت دائرة الاثار خلال سنتي ١٩٣٧ – ١٩٣٨ برفع تلك الفسيفساء واصلاحها ثم تثبيتها في مواضعها ، وتعتبر الصور فيها رائعة جدا خاصة صورتي تيودور وجورجيا . وتتضمن الكتابة ذكر تكريس الكنيسة والتاريخ (٥٣٣ ب.م.) ، وتحت الصورتين صور محسنين آخرين : فالى اليسار يوحنا بن استريكس والى اليمين كاليونستوس ، والى جانب يوحنا ايقونة تتضمن كتابة عن القائد داجيستيوس (أحد قواد الامبراطور جوستنيان) . اما بقية

الارضية فتمتلىء بلوحات تحتوي على اشكال هندسية متعددة بينهـــا رسوم هندسية ورسوم متشابكة وصلبان معقوفة وطيور وحيوانات من جميع الانواع ، كما ان الفسحة الواقعة بين الاعمدة المربعة تحتوي على رسوم هندسية وطيور وأسماك . ولكن ارضية الرواقين الجانبيين صنعت على شكل سجادة عادية النقوش ، وكانت فسيفساء الرواق الشمالي قد اصيبت بتلف كبير ثم جرى اصلاحها في ذلك العهد .

تطل الكنائس الثلاث على ساحة عامة كانت تحتوي على صف من الاعمدة المختلفة على امتداد جانب واحد . وكانت الفسحة الواقعة بين الاعمدة والكنائس مرصوفة بالفيسفاء ، بينما كانت بقية أرض المساحة مرصوفة بالحجارة . ويبدو ان جرنا للماء المقدس كان يقوم أصلاً خارج كل كنيسة .

اما فيما يتعلق بالغرف الواقعة في الطرف الشرقي من الكنائس ، فقد كانت الغرفـــة الواقعة بين كنيستي كوسموس ويوحنا معبدا في الاصل ثم حولت الى غرفة معمودية ، وقد نصب جرن المعمودية فوق زخارف الارضية التي كانت على شكل صليب ضمن دائرة . وترى فوق باب الجدار الغربي المؤدي الى كنيسة يوحنا حجرا كبيرا نحت فيه رأس اســـد ونقوش اخرى . وليس هذا الحجر الا قطعة من الكورنيش الخارجي الذي كان يزدان به هيكل ارتميس ، حيث كان الماء يتدفق من رأس الأسد . وترى في ارضية كنيسة يوحنـــا كتابة جيء بحجارتها من هيكل زيوس : اما الغرف الاخرى فيبدو انهـــا كانت مساكن للشـــامسة .

ولا شك في ان نوعية بناء هذه الكنائس كانت رديئة جدا ، ويمكن التأكد من هذا خاصة عند مشاهدة الجدران المنهارة في كنيسة القديس جورج . وتتألف هذه الجدران من واجهتين من الحجارة ، مليء الفراغ بينهما بالحصى والاتربة غير المجبولة . ونرى في صـــدر كنيسة كوسموس قطع الحجارة التي تركها العمال الذين قاموا بصنع المكعبات في الارضية .

وكانت تقوم على الجانب الشرقي لجدول الماء قريبا من رأس النبع كنيسة تثير الاهتمام كرّست باسم الانبياء والرسل والشهداء خلال الفترة ٤٦١ ــ ٤٦٥ ، ولكن الطريق المعبدة لم تلبث ان انشئت فوق جانب كبير منها فلم يبق هناك ما يستطاع مشاهدته . ان هذا لامر مؤسف لان الكنيسة كانت فريدة في تصميمها بـــين كنائس جرش . وكانت تحتوي عـــلى فسيفساء جيدة وكتابة تذكر تاريخ انشائها ، وقد شوهدت لاخر مرة حوالي سنة ١٨٦٠ .

وهناك كنيسة اخرى الى الشرق انشئت عامي ٥٢٦ – ٥٢٧ عـلى نفقة ضابط يدعى بروكوبيوس ، وماتزال بقايا اعمدتها قائمة يمكن مشاهدتها من الجانب الغربي فوق القريـة من الجهة الجنوبية الشرقية . وكانت تحتوي على فسيفساء تعتبر من اجمل ما وجد في جرش حتى الآن ، ولكن لحق بهذه الفسيفساء تلف كبير كما انها ما تزال مدفونة بالتراب .

اما الكنائس الباقية فلا تحتوي على آثار مهمة . فكنيسة القديسين بطرس وبولس التي تقع الى الجنوب من كنيسة يوحنا – انشئت حوالي سنة ٥٤٠ ، وكانت فسيفساؤها تشتمل على صور للمدن ، ولكنها لا ترتفع في نوعيتها الى مستوى صور المدن الموجودة في كنيسة القديس يوحنا . وعلى بعد مسافة قصيرة الى الجنوب تقع كنيسة الموتى (Mortuary) التي أنشأها شخص ما كذكرى لوالديه. وهناك قوس الى الجنوب تؤدي الى مغارة كانت تستعمل مقبرة لدفن الموتى .وقد اجريت حفريات كثيرة في هذه الكنيسة لوقوعها على جانب تل ، ولكن تاريخ انشائها غير معروف ومن المحتمل انها بنيت في اواخر القرن السادس. اما كنيس اليهود فيقـع الى الغرب من هيكل ارتميس . وقد كان في الاصل كنيساً لليهـود ثم حوّل سنـة ٥٣٠ ب. م . الى كنيسة . وقد اقتضى هذا التحويل تبديلا في المخطط ، لان الكنيس في شرق الاردن يتجه نحو الغرب بينما تتجـه الكنائس دائماً نحو الشرق . ولا نرى الآن من هذا الكنيس سوى الاعمدة التي يحتمل انها ليست في مواضعها الأصلية . وهناك بعض قطع الفسيفساء التي تمثّل مشاهد للطوفان كما تحمل كتابة عبرية ولكنها ما تزال مدفونة .

أما آخر كنيسة انشئت في جرش – فيما نعلم حتى الان – فهي كنيسة المطران جانيسيوس اذ يعود تاريخ انشائها الى سنة ٦١١ ب.م. وتقع هذه الكنيسة الى الغرب من كنيسة يوحنا . وليس فيها ما يثير الاهتمام ، كما لم تجر فيها حفريات كامله .

الفصل الخامس

مكاور – ذيبان – حجر ميشع – القصر – الربة – الكرك – مؤته – المزار – ذات راس – خربة التنّور – ضانا – الشوبك

مكاور :

يرى المسافر على بعد بضعة كيلومترات الى الجنوب من مادبا تلّا مرتفعا معزولا غربي الطريق يدعى « لب » تقوم على قمته قرية قديمة . وفي محـاذاة هذا التل تتفرع عن الطريق الرئيسية ، درب ضيقة تسير غربا حتى تؤدي في النهاية الى مكـاور حيث كان يقوم قصر هيرودس . ويقال انه في هذا القصر رقصت سالومي وقطع رأس يوحنا المعمدان . يستطيع الزائر ان يصل بالسيارة الى (عطاروز) ولكنه بعد ذلك يجب ان يسير على قدميه في طريق وعرة حتى يصل الى مكاور[1] ولا يوجـد هناك ما يستلفت النظر اذا استثنينا المنظر الرائع للبحر الميت ، لأن القصر – وهو اشبه ما يكون بقلعة – تهدم منذ عهد بعيد ولم تبق منه الا بعض الجدران المطمورة بين الانقاض وبقايا اطلال تشبه الممر . على ان الموقع يسيطر على ما حوله كليا ، ومنه يستطيع المرء ان يشاهد البنائين الاخرين اللذين اقام هيرودس كلا منهما على رأس جبل : هيروديوم غير بعيد عن بيت لحم ، والكساندريوم على قرن سرطبة شمالي اريحا وغربي داميه[2] . وفي الايام الصافية يمكن للمرء ان يشاهد ابراج القدس ايضا .

تسير الطريق جنوبا نحو الكرك ، وسرعان ما تلتوي منحدرة الى وادي الوالا احد فروع الموجب (ارنون) . ويجري في الوالا جدول تظلل مجراه شجيرات الدفلى ذات الزهور الحمراء . ولا تعدم ان تجد سمكة لا بأس بها في بعض بركه . وبعد ان تعبر الجسر القائم فوق الجدول ترى حجرا منتصبا وحده (منهير) الى جانب الطريق وحوله عـدد من الحجارة المماثلـة مطروحة على الارض . وفي هذا الموضع على الجانب الشمالي للجدول – توجد بقايـا قرية صغيرة قديمة تدعى خربة اسكـندر ، وهي قرية تعود الى فترة العصر الخالكوليثي والعصر

---

(١) اصلحت هذه الطريق فيما بعد وتستطيع السيارة ان تصل الآن الى جبل مكاور

(٢) فوق سرايا الجفتلك بطريق جسر دامية .

البرونزي الاول ، وربما كانت هناك علاقة بين حجارة المنهير وهذه القرية . ويمكن مشاهدة مجموعة من الصوى (الحجارة التي تكتب عليها مسافات الطرق) الرومانية ، على مقربة من رأس الوادي . انها ما تزال مطروحة في مواضعهـــا القديمة الى جانب الطريق التاريخية غير بعيد عن الطريق الحديثة .

ذيبان :

ان قرية ذيبان هي الموقـــع التالي الذي يثير الاهتمام على طريق مادبا - الكرك . وهي تقع على قمة تل مشرف الى الغرب من الطريق بمسافة قصيرة . في هذا الموقع تقوم (ديبون) التي تذكرها التوراة ، والتي كانت يوما ما عاصمة (ميشع) ملك مؤاب . ولقد قامت المدرسة الاميركية للابحاث الشرقية بحفريات استمرت عدة سنوات ، ونتيجة لهذه الحفريات تبين ان هذا الموقع كان مأهولا بالسكان منذ اوائل العصر البرونزي (حوالي ٣٠٠٠ ق.م) مع انه لم تبق من آثار المدينة الاولى سوى بقايا قليلة . تغطي وجه التل آثار العصر العربي والعصر البيزنطي ، اما الطبقة الثانية تحت السطح فتضم بقايا المدينتين الرومانية والنبطيّـــة ، وهناك دلائل كافية على ان الموقع كان مأهولا في العصر الحديدي . كشفت الحفريات عن ابنيـــة متردمة وشوارع وجدران تعود لكافة العصور المذكورة ، ولكنها بحاجة الى جهود واحد من علماء الآثار كي يفصل كل طبقة اثارية عن الطبقة الاخرى ويكشف معالم كل منها على حده : ويبدو جانبا من سور المدينة نتيجة لعمليات حفر عميقه اجريت في صفحة التل الشرقية . ومع ان العصر الذي بني فيه السور لم يعرف بعد - الا ان بناء الحجارة يبدو متناسقا رغم ان الحجارة ذات احجام ضخمة للغاية وقد نحتت وجوهها جزئيا . وما يزال البناء قائما على ارتفاع لا بأس به مع ان الحفريات لم تصل الى اساسات السور . تبدو في منتصف مدمـــاك السور من الناحية العليا — فوهتا فجوتين واسعتين تنحدر قصبتاهما الى عمق احد عشر مترا تقريبا ، ويعتقد ان هاتين الفجوتين انشئتا في الاصل لغرض عمراني لم تتضح ماهيته بعد : ويعتبر هذا الجدار من اضخم ما انشيء في الاردن خلال العصور القديمة من اصناف الجدران التي بنيت اسوارا للمدن : والى الشرق من التل كشف عن بعض المدافن التي نحتت في الصخر وتعود الى العصر الحديدي الاخير اي حوالي القرن السابع قبل الميلاد ، ولكن محتوياتها كلها سرقت منذ عهد بعيد :

في هذا الموضع تم عام ١٨٦٨ اكتشاف النصب المشهور الذي تركـه الملك ميشع ، فقد عثر عليه اهل القرية ووصلت انباؤه الى المسيو كلير مونجانو المستشرق المعروف الذي كان ملحقا بالقنصلية الفرنسية في القدس . وبعد ان شاهد جانو النصب اتفق مع الاشخاص الذين عثروا عليه ان يبتاعه منهم مقابل ستين جنيها ثم عاد الى القدس كي يدبر المبلغ بعد ان نقل الكتابة المنقوشة عليه . كان من حسن الحظ حقا ان جانو نسخ نص الكتابة ، لأنه ما كاد يبارح المكان حتى بدأ الخصام بين الاهلين حول اقتسام النقود ، وعمد بعض الاشخاص الذين ظنوا انهم سيحرمون مما كانوا يحسبونه حقا شرعيا لهم — الى اشعال النار تحت النصب خلسة ، وبعد ان اشتدت حرارة الحجر صبوا ماء عليه . ولما كان الحجر من نوع البازلت الناري القاسي ، فانه تحطم وتناثرت اجزاؤه حتى ان بعضها ضاع نهائياً . وعندما عاد المستشرق لم يكن له الخيار فجمع ما امكن جمعه من الاجزاء المتناثرة وحملها معه الى القدس ومنها الى فرنسا ، حيث يمكن الآن مشاهدة ذلك النصب بعد ان اعيد تجبيره في متحف اللوفر بباريس .

بعد ان يغادر المسافر ذيبان ، فانه سرعانما يصل الى نهر ارنون (يدعى حاليا وادي الموجب) . ان انحدار الوادي من الجانبين على قدر عظيم من الوعورة والالتواء ، وطالمـا وقف السياح على كتفه معجبين مندهشين . على انه يوجد خـط سيارات منتظم بين عمان والكرك فتقطع السيارات هذا الوادي السحيق يوميا دون اية مصاعب اللهم الا في الايام التي تفيض فيه مياه النهر اويحدث انهيار في احد جوانب الطريق نتيجة للامطار . ان فوهة الوادي السحيقة تبعث في النفس تأثيرا عميقا ، ففي هذه النقطـة يبلغ عرض الوادي عند الكتفين حوالي اربعة كيلو مترات بينما يبلغ عمقه حوالي ٤٠٠ متر .

وعلى بعد بضعة كيلومترات شرقي الطريق(١) يوجد موقع صغير يدعى (عراعر) وهو الموقع المذكور في التورة باسم (عروعير) . وعلى مقربة من النقطة التي تمر فيها الطريق فوق الجدول ، توجد بقايا جسر روماني . وبعد ان يقطع المسافر ١٥ كيلومترا بعد الخروج من الوادي فانه يصل الى قرية (القصر) حيث توجد خرائب هيكل نبطي صغير . لقد ادخل اهل القرية بعض حجارة الهيكل المنحوتة ضمن جدران منازلهم ، ويتبين من هذه الحجارة انها تماثل حجارة خربة (التنور) في وادي الحسا وتعود الى نفس الفترة الزمنية . لم تجر قـط اية حفريات في الهيكل ، وترى داخله كومـة من الحجارة المتراكـة لا يستبعد ان تخفي تحتها

(١) تقع الطريق الجديدة مع الجسر الذي تمر عليه ، شرقي هذا الموقع .

حجارة مزخرفة اخرى . والى الشمال الشرقي تقع (بالوعة) رغم انها لاتبدو لعيان المسافر على الطريق . وقد عثر على نصب آخر في (بالوعة) قبل عدة سنوات (١) . اما قرية (الربة) فتقع على بعد خمسة كيلومترات الى الجنوب ، وربما كانت هذه القرية هي (ربة موآب) المذكورة في التوراة و (اريوبوليس) الرومانية . لم يبق من امجاد هذا الموقع الغابر سوى بعض الاعمدة المطلة برؤوسها من بين الانقاض والاكواخ ، ولا شك ان هذه الاعمدة كانت جزءاً من واجهة احد الهياكل :

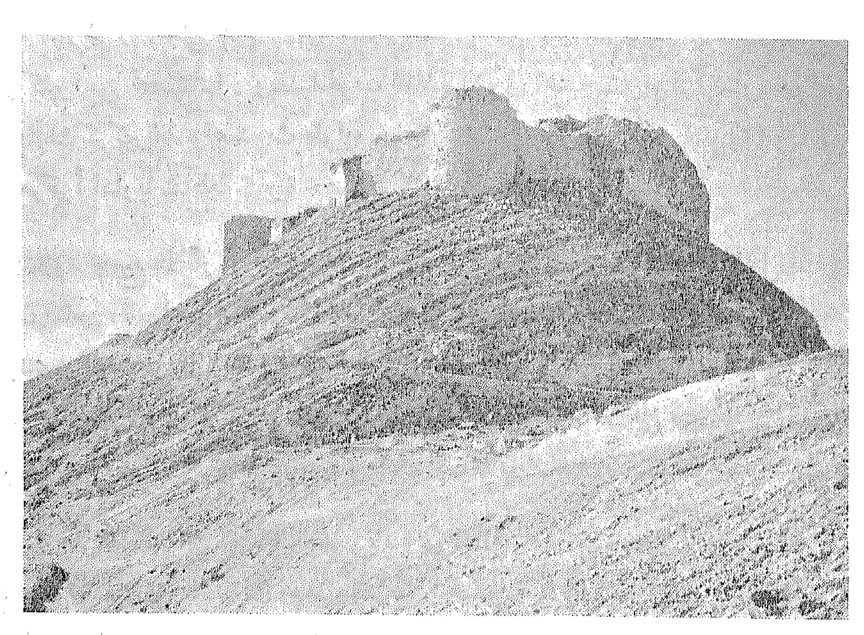
الكرك :

لا يرى المسافر على الطريق مواقع اخرى تثير الاهتمام حتى يصل الى بلدة الكرك ، التي تقع على قمة تلة تكاد تكون معزولة ، وتشرف على مناظر رائعة من جميع الجهات ، خصوصاً جهة البحر الميت . ولا بد ان موقعا منيعاً كهذا كان مأهولا بالسكان منذ اقدم العصور رغم انه لا توجد أدلّة قاطعة على ذلك الا منذ العصر الحديدي حوالي ١٢٠٠ ق.م. وتطلق التوراة على الكرك اسماء مختلفة – كير حارسه ، كير حرس ، كير موآب – ولا شك انها كانت احدى المدن الرئيسية في مملكة موآب بل ربما كانت عاصمة للمملكة في وقت من الاوقات . وتذكرها التوراة بصورة رئيسية في سفر الملوك الثاني الاصحاح الثالث ، عندما كان ميشع ملكا على موآب ويهورام ملكا على اسرائيل ويهوشافاط ملكا على يهوذا حوالي سنة ٨٥٠ ق.م . اما اكثر ما جاءت به التوراة من ذكر الكرك فلعنات كان يوجهها النبي اشعيا للمدينة . ولا نعرف شيئاً كثيراً عن تاريخها عدا ما جاء في التوراة ، اما في عهد البيزنطيين فقد كانت مركزاً لرئيس اساقفة ، وكانت تضم كنيسة يوقرها الناس كثيراً هي (كنيسة الناصرة) .

بلغت الكرك اعظم فترة في تاريخها زمن الصليبيين عندما اطلق عليها اسم (كرك موآب) او (جوهرة الصحراء) وكانت عاصمة لامارة الاردن الخارجية . اما تحصيناتها فقد بناها (بايم) امير الكرك والشوبك عام ١١٣٦ . واشهر الامراء الذين حكموها – او اكثرهم شقاوة – هو رينودي شاتيلون الذي قتله صلاح الدين بعد معركة حطين يوم ٣ تموز ١١٨٧ بسبب اعمال الغدر التي قام بها . وفي ذلك العام انتقلت الكرك الى ايدي المسلمين . وسنة ١٢٦٣ قام بيبرس حاكم مصر بهدم الكنيسة . ومنذ ذلك الحين اختفت المدينة من

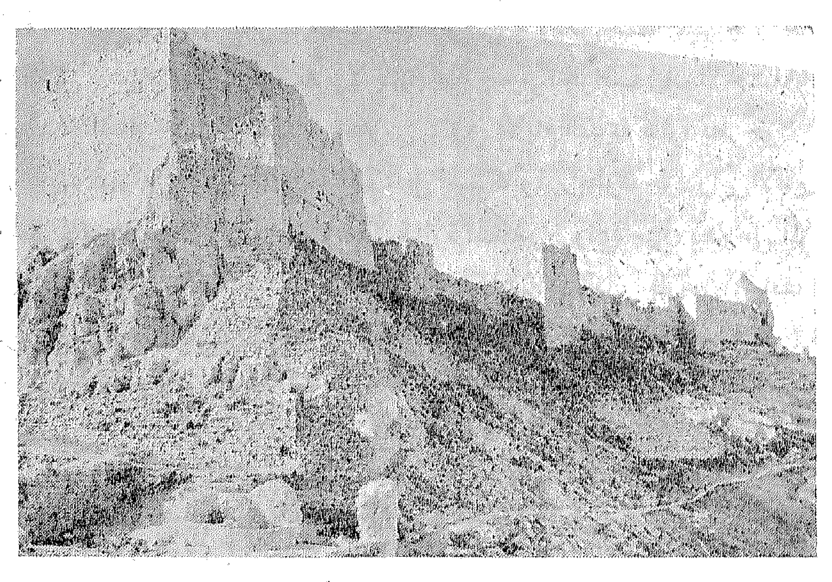
---

(١) نصب (بالوعة) معروض حاليا في مدخل متحف الآثار بعمان .



قلعة الشوبك (مونتريال) : كما تبدو للناظر اليها من اسفل الوادي عند قرية (الجايا) التي أنشأها في القديم اللاجئون الى القلعة .

« رسالة المعلم »



القلعــة الصليبية في الكرك

واجهة التاريخ (١) حتى عام ١٨٤٠ عندما استولى عليها ابراهيم باشا خلال حروبه في سوريا ودمر كثيراً من تحصيناتها . وبعد الحرب العالمية الاولى اصبحت مركزاً ادارياً تحت ادارة المستر اليك كركبرايد واصدرت طوابع خاصة بهـا في فترة من الفترات (٢) وما تزال حتى اليوم مركزاً ادارياً لمقاطعة كبيرة خصبة .

تعود جميع الاثار الباقية في الكرك الى عهد الصليبيين وما بعده . والدليل المادي الوحيد على ان الناس اقاموا فيها خلال العصور الاولى - عدا بعض العاديات الصغيرة العائدة للعصر الحديدي والتي عثر عليها خلال شق الطريق - هو النصف الاخير لاحد الاسود وقد نحت على لوحة حجر من البازلت وتمثال لانسـان يمثل النصف الاعلى من الجسم ولكن بدون رأس وهو يعود الى عصر الانباط ، وهاتان القطعتان ادمجتا في جدران ابنية انشئت فيمابعد .

لم يكن للمدينة في المخطط الصليبي سوى ثلاثة منافذ تحت سطح الارض ، ويمكن رؤية احد هذه المنافذ حتى الآن الى جانب الطريق الحـالية ، قبل ان تمر في فجوة بين الاسوار لدخول البلدة . والقلعة هي اهم ما يلفت النظر : وقد انشئت على نمط الابنية الصليبية العادية بأروقتها المعتمة ذات العقود الحجرية حيث لايدخل الضوء الا من فتحات السهـام وحيث تؤدي قناطر ضخمة الى حجرات معتمة اخرى . وتقتصر محاولة تبديد الجو الكئيب القـائم على غرفة مستديرة صغيرة حيث يوجد عدد من الفتحات حول محور القبة . وكـان يتصل بالمعاقل في الاصل من جهة الغرب مضيق من الارض ، ولكن خندقاً عميقاً جافا جرى شقه خلال المضيق فاصبح موقع القلعة معزولا بالمرة من جميع الجوانب . ان الانحـدار السحيق الذي يلي هذه المعاقل يبعث الرعب في النفوس ، وفي الايام القديمة كانوا يطرحون الاسرى غير المرغوب فيهم من فوق ليلاقوا حتفهم ، بل انهم كانوا يربطون حول راس الاسير صندوقا خشبياً حتى لايصاب بالاغماء قبل وصوله الى قرارة المنحدر . واي جمال يبدو على الموقع يعود كليا الى الدمار الذي اصابه ، ذلك لان الصليبيين - رغم انهم كانوا بارعين في انشاء المعاقل العسكرية ، لم يكونوا يضيعون وقتا على التجميل والزخرفة ، حتى لو كانوا يميلون اليهما .

---

(١) الحقيقة ان الكرك كانت على قدر عظيم من الأزدهار في عهد المماليك وموسوعاتنا العربية مملوءة باخبارها قبل عهد ابراهيم باشا .

(٢) يشير المؤلف هنا الى فترة الحكومات المحلية التي سادت في شرقي الاردن بين انتهاء الحكم الفيصلي (تموز ١٩٢٠) وانشاء الامارة على يد الامير عبد الله بن الحسين (آذار ١٩٢١) وكـان كركبرايد ضابط الارتباط البريطاني في الكرك خلال تلك الفترة (راجع كتاب : تاريخ الاردن في القرن العشرين) .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

تسير الطريق من الكرك باتجــاه الجنوب عبر هضبة مرتفعة لاتتجدد المشــاهد فيها . وتنتشر خرائب القرى القديمة في هذه المنطقة التي تعتبر ارضها غنية بانتاج الحبوب . واول قرية عامره تمر بها هي (مؤتة) التي حدث فيها الصدام الاول بين قوات الأسلام والبيزنطيين عام ٦٣٢ ب.م. حيث هزم العرب وقتل قادتهم . وقد دفن اولئك القادة في (المزار) وهي القرية التي تلي مؤتة جنوبا .وفي المزار جامع كبير جداً بني فوق ضريح جعفر بن ابي طالب. وكان هنالك في الاصل جامع قديم من المحتمل انه يعود الى القرن الثاني عشر ، ولكن بنــاء ذلك الجامع هدم قبل خمس وعشرين سنة ، واقيم الجامع الحالي في موضعه (١).ويمر المسافر بقريتين او ثلاث قبل ان يصل الى كتف وادي الحسا . ولكن لايوجد في اية قرية من هذه القرى ما يثير الاهتمام . والى الشرق من الطريق الجديدة على بعد كيلو مترين او ثلاث كيلو مترات توجد قرية (ذات راس) وفيها هيكل صغير غير متهدم ربما يعود الى القرن الثــاني او الثالث بعد الميلاد . انه يقوم الى جــانب الطريق القديمة ،وفي القرية التي تقع خلفه يمكن مشاهدة بعض الاعمدة وبقايا اسوار قديمة .

خربة التنـور

يستطيع المرء ان يلاحظ تغيرا في مناظر الطبيعة اذا ما مد بصره جنوباً في الموضع الذي تبدأ فيه الطريق انحدارها الى وادي الحسا . هنا تختفي مناظر الهضبة الواسعة والتلال المستديرة الملساء التي تبرز منها ، وبدلا من هذا تبدو للعيان عدة اودية صغيرة عميقة ، وتتخذ قمم التلال اشكالا وعرة غير مستوية ، يتمثل فيها انتقــال تكوين الصخور من النوع الجيري الى النوع الرملي . ويبدو منظر الوادي باتجاه الغرب مهيبا بالغ الروعة . بينما يرتفع في منتصفه تل عال منعزل توجد على قمته بقايا هيكل نبطي يدعى اليوم (خربة التنور) . ينساب جدول الماء على مدار السنة وترصّع جنبات مجراه شجيرات الدفلى ،وقد أنشيء جسر في منتصف الوادي فوق مجرى الجدول . وبعد ان يقطع المسافر هذا الجسر فانه لايلبث ان يبلغ اسفل التل الذي تقوم على قمته خربة التنور . ان ارتفاع التل ووعورته تسبب لمن يريد بلوغ القمة شيئا من العناء . اما الهيكل فيعود الى القرنين الاول ق.م. والاول ب.م. وهو في الواقع اول هيكل نبطي تجري فيه اعمال الحفريات . تنبسط امامه ساحة خارجية مبلطة يقوم في زاويتها الشمالية الشرقية مذبح كبير ، والى الشمال والجنوب عدد من الحجرات الصغيرة يعتقد بانها كانت منازل

(١) بني الجامع الجديد خلال الاعوام ١٩٣٠—١٩٣٤ (راجع العدد الخامس من رسالة الاردن —قرية مؤته وتاريخها)

لكهنة الهيكل . والى الغرب كانت تقوم واجهة جليلة تزينها الاعمدة المستديرة والمربعة وفي وسطها معبر تؤدي اليه بضع درجات . وفوق هذه الواجهة كان يقوم تمثال نصفي ضخم لآلهة منتقبة (ذات حجاب) يرتفع فوقها قوس كبير يبرز قرن من كل فتحة من فتحاته ، وكان على الحجر الاوسط في القوس نسر مبسوط الجناحين . وقد وجدت لوحات تماثيل اخرى حوالي الهيكل ومن المحتمل انها كانت منصوبة في الحائط بين الاعمدة.

توجد ساحة اخرى صغيرة ضمن المدخل ، وفي منتصف هذه الساحة اقيم المذبح والمعبد الرئيسي . ويتألف هذا المذبح من منبر مربع يبلغ ارتفاعه حوالي مترين وعرض كل ضلع من اضلاعه حوالي ثلاثة امتار . وكانت تزين واجهته اعمدة ذات اضلاع مربعة يرتفع فوقها عقد مستقيم . وفي المحراب الذي تألف فى الواجهة نصبت تماثيل للآلهة ، ولكن لم يعثر الا على واحد منها في موضعه وهو تمثال رجل ذي لحية يقف عجل صغير عند قدميه ، وربما كان هذا التمثال للآله هدد . ولا بد ان تمثال زوجته كان يقف الى جانبه ولكن لم يعثر على اي أثر له . يزدان النصف العلوي من كل عمود بلوحات رسوم تبدو فيها اشكال نباتات على مراحل مختلفة ، ورؤوس اناث نحتت في الحجر ، وهذه الرسوم تمثل رأس آلهة ويغطي كل رأس رداء يختلف عن غطاء الرأس الآخر فتجد على احدها سنابل قمح وسمكات على آخر . ويبدو انها الآلهة (عطار غاطس) وربما كان الرسمان شكلا من اشكال آلهة الانباط الرئيسية (ذو الشرى) و (اللات) . توجد الى جانب المنبر بضع درجات تؤدي الى سطح المعبد حيث كانوا يقدمون الذبائح كما يعتقد . ولقد كان الهيكل كله مزيناً بالرسوم والمنحوتات الرائعة واكثرها موجود الان في متحف الآثار بعمان. ولا بد ان رفع هذه الكتل الضخمة الى قمة التل قد استغرق جهداً هائلا خاصة تلك الحجارة اللازمة لصنع تمثال ضخم كتمثال الآلهة ذات الحمار . ولقد كلّفت عملية نقل التماثيل من قمة التلة الى اسفلها كثيراً من الجهد والمشقة.

تقع خربة التنور عند ملتقى وادي الحسا بوادي (اللعبان) المتفرع عنه . وقد ذكر وادي اللعبان بالاسم في احدى الكتابات التي عثر عليها في الهيكل . تقطع الطريق منتصف وادي اللعبان الذي يبقى جافاً معظم ايام السنة ، وبعد ان تسير مصّعدة بمسافة كيلو مترين تقريباً فان المرء يمكن ان يشاهد مرتفعاً صغيراً من الخرائب الى الجهة الشرقية . هذه الخرائب هي بقايا هيكل آخر يماثل هيكل التنور في مخططه وتاريخه مماثلة كاملة . لم تجر حفريات بعد في هذه الخرائب ، ومن سوء الحظ انه توجد عدة قبور في نفس المكان الذي يقوم عليه مذبح الهيكل .

تستطيع الآن ان تخرج من الوادي مصعداً في طريق طويلة تؤدي في النهاية الى سهل صغير وتتفرع عن هذه الطريق في جانبها الابعد – درب تتجه شرقاً الى جرف الدراويش ومغان . وفي هذا الطرف من السهل خاض الكولونيل لورانس معركةالطفيلة المشهورة وهي المعركةالمركّزة الوحيدةفي حملاته الحربية كلها(١) وسرعان ما تنحدر الطريق الى واد آخر ، وبعد عدد من الانحناءات والمنعطفات تبدو بلدة الطفيلة في جانب الوادي المقابل تحيط بها اشجار الزيتون . وموقع الطفيلة من اجمل مواقع البلدان في الاردن حيث يستطيع المرء ان يستمتع بمنظر أخاذ اذا هو مد بصره نحو الشمال الغربي مع انحدار الوادي الى الطرف الجنوبي للبحر الميت . وفيما عدا هذا لا يوجد في البلدة ما يثير الاهتمام بل ان الطريق تمـــر في الحي الجانبي منها وسرعان ما تترك الوادي خلفها .

تستلفت روعة المشاهد انظار المسافر من هنا حتى وادي موسى . ومن الضروري ان يغتنم المرء وقفة على الطريق فوق قرية (ضانا) كي يتأمل مشهداً جميلا يأخذ بالالباب عبر وادي عربة الى الغرب ، بينما تنبسط سطوح المنازل في قرية (ضانا) الصغيرة مباشرة تحت امتداد البصر . وبالاضافة الى هذا توجد في هذه النقطة صخرة منخفضة يمكـــن ان ترى فوقها عددا من الادوات الصوانية التي تعـــود الى العصر (المكروليثي) واواخـــر العصر (الباليوليثي) . على انه من المستبعد ان نتصور ان الانسان الاول اختار هـــذا الموقع بسبب جمال المناظر فيه .

وعلى بعد بضعة كيلو مترات اخرى يمكن مشاهدة قطعة لا بأس بهـــا من الطريق الرومانية العظيمة التي انشأها (تراجان) وهي تمتد بجانب الطريق الحديثة . انها جـــزء من الطريق المرصوفة الكبيرة التي كانت تمتد من دمشق الى العقبة .

بعد هذا بمسافة قصيرة تبدو الشوبك على حين غـــرة في الوادي الى الغرب ، وترى جاثمة على رأس تل منعزل تحيط به الشعاب العميقة ومنظرها رائع جداً على مبعده ، ولكنها غير ذلك على القرب . وكانت الشوبك قلعة من قـــلاع الصليبيين المهمة دعيت (مونتريال) انشأها بلدوين الاول عام ١١١٥ كي يسيطر على الطريق الممتدة من دمشق الى مصر . وقد

---

(١) قاد الامير زيد بن الحسين معركة الطفيلة بمعونة عدد من الضباط العرب البواسل وابلى فيها اهـــل الطفيلة وعيمة والحويطات بلاء حسناً . لقد حضر لورنس المعركة ولكنه اختص نفسه بالفضل فتناقل الغربيون روايته مصدقين . (راجع كتاب لورنس والعرب من تأليف مترجم هذا الكتاب) .

استولى عليها صلاح الدين عام ١١٨٩ . وجدد المماليك بناءها في القرن الرابع عشر ، ونحن نراها اليوم في الشكل الذي صارت اليه بعد تجديد المماليك . ان الاسوار والبوابه الرئيسية ما تزال كاملة البناء ولكن لا يوجد داخل الاسوار الا منازل القرية الحديثة . والأثر التاريخي الوحيد هو تلك البئر العميقة التي حفرت في باطن الصخر على عمق ٣٧٥ درجة تؤدي الى المياه المتفجرة على ذلك العمق . والسير على الدرج الاملس مع انحدار القصبة ينطوي على مخاطرة كبيرة ، كما اننا لا نعلم كيف تيسّر للحفارين القدماء العلم بوجود الماء في اعماق تلك النقطة . (١)

بعد المرور بقرية (نجل) تمر الطريق في منطقة تكثر فيها قرامي الاشجار ، وهي كل ما تبقى من غابة كانت كثيفة يوماً ما . لقد قطع الاتراك اشجار هذه الغابة خلال الحرب العالمية الاولى كي يوفروا الوقود لقاطرات سكة الحديد . وما تزال التسوية التي انشأوها لمد الخط الفرعي لسكة الحديد من اجل نقل الحطب — قائمة حتى اليوم . تسير الطريق بعد هذا مع قمم التلال التي ترتفع هنا الى ٥٥٠٠ قدم فوق سطح البحر وهي اكثر المواقع ارتفاعا في الاردن(٢) وبعد هذا تأخذ الطريق بالانحدار التدريجي حتى تلتقي مع طريق معان — وادي موسى . وسرعان ما يبلغ المسافر نبع (عين موسى) التي تعتبر بداية الوصول الى البتراء .

---

(١) هناك مجموعة غنية من الخطوط العربية التي نقشها المماليك على الجدران عند تجديدهم لها .

(٢) الواقع ان جبل رم هو اعلى جبل في المملكة اذ يبلغ ارتفاعه ١٧٥٤ متراً اي ٥٨٤٧ قدماً فوق سطح البحر .

الفصل السادس

البتراء : بركهاردت يكتشفها مجدداً سنة ١٨١٢ – فترة ما قبل التاريخ – اقامة الانباط فيها – فخار الانباط ، كتاباتهم ، لغتهم ، آلهتهم وملوكهم – هجوم اليونانيين على البتراء – الاحتلال الروماني سنة ١٠٦ ب.م. – الآثار .

ان العالم المتمدين بأجمعه لا يجهل اسم هذا الموقع القديم الذي لا مثيل له ، كما انه يحمل فكرة ما عن طبيعته ، ولكن بالرغم عن وسائل المواصلات الحديثة ، فان البتراء ما تزال على شيء من البعد وما يزال الوصول اليها عسيراً نوعاً ما . على ان السنوات الاخيرة – والحق يقال – شهدت جماعة من الزائرين يسافرون بالطائرات من بيروت الى معان ثم يعودون في اليوم التالي الى بيروت. ولكن وسيلة السفر هذه لا يستطيع إتباعها الا ذوو اليسار وهي كذلك ابتداع حديث جداً . وفي عام ١٩٣٢ عندما زرت البتراء لاول مرة مع جماعة من الزملاء العاملين في الآثار عند انتهاء موسم الحفريات قرب مدينة غزة في فلسطين – لم تكن هذه الوسائل متوافرة يومذاك ، ولم يكن في مقدورنا إتباعها لو كانت متوافرة . وبدلا من الطائرات ، فاننا ركبنا سيارة مما يصلح للاسفار البعيدة (Station Wagon) وسرنا بها – كنا ستة وشابين من العمال البدو – من غزة مروراً بالقدس وعمان ، عبر دروب وعرة غير ممهدة عدا مسافة قصيرة قرب القدس(١). ولكن الرحلة كانت نوعاً من المغامرة تصل غايتها

---

(١) هكذا كانت الحال في ذلك العهد . اما اليوم فالوصول الى البتراء اصبح في غاية السهولة لمن يرغب في زيارتها ومشاهدة آثارها ، فالمسافر يستطيع ان يقطع المسافة بالسيارة من عمان الى معان ثم الى قرية وادي موسى – عبر طريق معبدة حديثة – في ثلاث ساعات فقط ، بل ان السيارة تستطيع الوصول على الطريق المعبدة حتى مدخل السيق نفسه اذا رغب الزائر ان يأخذ فرس الركوب من هناك . وفي ١٩٦١ دخل الدكتور عوني الدجاني الى مدينة البتراء عبر السيق الضيق نفسه بسيارة (لاند روفر) ودخل مرة ثانية بسيارة من طراز (اوستن) ولكن مدير الاثار لا يميل الى تشجيع العبور من السيق بالسيارات ، لان ذلك يفقد الزيارة كثيراً من روعتها وسحرها ، كما ان الزائر لا يتمكن من مشاهدة الجبل المرتفع الى جانبيه ارتفاعاً مدهشاً .

وقد قامت دائرة السياحة ببناء استراحة واسعة قبل مدخل السيق ، حيث يقيم موظفون مختصون وادلاء من دائرتي السياحة والآثار لتسهيل الزيارة واتخاذ الترتيبات المناسبة . ومن مشاريع هاتين الدائرتين للمستقبل : انشاء عربات على النمط الروماني او النبطي تجرها الخيول للطواف بالزائرين في معالم الآثار .

القصوى في البتراء ، حيث لم يشعر اي واحد منا انه خدع او خذل . . لان البتراء تشتمــل حقاً على كل ما تكتبه عنها وكالات السفر — فيما عدا اللون الاحمر الوردي—فالحجر الرملي في أغلبه ذو لون أحمر غامق مائل الى الصفرة ، تتخلله في بعض المواضع عروق رائعة من الالوان الصفراء والرمادية والبيضاء (١) .

اما الموقع الوحيد الذي نستطيع ان ندعوه (احمر وردي) فهو الخزنة ، وانا لا اعرف على الاطلاق منظراً يساوي في روعته المسّرة الاولى التي تشاهد فيها هذه الواجهةالضخمة المنحوتة في الصخر وهي تتوهج وتتألق في ضوء الشمس الساطع — بعد ان يخرج المرء من ظلمة الشق العظيم الذي يؤدي الى المدينة . ولقــد زرت البتراء زيارات عديدة حتى الآن ولكن روعة الرؤية الاولى التي تأخذ باللب ، ستبقى دائماً ابداً ماثلة في ذهني . أما فيما يتعلق بالخزنة فان كثرة التردد عليها لاتقلل من تأثيرها ، لان المرء في كــل مرة يزور فيها البتراء يجد نفسه مسوقاً الى التوقف عن المسير والتفرس فيها مندهشاً ، كأنما يراها للمرة الاولى ، فتبهره خطوط النحت بجدّتها وصفائها كما تبهره روعة الصخر المتوهج .

على ان البتراء في واقع الامر تبدأ في وادي موسى ، وهــو احد المواقــع التقليدية التي يعتقد بأن موسى ضرب فيها الصخرة فتفجر منه الماء ، وكذلك في قرية (الجي) التي تقوم منازلها على انقاض احدى الضواحي المجاورة لمدينة البتراء.وتتزود القرية من مياه النبع لغزيرة ، ولكن هذه المياه لا تصل الآن في جريانها الى البتراء . ومن المحتمل ان جانباً كبيراً من اعمال التجارة والاعمال الاخرى كان يتم هنا ، بدلا من ان تنحدر قوافل الجمال المتعددة عبر الشق الضيق الوعر الى مدينةالبتراء نفسها . . ان الذي يقف على الجبال المحيطة لا يستطيع مشاهدةالمدينة ، ولكن منظر المنطقة من عند عين الماء في فصل الربيع رائع ومدهش ، فالجبال ذات الحجر الجيري والقمم المنبسطة ، تختفي على حين غرة ، لتحل محلها لوحــة فسيحة تنتظم فيها قمم الحجر الرملي الشعثاء بألوانها البيضاء والبنية والحمراء ، بينما تبدو سيناء بعيداً في ضبابية الافق الازرق. وانك لترى الاشجار بين الصــخور في المنحدرات ، حيثما تستطيع ان تعثر على موضع لها وماء كافياً يحفظ لها الحياة . وما اشبه الانطبــاع العام الذي يتركه هذا المنظر في النفس بالتأثير الذي تبعثه لوحة فنان بارع رسم عليها منظراً من المناظر الطبيعية في بلاد الصين .

---

(١) قال الشاعر العربي : من اصفر وأحمر وبني ألوانه تعشي عيون الجــن

لم يكن العالم الغربي يعرف شيئاً عن هذه المدينة الفريدة خلال الفترة التي تقضت بين فترة الحروب الصليبية حوالي سنة ١٢٠٠ ب.م.وبين سنة ١٨١٢ عندما قام رحالة انكليزي ـ سويسري شاب اسمه بركهاردت بالكشف عنها مجدداً .. كان هـذا الرحالة يطوف في اقطار الشرق الاوسط بتكاليف من جمعية انكليزية مهتمـة بالمعرفة ، وكان آنذاك يقـوم برحلته من القاهرة الى دمشق الشام ، وهي رحلة كانت محفوفة بالمخاطر حافلة بالمتاعب في ذلك الحين . وبينما كان يمضي ببطء في طريقـه عبرالاردن ، بدأ يسمع من دليله وزائريه حكايات عن آثارعجيبةغريبة مختفيةبعيداً بين الجبال.. انه يذكرها لأول مرة في دفتر يومياته بتاريخ ٢٢ آب اذ يقول : انه شديد الرغبة في زيارة وادي موسى وآثاره بعد ما سمـع الناس يتحـدثون عنها باعجاب بالغ . وكان يرغب في الذهاب رأساً من وادي موسى الى القاهرة دون ان يمر بالعقبة ، ولكن دليله أصّر على اتخاذ الطريق الابعد بسبب المخاطر التي تحف بالطريق الاخرى . وفيما يلي نبذة مما جاء في يومياته :

« ان الطريق من الشوبك الى العقبـة ، وهي لا بأس بها ، تقـع الى الشرق من وادي موسى . وحيث ان خروجي عنها بحجة مجرد الفضول لروٌية الوادي كان سيثير الشكوك في نفوس العزب (البدو) فانني عمدت الى الحيلة متظاهراً بانني كنت نـذرت بأن اذبح شاة على اسم هارون الذي كنت اعرف ان قبره يقوم على الطرف الابعد مـن الوادي . وقد قدرت ان هذه الخطة ستتيح لي مشاهدة الوادي في الطريق الى الضريح . ولم يعارض دليلي هذا الاقتراح ، خوفاً من ان تجلب عليه المعارضة سخط هارون » .

ومّر بركهاردت في طريقه بمضارب الفلاحين في (وعيرة) وهـو قصر من عهد الصليبيين قرب وادي موسى . وارشده هوٌلاء الى عين موسى حيـث حاولوا اقناعه بتقديم الذبيحة الى هارون عندها كما يفعل الحجاج الاخرون ، لان الضريح يبدو للعيان من هنا رغم انه بعيد جداً .

وكان من الطبيعي ان يرفض بركهاردت ذلك الاقتراح بعد ان اصبح قريباً من هدفه حتى هذا المدى . وأخيراً عندما بلغ قرية (الجي) وجد شخصاً ليمضي معـه دليلا الى ضريح هارون ، ولكي يحمل الشاة وقربة الماء الضرورية . وعندما بدأ ينحدر من القريـة كتب في دفتر يومياته « هنا تبدأ الاثار » ولكنه لم يتمكن من الوقوف عنـد الآثار وإمعان النظر فيها بسبب شكوك دليله . وعلى اية حال فانه شاهد الاضرحـة المربعة المتفرقة هناك

وضريح المسلة (Obelisk) قبل ان يعجله الدليل على المضي في طريقه عبر السيق الى البتراء :
واستطاع بركهاردت على نحو ما ان يلج الى داخل الخزنة ، لانـــه رسم في كتابه مخططاً معقولا جداً لها ، ولا بدّ ان قدرته على الاقناع كانت عظيمة ، لانه استطاع كذلك ان يرى الاضرحة التي نعرفها اليوم باسم (الجرة URN) والاضرحة الكورنثية ، حيث قطع الوادي منها الى منطقة الآثار والهيكل الروماني . ولكن يبدو ان فضوله أثار شكوك الدليل فاتهمـــه بانه يبحث عن الكنوز وهدده ببندقيته . ومهما يكن من شيء فان بركهاردت واصل سيره حتى وصل الى (البرّه) وهي تقع مباشرة الى الجنوب من ام البياره ، حيث يستطيع الواقف عندها ان يرى بوضوح الضريح القائم على قمة جبل هارون . وكانت الشمس قـــد غربت حينذاك . ولما كان قد انهكه التعب كما قال ، فانه اعتزم ان يقدم الضحية هناك . وبعد ان فعل هذا ، كان عليه ان يعود حالا الى قرية (الجي) في غلس الظلام . ولذلك تعذرت عليـــه مشاهدة أية آثار اخرى . ولكنه يعلق مستنتجاً « . . . يبدو من المحتمل جداً أن آثار وادي موسى هي بالذات آثار البتراء القديمة ، ومما تجدر ملاحظته ان يوسيبيوس يقول ان ضريح هارون يقوم قريباً من البتراء » . ويبدو ان احد الاسباب التي جعلت الاهلين لا يرغبون ان يشاهد الاجانب هذا الموقع ـــ انهم كانوا يخشون قدوم هؤلاء الاجانب باعداد كبيرة ، مما قد ينتج عنه التدخل في وسائل معيشتهم ومصادر رزقهم ، التي يبدو ايضاً انها لم تكن مشروعة دائماً . وكان هذا هو ما حدث بالضبط بعد ان عاد بركهاردت الى بلاده وأنبأ العالم عـــن اكتشافه مع انه من المشكوك فيه ان يكون الزوار قد تدخلوا كثيراً في نشاطات القرويين . اما في هذه الايام فان القرويين يفعلون كل ما في وسعهم لتشجيع الاجانب على المجيء ، لأن جانباً كبيراً من موارد رزقهم يعتمد على المواسم السياحية الطيبة .

والواقع ان زيارة البتراء كانت حتى عام ١٩٢٥ تكـــاد تكون مقصورة على الرحالة الاثرياء او اولئك الذين لا يهابون المخاطر ، لان السكان المحليين في تلك المنطقة ظلوا على موقفهم غير الودي ردحاً طويلا من الزمن ، بل انهم قاموا بتقتيل أفراد أول مخفر للشرطة أنشأه الجيش العربي فيها لحماية الزائرين . وانك لترى الفرق واضحاً في ان الآنسة ديانا كركبرايد استطاعت ان تقضي هنـــاك عام ١٩٥٦ مدة ستـــة أشهر بمفردها مسؤولة عن الحفريات ، دون ان تتعرض لأية مصاعب ، اللهم سوى احتجاجات متفرقة من شخص او آخر يعتقد ان له الحق في ان يعمل في الحفريات ويريد ان يعرف لماذا لا يتاح له مجال العمل على ان السهولة النسبية وحالة الأمن اللتين تتوافران للزائرين في أيامنا هذه ـــ لا تُقللان أبداً من أهمية البتراء ولا تجعلان مشاهدتها أقل إستثارة للنفوس ، فالبتراء فريدة حقاً ولا مثيل لها .

تاريخ البتراء القديم :

ما يزال الغموض يكتنف تاريخ البتراء كما كان هذا الغموض نفسه يكتنف موقعها في العصور السالفة . ولكن بفضل الحفريات الحديثة التي اجرتها الآنسة كركبرايد ، فاننا صرنا الآن نعرف شيئاً عن قصتها في أوائل عهدها . فلقد تم العثور على ادوات مما كان يستعمله انسان العصر الباليوليثي ، وهذه الادوات عبارة عن المعاول اليدوية المعتادة وقد وجدت على منحدرات بعض الجبال العالية. ولكن الآنسة كركبرايد عثرت في واد بعيد يعسر الوصول اليه في قلب البتراء ، على كهف صخري يرجع عهده الى الفترة الباليوليثية القصوى ، اي حوالي عشرة الآف سنة ق . م . حيث يبدو ان انسان ما قبل التاريخ كان يعيش في هذا المأوى جانباً من السنة على الاقل خلال فترة طويلة من الزمن. ولقد عثر في هذا الكهف على ادوات صوانية وغيرها مما كان يستعمل في ذلك العهد . وقد وجدت أيضاً سكنة صغيرة (Settlement) تعود الى العصر النيوليثي على الطريق المحاذيـــة (البارد) وهي ضاحية شمالية للبتراء . وفي هذه السكنة عثر على رؤوس سهام ونصال وادوات اخرى مـــن الصوان وبعضها يماثل الادوات التي عثر عليها في طبقات اريحا القديمة . حقاً لقد عثر فيما مضى عـــلى ادوات صوانية ملقاة على الأرض في البتراء ، ولكن كانت هذه هي المـــرة الاولى التي تبين فيها وجود ضياع وأماكن إقامة تعود الى ذلك العصر .

ولم يتم العثور حتى الآن على دلائل تشير الى الحياة في الفترتين التاليتين : العصـــر الخالكوليثي والعصر البرونزي ، لذلك لا نعرف شيئاً عن تاريخ البتراء خلالهما حتى العصر الحديدي. ويوجد سبب قوي للاعتقاد ان البتراء هي (سلع) المذكورة في التوراة . اضف الى هذا ان الاسم العبري والاسم اليوناني (بتراء) يدلان على نفس المعنى « الصخر » مع ان كلمة سلع في اللغة العربية تعني بالتدقيق الشق في الصخر ، وهذا الاسم اكثر تطابقاً مع طبيعة البتراء وموقعها . ونحن نفهم من اقوال التوراة ان سلع تقـــع في مملكة أدوم القديمة التي كان يسمى سكانها الاصليون (حوريون) او سكان الجبال ، وهم الذين طردهـــم الادوميون وحلوا محلهم ، حتى جاء الانباط فطردوا الادوميين بدورهم واستولوا عـــلى بلادهم . وتروي التوراة ان (امصيا) ملك يهوذا احترب مع الادوميين في معركة كبيرة والحـــق بهم الهزيمة وذبح عشرة الآف منهم على ارض المعركة (او عشر عائلات لأن الكلمة العبرية تعطي كلا المعنيين) وأخذ عشرة الآف آخريـــن (او عشر عائلات) الى

الصخرة (سالع) التي استولى عليها « وطرحهم عن رأس سالع فتكسروا أجمعين » (١) . وقد وجدت على قمة (ام البيارة) وهي أعلى القمم الضخمة بين جبال البتراء غربي الهيكل — بعض الدلائل الثبوتية على اقامة الانسان أثناء العصر الحديدي (حوالي القرن التاسع ق.م . ولكن يبدو ان البتراء كانت تستعمل كملجأ اكثر منها سكنة للاقامة الدائمة . ولا بد ان الاسرى قذف بهم من أعلى هذه القمة .

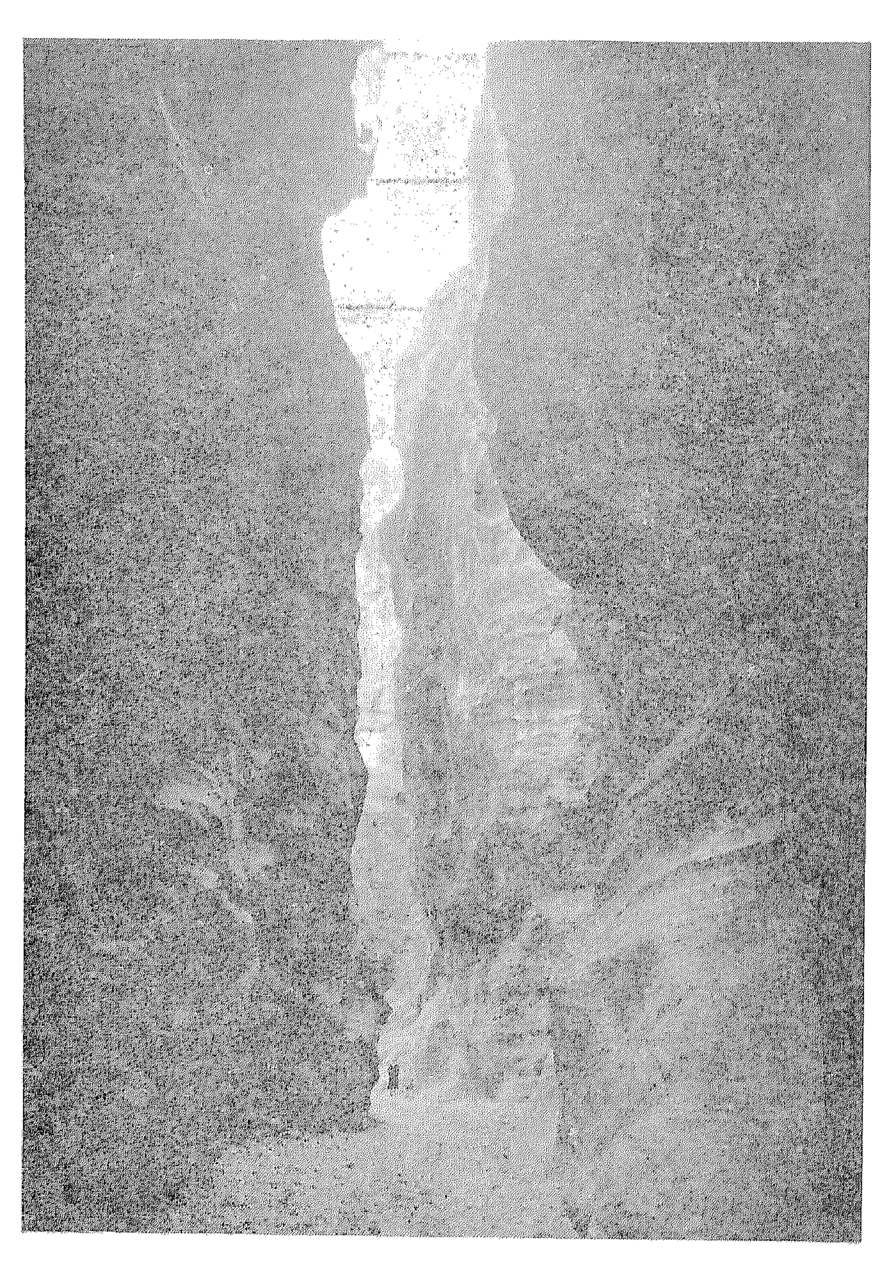
الانباط العرب:

وتجمع الروابط المتينة في التاريخ بين الانباط والبتراء ، ذلك لأن الأنباط هم أول من بدأ الاقامة فيها بصورة جدية . وهم الذين اخذوا يبتدعون نماذج خاصة بهم من فنون البناء والنحت وصنع الفخار وزخرفة الحجارة . وربما كانت صناعة الفخار اعظم انجازاتهم الباهرة ، رغم انها كانت صناعة شائعة بينهم وما يتضح من عدم تقديرهم لها تقديراً خاصاً . ذلك لأن فخارهم كان من الرقة ودقة الصنع بحيث لم يكن يقارنه في ذلك الا افضل انواع الخزف الصيني (البورسلين).لا بل ان فخار الانباط كان اكثر امتيازاً من البورسلين من بعض النواحي ، لأنه كان يطرح على الدولاب ويلف ، او يصقل املس فيما بعد ، بينما يصب البورسلين في القوالب . اضف الى هذا ان اكثر مصنوعاتهم الفخارية شيوعاً ، كانت الجفنة المفتوحه ، وهي اكثر اشكال الفخار صعوبة في الصنع على الدولاب حتى لو انها صنعت بقدر كاف من السماكة . وانك لترى الصفحة الداخلية لهذه الجفان مزدانة بنقوش بالغة الدقة ومدهونة بدهان اسود او بني غامق . كما ان طبيعة صناعاتهم ونماذجها كانت متناسقة متماثلة الى حد يستطاع معه التعرف بثقة تامة حتى على القطع الصغيرة من فخارهم حيثما وجد .

وينطبق هذا التناسق ايضاً على طريقتهم لزخرفة الحجارة وصقلها ، اذ كانوا يستعملون زميلاً ذا طرف واحد ويبدأون النحت على مقياس الدرجة ٤٥ من الزاوية ، فوق وجه الحجر او العمود او وجه الصخر او على اي شيء يريدون قطعه وتغيير شكله . ولا حاجة للقول ان أمثلة عديدة على هذا يمكن ان تشاهد في البتراء .

---

(١) اخبارالايام الثاني ٢٥ : ١٢



« مدخـل البتراء »

الذي تسميه العامـة (السيق) ، ولعله لفظ نبطي متوارث ، تحرف عن كلمة (الشق) ، في السبئية القديمة ، (ام النبطية) ، كما يؤكد الباحثون .

كتابة الانباط :

وكان للانباط ايضا حروفهم ولغتهم الخاصة بهم ، اما الحروف فتتشابه نوعاً ما مع الحروف العبرية لذلك العهد ، ولكن من الغريب انها متطاولة عمودياً وقد اعتاد الانباط ان يعلقوا بعض الحروف ببعضها الاخر ويكتبوها متلاصقة بسبب اشكالها المستطيلة ، وهذا ما يجعل قراءة كتاباتهم عسيرة جداً . اضف الى ذلك ان كتاباتهم ليست كثيرة لسوء الحظ ، فلم يكتشف منها سوى بعض الكتابات الغشيمة المنقوشة على الصخور . واطول كتاباتهم المعروفة وجدت على اوراق البردي النبطية في مغارة على شاطيء البحر الميت شرقي بيت لحم . ويمكن للمرء ان يشاهد كتابة نبطية طويلة واحدة في البتراء على ضريح التركمانية وعلى أيا حال فان الكتابة الكوفية ومن بعدها الكتابة العربية تعود في اصلها الى حروف الانباط ، اما اللغة فيبدو انها كانت احدى اللهجات الارامية التي تأثرت تأثراً قوياً باللغة العربية ، لذلك نرى ان معظم اسماء الاشخاص عندهم هي اسماء عربية .

آلهة الانباط :

وكان (ذو الشرى) و (اللات) هما الآلهة الكبرى عند الانباط . اما ذو الشرى فكانوا دائماً يجسّدونه على هيئة كتلة من الصخر او عمود بينما كانوا كثيراً ما يقرنون اللات بالينابيع والماء . وكلمة (دوشارا) نابعة من الكلمة العربية (ذو الشرى) . والشراه هي الجبال الواقعة قريباً من البتراء وهي ما تزال محتفظة بهذا الاسم حتى اليوم . اما في التوراة فيطلق عليها اسم (سعير) وهي نفس كلمة الشراه — وتصف التوراة (يهوه) بانه (أشرق من سعير) أي انه دوشارا نفسه . وكان يهوه يقيم في بيت من الحجر ، يدعى احياناً بيت أيل — بيت الله — وكانت هياكله الكبرى تقوم في الاماكن المرتفعه ، مثله مثل دوشارا .

ويبدو ان الانباط انفسهم كانوا في الاصل قبيلة عربية كبيرة ، احتلت الجزء الشمالي — الغربي من جزيرة العرب وهو الجزء الذي كانت تمر فيه القوافل المحملة بالبخور والبهارات قادمة من حضرموت في الجنوب . ومن المحتمل ان رجال هذه القبيلة كانوا في بادىء الامر يهاجمون القوافل وينهبونها ، ولكن بعد ان تمكنوا وأصبحوا اكثر قوة وبأساً ، فأنهم كما يبدو اخذوا يجبون من هذه القوافل نوعاً من الضريبة ضماناً لسلامتها وحمايتها .

ونرى ان اول مرة سجّل التاريخ فيها ذكراً للانباط كشعب من الشعوب ، ورود
ـمهم في قائمة اعداء اشور بانيبال ملك اشور في سنة ٦٤٧ ق . م . ولكن البتراء في ذلك
ـقت كانت ما تزال بأيدي الأدوميين الذين ظلوا يقيمون فيها بعد ذلك طوال قرن من الزمن
ـ الاقل . وليس بالمستطاع حتى الآن التثبت بصورة مقنعة من التاريخ الذي بدأوا فيـه
ـامتهم في البتراء . ولكن الكاتب الكلاسيكي ديودوروس الصقلي ، يذكر بعض المعلومات
ـن البتراء ، مستنداً في ذلك الى كاتب آخر قبله ، قد نضع كتابه حوالي السنة ٣١٠ ق . م ؟
، يدعوها باسم « الصخرة ... في غاية المناعة ولكنها بـدون اسوار » ويحتمل ان يشير
كاتب بهذا الى (ام البيارة) . ثم يمضي الى اعطاء معلومات طريفـة عن « العرب الذين
ـرفون باسم الانباط » . ومن جملة الاشياء التي يحدثنا عنها ان هؤلاء الانباط اتخذوا لهم
ـنّة « ان لا يزرعوا قمحاً ولا يغرسوا أشجاراً مثمرة ولا يشربوا خمراً ولا يبنوا بيتاً » .

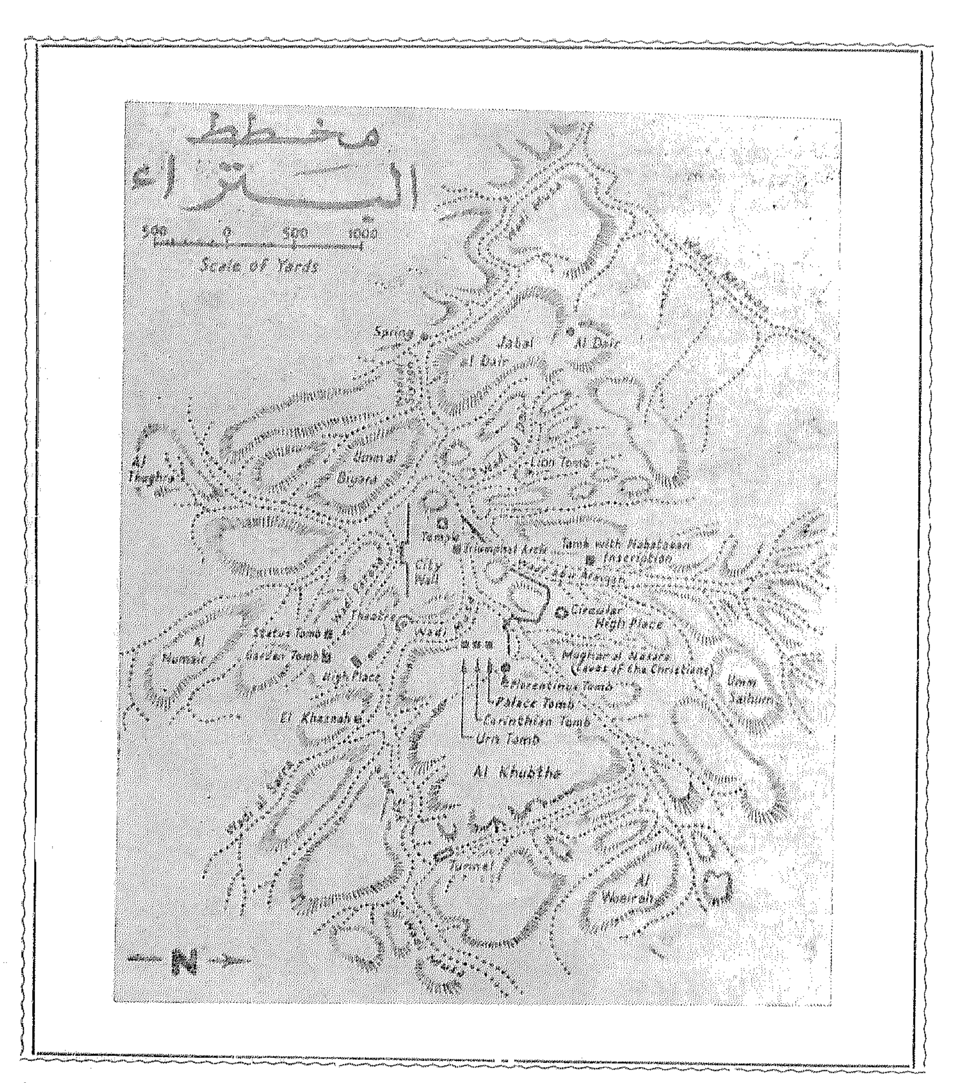
ويسجل لنا ديودوروس انباء الحملة العسكرية التي قادها انتيجونس حاكم سوريا
ـوناني ، لكي يخضع الانباط . وفي هذه الحملة تمكن انتيجونس من احتلال الصخرة ،
ـن جميع الشبان الانباط كانوا يحتفلون بمناسبة عظيمة في مكان غير بعيد . وقد قام اليونان
ـتل عدد كبير من الشيوخ الذين ظلوا في منازلهم وكذلك النساء والاطفال ، ثم تراجعـوا
ـسرعة بما غنموا من اللبان والمر وحوالي ٥٠٠ وزنة من الفضة . على ان الرجال الغـائبين لم
ـكونوا بعيدين جداً ، لان انباء الحملة الغازية بلغتهم خلال ساعة او ساعتين . لذا فانهـم
ـادوا وشاهدوا ما احدث الغزاة من دمار وتقتيل ، ثم سارعوا للحاق بالجيش اليوناني ،
ـذي لم يكن يتوقع ان يعود العرب بسرعة وظن انه في مأمن مـن الهجوم فتراخى في تعيين
ـلحرس والرقباء . وقام الانباط بالهجوم فاستولوا على المعسكـر اليوناني ونهبوه بعد ان
ـتلوا معظم الجنود حتى لم ينج سوى خمسين من مجموع اربعة الآف . وعند عودة الانباط
ـ الصخرة بادروا فبعثوا برسالة الى انتيجونس يشرحون له ما حدث لانهم كانوا يرغبون
ـ كما يبدو ـ في ان لا تزداد العلاقات سوءاً بينهـم وبينه . وتظاهر انتيجونس بالاقتناع
ـأعلن لهم صداقته ، بينما كان في الواقع يعدّ العدة لمهاجمتهم مرة اخرى ، وفعلا لم يطـل
ـوقت حتى زحفت قواته وعلى رأسها ابنـه ديمتريوس . على ان الانباط لم ينخدعوا
ـقوال ديمتريوس فلم يلدغوا مرة ثانية بسبـب يقظتهم واستعدادهم ، وكان مـن جملة

تدابيرهم الاحتفاظ بمخافر مراقبة امامية لكي تحيطهم علماً بقدوم العدو . وعندما جاءتهم الانباء بأن جيشاً يزحف نحوهم بادروا الى تحميل امتعتهم ، واودعوا كل ما لم يستطيعوا حمله في (الصخرة) تحت حراسة حامية قوية ، ثم تفرقوا في الصحراء . وفشل ديمتريوس كلياً في الاستيلاء على (الصخرة) وفي النهاية رضي بالعودة من حيث اتى مع ما قدم له الانباط من هدايا ثمينة .

نستدل مما تقدم انه لم تكن هناك مدينة قائمة بذاتها في البتراء خلال القرن الرابع قبـــل الميلاد . ولكن اعمال التنقيب كشفت عن قطع صغيرة من اصحن فخارية لازهور ذات طابع يوناني ويعود تاريخها الى حوالي سنة ٣٠٠ ق.م. وقد عثر على هذه القطع متناثرة على تلال النفايات الى الجنوب مباشرة من العمود الواقف (عمود فرعون) ، مما يدل على وجود مدينة في اول مراحل عمرانها على الاقل خلال تلك الفترة . وبالاضافة الى ماتقدم ظهرت بينات على وجود جدارين كانا يضمان في نطاقهما مساحة واسعة من جانبي الوادي ، ويرجح انهما يرجعان الى هذه الفترة . ولكن ربما انشأ الانباط الجدارين بعد عقد الصلح مع انتيجونس.

اما سترابو وهو الكاتب الكلاسيكي الآخر الذي يشير الى البتراء ، فقد حصل على معلوماته من شخص يدعى (اهنودورس) الذي كان صديقاً ومعلما للامبراطور اغسطس ، وكان قد ولد في البتراء . انه يصف الانباط ومدينتهم كما كانت في القرن الاول قبل الميلاد . ونرى ان الوصف يطابق مطابقة دقيقة المكتشفات الاثرية التي نحصل عليها اليوم . واليك ترجمة لما جاء في كتاب سترابو :

« يمتاز الانباط باعتدالهم وجدهم ، حتى انهم يفرضون عقوبة علنية على كل شخص تتناقص ثروته ، اما الشخص الذي ينمي ثروته فيزداد تكريماً وشرفاً . واذ ان الانبـــاط لا يقتنون سوى عدد قليل من العبيد ، فانهم يستخدمون اقاربهم في اعمالهم ، او يخـــدمون بعضهم بعضا ، او يخدمون انفسهم بانفسهم ، حتى ان الملوك يتبعون هـــذه العادة . وهم يؤلفون مآدب للطعام يضم كل واحد منها ثلاثة عشر رجلا مـــع فتاتين تجيدان الغناء. ويقيم الملك في منزله الكبير مآدب طعام عديدة . وفي هذه المآدب لايشرب الشخص اكثر من احد عشر كأساً لكل مادبة ثم يزيد عليها باطية ذهبية اخرى . وهكذا ترى ان الملك ديمقراطي ، فبالاضافة الى قيامه بخدمة نفسه ، فانه يقوم بخدمة الاخرين ، كما انه كثيراً ما يقدم حساب نفقاته الى الشعب ، واحياناً اخرى يجري التدقيق في مسلك حياته . اما مساكن



مخطط مدينة البتراء : على النحو الذي كانت قائمة عليه ، بعد أن ينقسم لها الوادي باسطاً ذراعيه عنـــد نهاية (السيق) ، وحين تمتد معه وهو يتسع قليلاً قليلاً ، وعـــلى جانبيه (المدرج العام) على شمال الداخل ، والمحكمة فالقصر عـــلى يمينه ، ثم بيوت الرعية في الجانبين . : الى ان يصل قوس النصر ، فالشارع العام ، فقصر البنت ، فاقسام المدينـــة الوردية الباقية ، عند شعاب الوديان ، وعلى الذرى المطلة عن يمين وشمال . . (رسالة المعلم)

الانباط فهي منشآت ضخمة من الحجر ، ومدنهم غير محاطة بالاسوار بسبب حالة السلم والأمن السائدين في بلادهم . وتكثر الثمار في اراضيهم باستثناء الزيتون ، وهم يستعملون الزيت المستخرج من السمسم . واغنامهم بيضاء الشعر ، وثيرانهم كبيرة ، وليس في بلادهم خيول لذلك يستعيضون عنها باستخدام الجمال . حتى الملوك يخرجون وهم يرتدون بزات لا احزمة لها ، وبالنعال ، ولكنهم يصنعون بزاتهم من الارجوان . وهم لا يقيمون وزناً لجثث الموتى ولا يفضلونها على الزبل . وفي هـذا يقـول هيراكليتوس « ان جثث الموتى خليقة بان تطرح بعيداً اكثر من اكوام البعر . لذا فانهم يدفنون موتاهم حتى ملوكهم الى جانب المراحيض ، انهم يمجدون الشمس فيقيمون لها هيكلا في منازلهم ، ويسكبون الخمر عليها يوميا ويحرقون امامها البخور . وعاصمة الانباط هي المسماة بترا ء ، لانها تقع على ارض مستوية ومنبسطة عموماً ولكن تحميها الجبال الصخرية من جميع الجوانب ، وهذه الجبال سحيقة الانحدار من الخارج ويعتريها الجفاف ، ولكنها من الداخـل كثيرة الينابيع ومن مياهها يستقي النـاس ويروون البساتين » .

وفي اقوال سترابو بعض عبارات لا تنطبق عـلى الاحوال السائدة في أيامنا هذه ، خاصة فيما يتعلق بجثث الموتى . فالاضرحة العديدة المنحوتة بعناية واتقان تـدل على احترام كبير للموتى . وهذه الاقوال تدلنا ايضاً على ان البتراء خـلال القرنين الثالث والثاني قبـل الميلاد ، كانت تنمو في عمرانها نمواً مضطرداً حتى اصبحت قاعدة لتجارة القوافل القادمة من جزيرة العرب . والواقع ان موقع البتراء كان ملائماً جداً لتوزيع البضائع في فلسطـين والبحر الابيض المتوسط ومصر وسوريا .

ملوك الانباط :

ان اول ملك من ملوك الانباط يذكره التاريخ هو الحارث الاول . « حوالي اواخر القرن الثاني قبل الميلاد » . والى حمى هذا الملك لجأ جاسون كبير كهنة اليهود في القدس ، بعد طرده من بلاده . وتغلب الملك عبادة الاول حـوالي سنة ٩٠ ق . م . عـلى اسكندر جانوس حاكم فلسطين وهزمه في ميدان القتال ، واسترد مؤاب وجلعاد اللتين كان اسكندر قد استولى عليهما سابقـاً . واننا لا نرى ذكراً لعمون ، ولكن اعمال التنقيب كشفت في اضرحتها عن فخار نبطي يعود للقرن الاول قبل الميلاد . وهكذا فان شرقي الاردن كلها

لا بد ان تكون قد خضعت لحكم الانباط خلال ذلك العهد . واثناء حكم الحارث الثالث ابن عبادة ، اتسعت المملكة حتى بلغت دمشق . وقد اهتم هذا الملك بالاحداث السياسية في فلسطين اهتماماً كبيراً ، حتى ان القائد الروماني بومبي ارسل حملة عسكرية ضد البتراء بقيادة القائد سكاوروس ، ولكن الانباط نفذوا مرة اخرى الخطط التي استعملوها مع ديمتريوس ، فابتاعوا القائد (بالهدايا) واحتفظوا باستقلالهم .

ووقف الملك التالي ، مالكوس (مالك) الثاني ، الى جانب الفرس عندما اشتبكوا في الحرب مع روما ، وعندما لحقت الهزيمة بالفرس اضطر الانباط الى ان يدفعوا الجزية للرومان (حوالي سنة ٤٠ ق . م). وبعد هذا قدم مارك انطونيو جزءاً كبيراً من بلاد العرب ، ومن ضمنه مملكة الانباط ، هدية الى كليوباترا ، فتحول دفع الجزية اليها . واخذ مالكوس يتباطأ في تقديم الدفعات ، فتحالف هيرودس الكبير مع كليوباترا وقامت قواتهما بمهاجمته ، ولكن الهزيمة لحقت بهيرودس نتيجة لاعمال الخيانة . غير انه لم يلبث عام ٣١ ق . م. ان حقق نصراً كبيراً واستولى على جانب واسع من بلاد الانباط . وعند وفاة مالكوس خلفه الملك عبادة الثالث الذي حكم من سنة ٢٨ ق .م . الى سنة ٩ ق.م.وفي عهده اعد الامبراطور اغسطس حملة عسكرية لمهاجمة بلاد العرب . وقد عرض ساليوس (صالح) رئيس وزراء الملك عبادة ، ان يكون دليلاً للجيش في زحفه عبر الصحراء ، ولكنه سار بالجيش في اكثر الاماكن وعورة واشدها جفافاً ، حتى ان عدداً عظيماً من الجنود ماتوا عطشاً . ولقد دبّر عبادة مكائد كبيرة مع قيصر ضد هيرودوس ، لانه رغب ان يتزوج سالومي اخت هيرودس ولم تقابل رغبته بالموافقة (١) . ولكن هذا كله لم يكن له اي اثر على البتراء التي استمرت تجارتها في الازدهار .

اما الحارث الرابع الذي خلف عباده ، فقد تولى عرش الانباط من سنة ٩ ق. م .حتى سنة ٤٠ ب.م .وكان يسمي نفسه (راحم امة) اي محب شعبه ، وكان عهده عهد رخاء يسوده السلام على وجه العموم . والحرب الوحيدة التي خاضها كانت ضد هيرودس انتيباس ابن هيرودس الكبير . وكان انتيباس هذا قد تزوج ابنة الحارث ، ولكنه اراد بعد ذلك ان يطلقها لكي يتزوج هيروديا زوجة أخيه ، وقد رد الحارث على هذه الاهانة الموجهة الى عائلته بالاشتباك مع انتيباس في معركة وألحق به الهزيمة . على ان الرومان كانوا يعاضدون

---

(١) سالومي لبست اخت هيرودس بل هي ابنة زوجته مريمنا

هيرودس انتيباس وبدأوا يزحفون نحو البتراء لكي يأخذوا بالثار . ولكن اثناء ذلك مات الامبراطور طيباريوس فارتد الجيش الزاحف عائداً . والحارث هـذا هو الذي يذكره الانجيل لان عامله كان حاكما على دمشق اثناء سجـن القديس بولس الذي نجا من السجن بواسطة زنبيل تدلى به من النافذة . واثناء حكـم نيرون (سنة ٦٧ ب .م) بعث مالكوس الثالث قوات لمساعدة الرومان ضد اليهود . ولكننا لا نكاد نملك اية معلومات عـن البتراء حتى عهد آخر ملوكهم رابل (رئبال) الثاني الذي توفي سنة ١٠٦ ب. م .والذي اصبحت البلاد بعد وفاته مقاطعة رومانية . فلقد استولى الرومان على مدينة البتراء واعادوا تنظيمهـا على النسق الروماني التقليدي . وشمل هـذا انشاء شارع رئيسي تحيط الاعمدة بجانبيه ، وكذلك معالم التجميل الرومانية المعتادة . وقد تم الكشف حديثاً عن جانب من هذا الشارع .

واستمرت مدينة البتراء في ازدهارها مدة من الزمن ، واننا نـرى كتابة على ضريح احد حكامها الرومانيين نستدل منها ان مـن جملة المهام الـتي كان يقوم بها ، انه كان مسؤولا عن سك النقود . ولقد كانت النقود النبطية تصنع دون شك عـلى النمط الروماني واليوناني ، ولكن من الحقائق الغريبة انه لم يعثر حتى الآن على قطعة واحدة من النقد النبطي المسكوك من الذهب ، بل ان النقود الفضية نادرة جـداً . عـلى ان ثروات البتراء بدأت بالانخفاض تدريجياً نتيجة لتغيير طريق التجارة وازدهار المدينة المنافسة لهـا « تدمر » في الشمال . لذلك لم يعد المؤرخون المعاصرون يذكرونها في كتاباتهم . ولكنها سارت في السبيل الذي سار عليه تاريخ مدن الشرق الاوسط الاخرى ،واعتنقت الديانة المسيحية عندانتشارها. وتحدثنـا كتابة في ضريح (الجرّه) الـكبير ان داخليتـه تحولت الى كنيسـة في القرن الخامس ، كما ان البتراء صارت مركز اسقفية . واننا نرى من الحفريات ان شارع الاعمدة اهمل مع الزمن واخذ يندثر . ومثلما حدث في جرش نرى ان السكان الذين تعاقبـوا على البتراء بدأوا يقيمون الدكاكين الصغيرة والزرائب فوق موقـع الشارع . وفي اوائل القرن السابع عندما انتشر الاسلام في هذه البلاد ، كانت البتراء ما تزال مأهولة ببعض السكان ولكنها لم تلبث بعد ذلك ان سقطت في غياهب النسيان . وفي القرن الثاني عشر أنشأ الصليبيون فيها قلعة اطلقوا عليها اسم (سيل) وهي تسمية يبدو انها تجديد للاسم القديم (سلع) . وفيما عدا ذلك فان البتراء ظلت في عزلتها الهادئة حتى اوائل القرن التاسع عشر .

الآثـــار :

على الزائر ان يترك السيارة التي جاء فيها عنـــد مخفر الشرطة في قرية وادي موسى (الجي) ومن ثم يواصل سيره على ظهر حصان او سيراً على قدميه حتى يبلغ البتراء نفسها. هذا مع العلم بانه يجري حالياً تمهيد الطريق ورصفها واعدادها لكي يتمكن الزائر في النهاية من الوصول بسيارته حتى مدخل السيق . (تمّ هذا فعلاً ــ المترجم) .

ان الدرب التي تبدأ من مخفر الشرطة تمر في وسط القرية الصغيرة ثم تنحدر في الوادي باتجاه الغرب . وفي هذا الوادي تبدو اول آثار الانباط التقليدية : فالى اليمين يوجد برجان منتصبان على شكل الاضرحه، ويرتفع هذان البرجان بجوانبهما الاربعة حوالي ثلاثين قدماً، وترى على قمتهما مدماكاً علوياً منكمشاً يجعل منظرهما شبيهاً بمنظر الحصون والقـــلاع . وبعد مسافة قصيرة ترى الى الجانب الآخر من الوادي الضريح الذي يسمى (عمود المسلّ Obelisk) بسبب وجود اربع مسلات في الطابق العلوي منه . وينحني الوادي بعد ذلك الى اليمين ، ولكن هناك درباً مستقيمة تمضي بك عبر الصخور الى ضاحية البتراء المسماة (المدرس) وهو الاسم النبطي القديم المسجل في احدى الكتابات . وهنا ترى جميع انواع الآثـــار والانصاب المماثلة لما في البتراء نفسها .

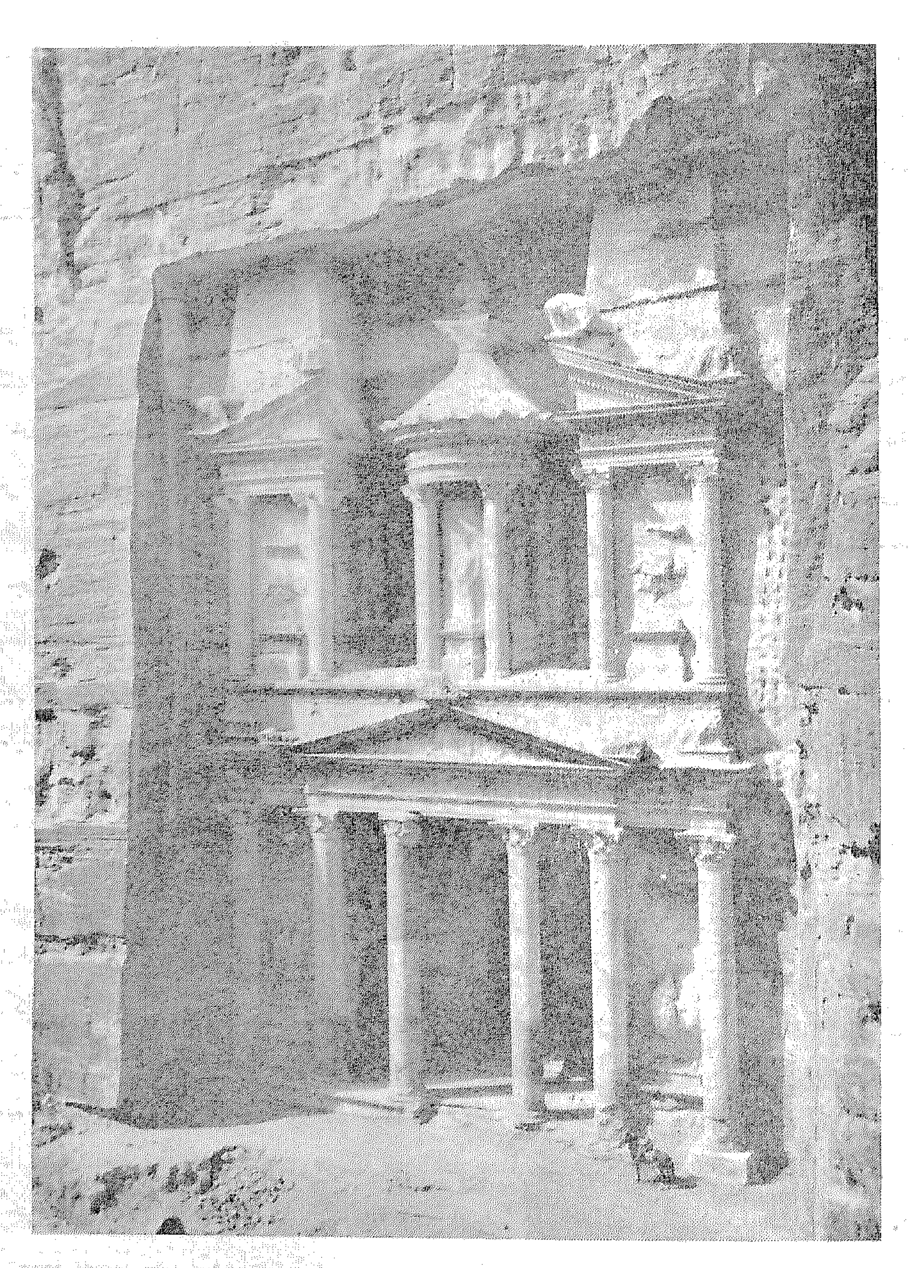
واذا ما سار المرء في الوادي الذي الى اليمين ، يقابله فجأة سد عظيم بني من كتـــل ضخمة من الصخور الرملية ، وقد انهارت بعض جوانبه . ويبدو لأول وهلة ان هذا السد يغلق طريق التقدم الى الامام ، ولكن توجد الى اليسار فتحة ضيقة او شقّ في واجهة التلة الصخرية . هذه الفتحة هي طريق البتراء التي نسميها (السيق) وبمقدور حفنة من الرجال ان يقفوا على حمايتها في وجه جيش بأكمله . وبعد ان تدخل الشق بقليل ترى فوقك بقايا متقطعة مـــن قوس النصر ، بـــل ترى قاعدة القوس في كلا الجانبين . وكان هذا القوس ما يزال قائماً حتى سنة ١٨٩٦ . تسير الطريق مباشرة مع مجرى السيل ، وكلما أوغل المرء في مسيره ازداد ارتفاع الصخور العمودية على الجانبين شيئاً فشيئاً . بينما تسود السكينة فلا يقطعها سوى وقع حوافر الجواد على الحصباء، او تنهدات الريح من خلال اغصان الدفلى النامية هنا وهناك.

وفي بعض الاماكن ترى الصخور وهي تكـــاد تلتقي فوق رأسك . حيث يشحب الضوء وتزداد البرودة ، بينما تنفرج الصخور في اماكن اخرى فتغمر المكان اشعة الشمس.

وفي كلا الجانبين ترى قنوات محفورة في الصخر لجلب المياه من عين موسى الى المدينة ، اما في المواقع التي تساقطت صخورها فان القناة انشئت على مداميك من الحجر. وتمضي الطريق حتى يخيل اليك ان لا نهاية لها، بينما لا تزيد مسافتها في الواقع على كيلو مترين، ولا تغير رتابة المنظر سوى أودية جانبية متفرقة قد تلمح في انفراج احدها درجاً كان يؤدي في الماضي الى منزل او معبد ما طوته أيدي النسيان في يومنا هذا . ولقد كانت الطريق كلها في الاصل مرصوفة بكتل ضخمة من الحجر الجيري الصلب . وانك لترى حتى اليوم هذه الحجارة المرصوفة في الاماكن التي جرفت فيها المياه اكداس الركام العليا. وتوجد على الجانبين محاريب صغيرة حفرت على غير نظام . وفي تجويفها عادة نماذج للاله (ذو الشرى) وهي اما كتلة من الصخر مستطيلة او مسلة ، وهذه النماذج تكون منفردة احياناً واحياناً اخرى في مجموعات .

وعندما يبدو للمرء ان لا نهاية لهذا المضيق الملتوي ــ فانه يقف فجأة وقد تملكته الدهشة ، اذ يلمح في مواجهته جانباً من واجهة بالغة الروعة تزينها الاعمدة والتماثيل. ان افضل الاوقات للوصول الى هنا هو ما بين الساعة العاشرة والساعة الحادية عشرة صباحاً. لان الزائر حينذاك يخرج من عتمة السوق الى حيث الشمس الساطعة تغمر بضوئها واجهة اعظم المنشآت الاثرية في البتراء : الخزنة . يا له من منظر لا ينسى طيلة العمر ، لان الصخر هنا بلون «الورد الاحمر» حقاً ، وتراه يتألق عندما تشرق عليه الشمس كأنما ينبعث الشعاع من جوانبه ، ويزداد المنظر روعة باللون الاخضر الغامق الماثل في شجيرات من الدفلى تنمو امام الخزنة. ان وجود هذا الاثر النفيس في موضع منتح عن الريح والمطر أبقى لخطوطه الجميلة نقاءها وجدتها كوحدة عامة. ولكن أيدي العبث والجهل اصابت الزخارف المنحوتة اصابات بالغة . لقد نقرت الخزنة في صميم الصخر ، مثلها مثل بقية المنشئات الكبرى في البتراء ــ عدا واحدة منها ــ وهي تمثل بناء من طابقين ، والطابق العلوي كرنيش (Pediment) مشرشر على الجانبين وكشك Kiosk مستدير في الوسط. وفوق هذا الكرنيش ترتفع جرة كبيرة احدثت فيها كسور عديدة نتيجة لاطلاق العيارات النارية عليها من قبل ناس لا حصر لهم ، وكان اولئك الاشخاص يطلقون النار لما ترامى اليهم زعما بانها تحتوي في داخلها على كنز عظيم من الذهب . ومن هنا أطلقت عليها تسمية « الخزنة » والواقع ان الجرة قطعة منحوتة من الصخر الاصم مثلها مثل بقية البناء.

لم يتفق خبراء الاثار عما اذا كانت الخزنة معبداً او ضريحاً، ولكن اكثر الادلة تميل الى تأييد القول بانها أنشئت لتكون معبداً . ولقد اصيبت التماثيل المنحوتة بعطب كبير حتى لم يعد بالامكان التعرف عليها ، مع ان بعضهم يدعــي ان التمثال الاوسط هــو للآلهة ايزيس .



« الخزنة في البتراء »
وهي من آثار الانباط العرب ، وذلك بعد اصلاح احد اعمدتها المتوسطة
الذي كان قد سقط بسبب تآكل قاعدته من الاسفل .

وتتألف داخلية البناء من غرفة في الوسط تؤدي الى غرفة صغيرة في الصدر يدخلها المرء على ثلاث درجات ، وغرفتين صغيرتين احداهما على الجانب الأيمن والاخرى عـلى الجانب الايسر. على ان اهمية البناء تتجلى في واجهته وليس في داخليته ، وهذه الصفة تنطبق على جميع منشئات البتراء . ومن المرجح ان تكون الخزنة قد نقرت في اواخر القرن الثاني ب. م.(١)

وتسير مع الوادي فترى على يمينك قناة ماء هي تتمة قناة الماء المارة بالسيق ، ولكنها هنا تحولت الى انبوب مصنوع من الفخار وقد الصقت قطعه الصغيرة مع بعضها البعض وركبت كلها في ملاط من الكلس . ويقوم على الجانبين عدد من الاضرحة ، ويتميز اكثرها بعلامة « خطوة الغراب » شعار الانباط التقليدي . ولكن يجب ان لا يسود الاعتقاد بان كل كهف نقر في الصخر هو ضريح . فكثير من هذه الكهوف كان يستعمل منازل ومساكن ، حتى ان بعضها يتألف من طابقين او ثلاثة طوابق . ويمكن للمرء ان يرى على صفحات بعض الشقفان (جمع شقيف) صفوفاً منتظمة من الشوارع لتيسير المواصلات بين هذه المنازل . اما الى اليسار فيوجد المدرج الذي يتسع الى حوالي ثلاثة الاف متفرج ، وقد ادى انشاؤه الى ازالة كثير من الاضرحة القديمة او الى قطع جوانب منها . وهذا المسرح يعتبر من جملة الدلائل القليلة التي تعطينا فكرة عن الزمن التقريبي الذي انشئت فيه نماذج الاضرحة المختلفة . ومن المرجح ان يكون نحت المدرج قد تم اثناء القرن الثاني او الثالث ب . م .

بعد ان تجتاز الطريق في محاذاة المدرج ، ينحرف الوادي مباشرة الى الغرب ماراً في منتصف ارض مفتوحة ، هي الارض التي كانت تقوم عليها مدينة البتراء نفسها . انك ترى المنحدرات على الجانبين مفروشة بقطع الحجارة المنحوته ، وهي كل ما تبقى فوق الارض من هياكل المدينة وحماماتها ومنازلها. لقد كان هناك على الاقل جسران للعبور فوق مجرى السيل ، ومن المحتمل ان تكون قد انشئت عقود متصلة فوق مجرى السيل كله ، ولكن الميـــاه التي تدفقت خلال الالف سنة الاخيرة لم تترك لنا دلائل كثيرة عن الجسرين او العقود المتصلة. وفي الجانب الجنوبي من الوادي ترى مسافة من الشارع المرصوف الذي تم رفع الانقاض عنـــه موخراً ، وما تزال معظم قواعد الاعمدة في مواضعها على الجانب الجنوبي من الشارع ، ولكن الاعمدة نفسها تبعثرت واختفت ولم يبق منها سوى بعض الاجزاء التي اعيد استعمالها في مبان انشئت بعد ذلك . ويمكن للمرء ان يرى على حافة مجرى السيل جداراً اقيم فوق الاساسات

(١) كان احد اعمدة واجهة الخزنة الستة قد سقط بفعل العوامل الطبيعية ، ولكن دائرة الاثار اعـــادته الى موضعه عام ١٩٦١ ، كما ان الدائرة اعادت بناء البوابة الرومانية وقامت بتعزيـــل المدرج الروماني من الاتربة والانقاض ، ومهدت الدرب التي تؤدي الى الدير والدرب التي تؤدي الى المرقع العالي (المذبح) لتسهيل زيارتهما .

القديمة في محاولة لتخفيف الانجراف الذي تحدثه مياه السيل ، وقـد انشئت هناك بعض الغرف ولكنها اصبحت الان تحت مستوى الارض. وفي هذه الغرف وجدت كمية كبيرة من صناعات الانباط الفخارية ذات الالوان البديعة ، كما وجدت كتابات عـلى بعض القطع الفخارية ومنها كتابة على جفنة سليمة كاملة .

وقد ظهرت في طرف الجانب الذي تم كشفه وتنظيفه من الشارع — بقايا قوس مثلثة كانت فيما مضى مزدانة بالحجارة المزخرفة والنقوش المصنوعة من الملاط ، ولكن هذه البقايا اصبحت اليوم في حالة سيئة من التشويه. ويبدو على الزخارف المنحوتة في الحجر روعة الصناعة ودقتها وخاصة تلك التي صنعت على اشكال الزهور ، كما انها نماذج تقليدية للطريقة النبطية. وعلى مقربة من هذه القوس يوجد تمثال نصفي ضخم وبقايا تمثالين آخرين . ولابد ان هذه التماثيل كانت ذات يوم في واجهة احد الابنية المجاورة والتي اصبحت اليوم أثراً بعد عين . اما الطريق المبلطة فلا بد انها كانت تمر تحت القوس ، يتخللها درج كما يبدو ، وتمضي حتى تصل الى الهيكل ، اذ ما تزال بعض بلاطات قائمة في مواضعها مباشرة الى الغرب من القوس. ونستطيع من التمعن في طراز النقوش ان نقدر بان القوس أُنشئت اثناء القرن الاول بعد الميلاد.

ان الهيكل القائم في سفح الشقيف الغربي يستأثر بالانتباه اكثر من سواه في الوقت الحاضر انه يدعى (قصر البنت) او (قصر بنت فرعون) وهذه التسمية ناشئة عن عادة قديمة عند العرب اذ يعزون إقامة جميع المنشاءات الضخمة الى ملوك مصر القدماء ، لاعتقادهم ان اولئك الملوك كانوا ذوي قدرة عظيمة . وهذا الهيكل هو الاثر الوحيد الباقي من بين الاثار المعمارية ، اي التي لم تنحت في صميم الجبال الصخرية . هذا مع العلم ان حالة الجدران المتداعية وكذلك القوس الكبيرة — تجعلنا نفكر بالمدة التي يستطيع خلالها ان يبقى قائماً . يبدو للباحث ان الهيكل انشيء في عهد الحكم الروماني ، ربما في اواخر القرن الثاني أو اوائل القرن الثالث ب. م . ولكن لا يوجد أي دليل مؤكد يؤيد هذا . ويتألف مخطط الهيكل من رواق يتخلله عمودان بين الجدران الجانبية ، ثم المدخل الذي تظلله القوس الكبيرة ، يليه فسحة خالية ، واخيراً الجدار الخلفي الذي يقسم الى ثلاث قطاعات ، ويبدو ان القطاعين الخارجيين منها كان يرتفع فوقهما طابق ثان . والواقع ان الجدار الخارجي نفسه انشيء مزدوجاً بحيث يبلغ الفراغ بين جانبيه متراً . وهناك ظاهرة غريبة اخرى في البناء هي وجود دعائم خشبية في الجدران ، وربما كان يقصد من هذا التدبير ان تكون الدعائم وقاية ضد الهزات الأرضية . والواقع ان هذه الدعائم كانت من الاسباب المهمة في تداعي البناء ، بعد ان اصابها التلف مع

مرور القرون . ولقد كان الهيكل كله مزداناً – على الاقل مـــن الخارج – بالجبس المنقوش والملاط . وما تزال بقايا الجبس واضحة على ظاهر الجدار الخلفي ، كما ان الالوان البراقة تبدو على بعض كتل الحجارة الكبيرة .

يقع الفندق الحديث قريباً من الهيكل ، وقد حولت بعض الحجـــزات المنحوتة في صخور الشقيف الى غرف للنوم . وعلى بعد مسافة قصيرة الى الجنوب يبدو ضريح لم يتـــم انشاؤه ، ولكن يتبين منه ان اعمال النحت كانت تبدأ من القمة وتنتهي عند اسفل الصخرة . وترى على المنحدرات الواسعة شرقي الهيكل عموداً قائماً بمفرده ، انه العمود الوحيـــد الذي بقي في وقفته من بين اعمدة هيكل آخر ، اما الاعمدة الاخرى فتـــبدو ملقاة على الارض بقواعدها وتيجانها ورؤوسها ، وهي في نفس الحالة التي صارت اليهاعندما القت بهـــــا الزلازل ارضاً في تاريخ لا نعلم عنه شيئاً .

يمكن للزائر ان يشاهد جميع الاثار والابنية التي سبق ذكرها دون ان يتسلق شيئاً من المرتفعات ، وهناك مجموعة اخرى من الاثار في الشقيف الشرقي ، لا تكلف الزائر الذي يرغب مشاهدتها سوى اليسير من الجهد . ويمكن للمرء ان يراها على مبعدة من موضـــــع الفندق . والاثار الرئيسية بينها هي التي نعرفها باسم (ضريح الجرة) و (الضريح الكورنثي) و(ضريح القصر) و(ضريح فلورنتينس) . على ان الجدل مـــا يزال قائماً بين البـــاحثين حول الاضرحة الثلاثة الاولى فيما اذا كانت في الواقع اضرحة او هياكل او منازل للسكن . ونظراً لطبيعة شكلها الداخلي فمن المرجح ان تكون اضرحة وربما كانت اضرحة ملكية .

يقع (ضريح الجرة) في مستوى من الارض اكثر ارتفاعاً من الاثار الاخرى ، وهو أثر مهيب جداً تنبسط امامـــه ساحة سماوية واعمـــدة نحتت في الصخر . وكان القدماء في الاصل قد قاموا بتوسيع الساحة وبنوها على طراز متقن الصنعة مـــن الاقبية وجعلوها ذات طابقين ولكنها الان في حالة خراب شديد . اما واجهـــة الضريح فتملأ النفس اعجـــاباً ببساطتها ، وبالارتفاع العظيم لاعمدتها المربعة اذا ما قيس بمساحتها عرضاً . وتبلغ قياسات الحجرة الداخلية عشرين متراً في عرضها وثمانية عشر متراً في عمقها داخـــل الجبل . واذا استثنينا بعض الفجوات في الجدار فالحجرة تخلو من جميع انواع الزخارف . ويبدو في التقاء طرفي الجدار والسطح ، التقليد النبطي المعروف في النحت بالازميل على قياس الدرجة ٤٥ . وترى في أيامنا هذه القرن والزوايا منحوتة بالاستقامة الكاملة التي كانت علـــيها يوم الفراغ من انشائها قبل عدة قرون ، ولا تملك عند التأمـــل إلا ان تعجب بنظافة النحت وروعته . انها مثال فخيم على الفن النبطي في نحت الحجارة على الطريقة البسيطة الخالية من التزويق .

وتوجد على صفحة الجدار الخلفي كتابـــة مدهونة باللغة اليونانية تنبـــيء ان الحجرة كانت تستعمل كنيسة في سنة ٤٤٧ ب . م . وترى فوق المدخـــل الرئيسي تمثالا نصفياً اصابتـــه تقلبات الجو بتلف عظيم . كما توجد هناك حجرة اخرى لا نعلم اذا كان احد قد طاف فيها وتعرف عليها حتى الان .

يأتي بعد ذلك مباشرة مـــن الجهة الشمالية (الضريح الكورنثي) وهو يشبه في طرازه طراز (الخزنة) الى حد كبير . ولكن العوامل الجوية عبر العصور اتلفت واجهته حـــتى نكاد لا نتعرف عليه .وترى ابوابه الخارجية مختلفة عن بعضها البعض في طرازها واتساعها وهي تؤدي الى حجرات مستقلة ذات احجام مختلفة . وهذه ظاهرة غريبة لا نجد في الوقت الحاضر تفسيراً كافياً لها . ليس هذا الاثر على قدر من الجمال او الإثارة ولكننا نذكره على أساس ضخامته وما يتضح لنا من اهميته بالنسبة للزمن الذي انشىء فيه .

أما (ضريح القصر) فيقع في محاذاة الأثر السابق الى الشمال وقد أطلق عليه هذا الاسم لان واجهته انشئت على طراز القصور الرومانية التي تتألف من ثلاثة طوابق . وعلى هـــذا الاساس فهو فريد بين آثار البتراء لا يماثله أي أثر آخر ، كما انه من اضخم الامكنة الاثرية الموجودة فيها . على ان الابواب الاربعة في واجهته الضخمة الفسيحة تؤدي الى اربع حجرات صغيرة ليس فيها ما يثير الانتباه او يلفت النظر. وقد بني جانب من الطابق العلوي من الواجهة بالحجارة لان الجبل لا يرتفع هناك ارتفاعاً عمودياً كافياً بحيث يمكن النحت فيه على موازاة الطابقين الاول والثاني. وانك لترى على بعض الجدران في اقصى اليمين بقايا زخارف ملونة.

وعلى بعد ثلاثمئـــة متر تقريباً يوجد ضريح (سكستوس فلور نتينوس) الذي نرى اسمه ضمن نص باللغة اللاتينية حفر فوق المدخل وفيما يلي ترجمة لهذا النص :

« الى لوسيوس . . . الصغير ، ابـــن لوسيوس بابير يوس سكستيوس فلور نتينوس ، أحد المسؤولين الثلاثة عن سك النقود الفضية والذهبية ، المحامي العسكري لفيلق منيرفـــا الاول ، المدعي العام لمقاطعة اشيا ، محامي الشعب ، قائد الفيلق الثامن في هسبانيا ، القنصل الاول في مقاطعة ناربونتسيس ، الوالي المعين من قبل اغسطس ، حاكم مقاطعة بلاد العرب ، الاب الذي يعرف واجباته جيداً ، تمشياً مع وصيته بعينها » .

يبدو ان لوسيوس هذا كان رجلا له بعض الاهمية في تلك المنطقة ، ويعتبر ضريحه متقن الصنعة رائعاً . رغم انـــه غير بالغ الضخامة ، اما التاريخ فحوالي السنة ١٤٠ ب . م .

هذه هي الاماكن الاثرية الرئيسية التي يسهل الوصول اليها . بالاضافة الى ضريح في وادي التركمانية يحتوي على نص كتابة طويلة تثير الاهتمام باللغة النبطية ، فوق موضع الباب. وفيما يلي ترجمة ذلك النص :

« ان هذا الضريح والحجرات الكبيرة والصغيرة التي في داخلـــه، والقبور المبنية على طراز المدافن الجانبية (Loculi) والساحة الواقعة امام الضريح ، والاروقة والمنـــازل التي بداخلها ، والحدائق ، والثلاثية ، وآبار الماء ، والشرفة والجدران وبقية العقارات والامتعة الموجودة في جميع هذه الاماكن — قد كرست ونذرت ملكاً مصوناً لدوشارا آله ربنـــا ، وعرشه المقدس ، وجميع الالهه حسب التعيين في الوثائق المتعلقة بالمواضع المنذورة حسب محتوياتها . وحسبما يقضي أمر دوشارا وعـــرشه وجميع الالهة بان منطوق هـــذه الوثائق المتعلقة بالمواضع والاشياء المنذورة يجـــب ان يطبق وينفذ دون اي تحوير . كما يجب ان لا يجري أي تراجع او نكوص عما تتضمنه تلك الوثائق ، وأن لا يدفن اي أنسان في هـــذا الضريح عدا الشخص الذي يملك وثيقـــة خطية تمنحه حق الدفـــن حسب نصوص الوثائق المذكورة المتعلقة بالاشياء المنذورة الى الابد » .

والثلاثية (Triclinium) المشار اليها ليست الا قاعة تعقد فيها حفلة الجناز ، حيـــث تصف المقاعد المسطيلة والحشايا على ثلاثة جوانب . وهناك نماذج عديدة منها في البتراء ، ولكن القاعة الخاصة بهذا الضريح عينه لا يستطاع تعيينها . ومن المرجح ان تاريخ الضريح يعود الى القرن الاول ق . م . او القرن الاول ب . م .

وفي منطقة (مغار النصارى) الى الشمال مـــن ضريح فلورنتينوس يوجد عدد من الاماكن الاثرية والاضرحة والمنازل والثلاثيات والمحاريب الخاصة بالآله دوشارا . ويمكن للزائر ان يقضي صباحاً جميلا حافلا بالفائدة في الاكتشاف والتفرج هناك . وفي العثور على بقايا معالم الطريق المحفـــورة في الصخر والتي تؤدي الى موقـــع (البارد) ضاحية البتراء الشمالية . ولكن بعض اهالي وادي موسى ينتقلون في فصول معينة مـــن كل عام للاقامة في هذه الاضرحة مع مواشيهم ، لذا فان الذباب يتكاثر في تلك الدمن بعد رحيلهم . وفي البتراء — عدا ما تقدم ذكره — عدد كبير من الاضرحة والمنازل والاماكن المقدسة التي حفرت في الصخر حيثما اتجهت ، وكثرة عدد هذه الامكنة تزيد عن طاقة استيعاب كتاب كهذا ، حتى ولو كان ذلك بصورة عابرة .

ولكن ربما كان من الضروري ان نلفت الانتباه الى مكان تقـديم الاضاحي المستدير الذي يقع على قمة تلة مقابل الهيكل من الجهة الشمالية ،ويطلق عليه اسم (عرقوب الهيشة) . وهناك ايضاً مكان مقدس مع ثلاثية على تلة (جبل الميسرة الشرقية) مقابل العرقوب مـن جهة الغرب . ويوجد في (وادي الصياغ) بعض النماذج الممتازة لمنازل نحتت في الصخر ، وعلى بعض المسافة منها مع انحدار الوادي نفسه الى الغرب – بركة طبيعية ذات موقع جميل يغذيها نبع ماء صغير . ومن الظواهر المدهشة في هذا الوادي ان واجهة الجبل الصخرية قطعت ونحتت عمودياً على ارتفاع شاهق جداً. ولكن لم يستطع احد ان يقدم تفسيراً واضحاً للدافع الذي كان وراء القيام بهذا العمل الضخم. وهناك ظاهرة ملحوظة يمكن رؤيتها في هذا الوادي وعلى جوانب معظم الاماكن الاثرية المنحوتة في الصخر—وهي عبارة عن سلسلة من الأخاديد المزدوجة في أغلب الحالات والتي تسير صعداً في واجهة الصخر المنحوتة عمودياً . و يزال الغموض التام يحيط بالغرض الذي نحتت هذه الاخاديد من اجله ، وقد قيل ان القصد منها هو اتاحة المجال للعمال كي يتسللوا الى اعالي التلال ، ولكن لا ندري كيف يمكن تساعد هذه الخطوط الخفيفة على تحقيق ذلك ، كما يبدو اشبه ما يكون بالمستحيل على اي أنسان ان يتسلق هذه الواجهات المنبسطة بواسطة هذه الاخاديد القليلة العمق دون الاستعانة بوسائل اخرى . وفي موقع (الثغرة) الى الجنوب من موقع الفندق – نصب افعى فريد من نوعه ويلفت النظر ،اذ ترى افعى ملتوية فوق صخرة ضخمة تقف بمفردها . كما ترى هناك عدداً آخر من الاضرحة القديمة وهناك أثران اخران يجب على الزائر ان يحرص على رؤيتهما رغم ما يمكن ان يعاني من مشقة الطريق الوعرة الصاعدة اليهما والالتواءات المختلفة : انهما الهيكل المعروف باسم (الدير) ومكان الاضاحي المرتفع .

فاذا اردت الذهاب الى (الدير) تعين عليك ان تقطع وادي الصياغ من موقع الفندق وتسير صعداً مع وادي الدير . وسرعان ما تصل الى بقايا معالم الطريق الاصلية التي حفرت في الصخر كي تؤدي بالسائر عليها الى الدير . ولهذه الطريق درجات حفرت في المواضـع التي يرتفع فيها الصخر عمودياً . ويمكن متابعة هذه الطريق حتى بلوغ الدير دون ان يتحول المرء عنها الا في فجوات قصيرة هنا وهناك . وبعد ان تقطع المرحلة الاولى مـن الطريق، ترى منخفضاً الى اليسار وفيه (ثلاثية) ذات واجهة تلفت النظر وقـد نحتـت فيها رسوم اقنعة لوجوه انسانية بالاضافة الى رسم أسد عـلى الجدار الى يمين الباب والى يساره . فاذا سرت قليلا بعد ذلك وجدت ان الدرب الضيقة تنحني يساراً مع الوادي حيث تستطيع ان

تتابع الطريق القديمة بالسير على درجات عريضة هنـــاك . فاذا توقفت وانت ترتقي هـــذه الدرجات رأيت على يمينك (الى الشمال) وادياً جانبياً يبدو في اعلاه كهف يرشح فيه الماء من صخرة معلقة فوقه ، وتدل الكتابات النبطية الكثيرة التي حفرت على واجهة الصخرة انه كان مكاناً مقدساً . وخلال مسيرك صعداً مع الطريق القديمة الى الديـــر ، لا ترى ما يلفت النظر سوى خرائب صومعة من العهد المسيحي ترتفع في أعلى واجهة الشقيف عـــلى يسار الدرب ، حيث توجد فجوة في الطريـــق القديمة . ويمكـــن ان ترى على الصخور بعض الكتابات اليونانية ورسوم الصلبان ، ولكن هذا الاثر لا يكاد يستحق مشقة الصعود اليه .

قد لا يبدو عند النظرة الاولى ان الدير اثر بالغ الضخامة ولكنه في الواقع من اضخم الاماكن الاثرية في البتراء، اذ يبلغ عرضه ٥٠ متراً ويبلغ ارتفاعه حتى قمة الجرة ٤٥ متراً، اما الباب فيرتفع الى ثمانية امتار . تمتاز القاعة بالبساطة المتناهية التي عرفت عن الانباط ، ولكن يوجد في جدارها الخلفي محراب أُقيم فيه حجر يمثل دوشارا وهو بارز عن الجدار في وضعه الاصلي . وهناك رسوم تمثل بعض الصلبان الصغيرة منحوتة في الجدار الصخري ، مما يدل على ان الهيكل كان يستعمل للعبادة في العهد المسيحي . ولقد تمت فيما مضى تسوية الارض الواقعة امام الهيكل، وهناك بقايا معالم تدل على وجود جدار دائري من الحجر حول تلك الساحة ، ولكن لا توجد أية دلائل تنم عن نوع العبادة والطقوس التي كان الناس يمارسونها يومذاك . ومن المرجح ان يكون نحت الدير قد تم حوالي القرن الثالث ب. م. واذا ما وقف المرء في نقطة الى الغرب من الدير يرى مشهداً رائعاً عبر وادي عربة حيث يمتد البصر الى فلسطين وسيناء ، بينما يستطيع ان يرى الى الجنوب القمة العالية لجبل هارون والمزار الصغير الذي يقوم فوقها ، على اساس الاعتقادالسائد بان هارون دفن هناك .

على انك اذا اردت بلوغ مكان الاضاحي المرتفع ، الذي ربما كان اعظم امكنةالعبادة التي شادها الانباط في البتراء ــ ترتب عليك ان تبدأ السير من منطقة الفندق فتقطع الاخدود قريباً من العمود المنتصب فوق كثيب نفايات المدينة القديمـــة ، ومـــن هناك تسير صعداً في (وادي فرسه) . يوجد على بعد بعض المسافة في هذا الوادي الموقع الاثري المعروف باسم (ضريح الجندي الروماني) وهذه التسمية نشأت عـــن وجـــود التمثال القائم في المحراب الاوسط فوق الباب انهـــا واجهة جليلة رغم انها صغيرة . وفي القاعة تـــرى بعض المدافن المنحوتة في الجدران بالاضافة الى فجوات ذوات اقواس في الجدار الجنوبي . وتقوم قبالة هذا الضريح ثلاثية رائعة الصنعة تزدان جدرانها الداخلية باعمدة متصلة عـــلى الطراز

الايوني ، كما ان الصخر هنا غني بالالوان البديعة . ومن المرجح ان تكون هـــذه الثلاثية ملحقة بالضريح من اجل عقد الحفلات الجنائزيه .

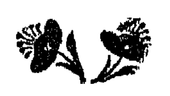
وتتقدم مرتقياً سلسلة من الدرجات المتآكلة ، فترى الى اليسار هيكلا صغيراً اصيب بتلف كبير نتيجة العوامل الجوية وعدوان الناس . وفـــوق هذا الهيكل بئر مـــاء ذات اتساع كبير . وبعد ان تقطع مسافة قصيرة مصعداً في الوادي ، يبدأ التسلق بسلسلة ضيقة من الدرج المغروسة في واجهة الشقيف من الناحية الشرقية . انه لممر وعر يحتاج عبوره الى خفة وفطنة ، ومع ذلك فان حمير الاهلين كثيراً ما تعبره والاحمال على ظهورها ، ويبدو ان هذه الحمير في بعض النقاط تتقمص اجنحة تطير بها أو ايدي تسهل لها العبور . فاذا ما بلغت الفسحـــة الاولى واجهك رسم اسد كبير نحت في الصخر المقابل ، ورأيت قناة ماء تنحدر من شـــق فوقها ، ويكاد يكون من الموكد ان الماء قديماً كان يتدفق من فم الاسد . لقد اصاب رســـم الحيوان تلف بالغ مـــن فعل العوامل الطبيعية وعدوان الناس حـــتى لم يبق منه سوى معالم يتعرف المرء عليها بصعوبة . اما متابعة السير على الدرب فتكون امـــا بتسلق الاخدود الذي حفرته المياه فوق الاسد — وهي مسافة قصيرة ولكنها ليست على شيء من السهولة — او تكون باتباع طريق مأمونة سهلة تمتد على يسارك عندما تقف في مواجهة الاسد . والاشياء الوحيدة التي يمكن ملاحظتها اثناء السير في الطريق — هي بعض الكتابات النبطية على وجه صخرة ملساء الى اليسار . مع ان هذه الكتابات لا تزيد في معظمها عن قول « السلام عـــلى فلان وفلان ابن فلان وفلان » .

نزعت كمية كبيرة من صخور القمة في ذلك المرتفع حتى تكونت هناك ساحة واسعة تنتصب فيها مسلتان ، يستطيع المرء من النظر اليهما ان يقدر كمية الصخر التي نقلت من هناك : ويرى بعض الثقاة دلالة دينية في هاتين المسلتين ، على أساس ان دوشارا تمثله دائماً حجارة منتصبة كهذين الحجرين . ولكن يصعب علي ان اتصور كيفية قيامهما بدور ما في أية حفلات دينية . ولا بد انه كان اكثر سهولة بالنسبة للاقدمين ان ينصبوا عموداً ضخما من حجر واحد في ذلك المكان ، من ان يقطعوا تلك الكميات الهائلـــة من الصخور وينقلوها بعيداً من اجل الابقاء على هاتين المسلتين . ويمكن للمرء ان يشاهد بقايا عمارة فوق مرتفع بارز ، ومن المحتمل انها كانت في الاصل منزلا للكهنة الذين كانوا يزاولون عملهم في مكان الاضاحي . ومكان الاضاحي هذا يقوم في منطقة منبسطة غـــير واسعة الى الشمال مـــن هذه البنايات مباشرة ، وهو يتألف من ثلاثية كبيرة مع مذبح في منتصف جانبها الغربي . وهـــناك ثلاث درجات يصعد المرء عليها كي يقترب من المذبح . ويقوم في محاذاة الثلاثية من جهة الجنوب

مذبح ثان وامامه حوض مستدير في وسطه ثقب يودي الى قناة سائبه، مما يوحي بان الاضاحي كانت تذبح هنا فتسيل الدماء في القناة . وعلى مبعدة الى الجنوب توجد بئر ماء . اننا لا نعلم اي شيء عن الاحتفالات التي كانوا يقيمونها هنا . ولكن مهما يكن من امرها فمن المؤكد ان عدداً قليلا من الناس كان يستطيع المشاركة فيها بسبب ضيق المكان . ويعتبر هذا الموقع من كثر المواقع ارتفاعاً في البتراء ، والمناظر التي يشاهدها المرء منه على غاية من الروعـــة والجلال . اما في العودة فيستطيع المرء ان يسلك طريقاً اخرى منحدراً مع الخدود الى الشرق من (الموقع العالي — المذبح) وهذه الطريق تؤدي بك الى مقربة من المدرج .

هذه اذاً هي الاماكن الاثرية الرئيسية في البتراء ، والحقيقة ان المرء يستطيع ان يقضي فيها عدة اسابيع بحيث يشاهد شيئاً جديداً كل يوم . فهناك على سبيل المثال ، ضاحية (البيضا) وضاحية (البارد) في الجهة الشمالية ، وهناك ضاحية اخرى الى الجنوب تدعى (الصبره) وهناك خرائب القلعة الصليبية في (وعيرة) من جهة الشرق وبقايا قلعة صليبية اخرى على قمة (الحابس) وهي تلة صغيرة تقع مباشرة الى الغرب من الهيكل الروماني .

وهناك الضريح الذي يقال انه ضريح هارون فوق جبل هارون ، ولكن الاهلين من سكان وادي موسى لا تطيب لهم زيارة الاجانب لهذا المزار ، والواقع ان المرء لا يجد شيئاً ايلفت النظر بعد ان يتسلق التلة ويبذل في ذلك العناء . والى جانب هذا توجد بقايا آثار العصر الحديدي القليلة على قمة (ام البيارة) وربما يكون القيام بتسلق هذا المرتفع اشد عناء واكثر صعوبة من تسلق القمم الاخرى . والواقع ان كل قمة من قمم التلال وكل سفح من سفوح الجبال تشتمل على جانب من الاثار ، ولكـــن المرء يحتاج الى وقت غير محدود وحماسة لا ينضب لها معين بالاضافة الى دليل خبير كي يرى جميع الاماكن الاثرية . ان البتراء مـــن تلك الاماكن التي إما ان يعجب المرء بجمالها ومحاسنها اعجاباً منقطع النظير ، او يرى فيها مكاناً مشؤوما يبعث الملل في النفس . ولا شك ان معظم الناس يرون فيها الجانب الاول ، ولكننا نجد ان رحالة واسع الافق مثل (دوتي) لم يشعر تجاهها بالمودة والاعجاب . ولكن سواء كان مقدّراً لك ان تميل اليها او لا تميل — فانها جديرة بالزيارة ، لان البتراء هي البتراء التي لا مثيل لها في العالم .



الفصل السابع

معان – راس النقب – القويرة – خربة الخالدي – خربة كثاره – تاريخ العقبة – وادي رم – جبل رم :

معان :

معان هي المركز الاداري للواء الجنوبي ، وهو اللواء الذي تشكل القبائل البدوية الاكثرية الغالبة بين سكانه . وتقع معان على الطرف الاقصى للصحراء ، ويستطيع الانسان الذي يقف عند محطة سكة الحديد فيها ، ان يمد بصره شرقاً فيرى مسافة واسعة من الارض المنبسطة التي لاينمو فيها نبات . والحقيقة ان الهضبة المرتفعة هي التي تنبسط كلياً ، اما بقية الارض فتتخللها التلال والاودية وتدعى جبل الطبيق ، وتمتد حتى تتصل تدريجياً في الجنوب بمنطقة حسما ذات الحجر الرملي . وما تزال تقيم في تلك الجهات بعض القبائل التي ما تزال على حالة تامة من البداوة . وترى أفرادها يقضون حياتهم في بيوت حيكت من شعر الماعز ، وينتقلون من مرعى الى مرعى ومن ماء الى ماء . اما معان بالنسبة لهم فهي المركز التجاري والمدينة الكبرى – فيقصدونها بمنتوجاتهم وحيواناتهم التي يريدون بيعها ، ثم يعودون حاملين ما ابتاعوه من ضروريات الحياة البسيطه ، وهي مما يتوافر وجوده في اسواق معان .

أنشئت معظم أبنية البلدة من قوالب اللبن الترابي المجفف في الشمس ، والى الشمال الغربي منها توجد احياء تكاد تكون مهملة كلياً ، وهي تتهدم وتتهاوى تدريجياً (١) اما محطة سكة الحديد والمطار فيقعان الى الشرق من البلدة وعلى مسافة منها ، واكثر القادمين لزيارة البتراء يصلون الى هنا اما بالقطار او بالطائرات (٢) وفي المحطة فندق يأوي اليه المسافرون ، ورغم ان الفندق بسيط نوعا ما الا انه يفي بالحاجة . ولا يوجد في البلدة من الآثار مايهم الزائرين ، لان اقدم المنشئات فيها هي قلعة الحاج المربعة التي انشئت حينما كان الحسين ملك الحجاز ينوي ان يقف وقفته الاخيرة ضدالقوات السعودية بعد انتهاء الحرب

---

(١) يجري حاليا العمل في تعزيل الانقاض ونقلها تمهيدا لانشاء ضاحية على الطراز الحديث .

(٢) يستطيع المسافر بالسيارة من عمان ان يصل الى البتراء عن طريق معان في ثلاث ساعات فقط ، وذلك بعد انجاز الطريق الصحراوية التي انتهت سنة ١٩٦٠ .

العالمية الاولى (١). على ان الدلائل تشير الى ان انسان ما قبل التاريخ عاش هنا ، لانه كثيرا ما توجد معاول يدوية كبيرة من العصر الباليوليثي في قاع الوادي ، ولابد ان تكون مياه السيول قد جرفت هذه المعاول من مكان قريب ، لانها غير متآكلة كثيرا بفعل المياه .

تسير الطريق من معان غربا نحو البتراء والعقبة ، ولكن الطريق الى البتراء لم يتم شقها كلها حتى الان (٢) . ولا توجد مشاهد تستلفت النظر بين معان وراس النقب ، لان المنطقة كلها عبارة عن هضبة مطردة النسق ترتفع حوالي اربعة الاف قدم فوق سطح البحر . والطقس فيها بارد جدا اثناء الليل حتى في منتصف فصل الصيف . ولما كانت سكة الحديد تنتهي في راس النقب فان البضائع تنتقل بينها وبين العقبة بواسطة سيارات الشحن . وبعد ان يغادر المرء راس النقب وتنعطف به الطريق على حين غرة — فانه سرعان ما يرى اعظم المناظر جمالا وأدعاها الى الدهشة في الاردن على وجه الاطلاق . ذلك لان الهضبة تنتهي فجأة عند شقيف عظيم ينحدر هابطا الى السهل الساحلي على انخفاض ألفي قدم تقريباً ، وترى هنا السهل مغطى برمل ارجواني تتناثر فيه تلال من الحجر الرملي ، ذي الالوان الحمراء والبنية والبيضاء ، وتختلف اشكالها في نماذج مشرشرة غريبة . اما الى الجنوب الشرقي فيمكن مشاهدة جبال رم ذات الحجارة الرملية ، بينما ترى الى الجنوب الغربي الطرف الجرانيتي لسلسلة جبال الشراه (جبل سعير) التي تمتد منحدرة حتى العقبة . ويطلق على هذه المنطقة كلها حتى حدود المملكة السعودية اسم (حسما) . ان المنظر الذي تراه العين من رأس النقب واسع جدا ويصعب وصفه وصفا شاملا ، واذا كنت محظوظا واتيح لك ان تراه في الصباح الباكر او قبيل الغروب عندما تترامى عليه الظلال الطويلة ، فانك ترى منظرا لايمكن ان يطويه النسيان .

كانت تقوم في راس النقب قلعة نبطية متهدمة ، وهي واحدة من سلسلة قلاع انشئت لحماية طريق القوافل من الجزيرة العربية الى البتراء . ولكن هذه القلعة صارت محجرا تقتلع منه الحجارة لعمليات انشاء الطرق اثناء الحرب العالمية الثانية . وهنا قد لا نرى مبررا لان نرفع اصواتنا بالشكوى من هذا العمل ، لان الطريق جيدة ويمكن السير عليها في جميع الفصول ، مما لم يكن متيسرا فيما مضى . وتستدير الطريق وتلف في منعطفات دقيقة على

---

(١) لم ينشىء الملك حسين بن علي اية تحصينات حول معان ، ولكن هذه الاطلال هي بقايا التحصينات الدفاعية التي انشأها الاتراك اثناء الحرب العالمية الاولى عندما قام جيش الامير فيصل بالزحف على معان ومهاجمتها .

(٢) لقد تم الان تعبيد معظم اجزاء الطريق الغربية من عمان الى الكرك فالطفيلة فالبتراء .

منحدر الشقيف ، ثم لاتلبث ان تاخذ مجراها في السهل على خط مستقيم . وتبرز التلال الغريبة الشكل على جانبي الطريق ، ومع ان هذه التلال تبدو عارية بالكلية من اي آثار للعمران ، الا انه في الواقع يوجد على كثير منها برك نقرت في الصخر لحفظ المياه ، وسدود اقيمت بالحجارة . وترى على صفحات صخور كثيرة كتابات بالحروف النبطية والثمودية وأحيانا بالحروف اليونانية . وتوجد الى الغرب من الطريق غير بعيد عن سفح الشقيف ، خرائب بلدة الحميمة ، حيث ادار الحزب العباسي في القرن الثامن للميلاد ، المؤامرات التي أدت الى سقوط الدولة الأموية ، وانتقال العاصمة من دمشق الى بغداد ، ولكن خرائب الحميمة لا تبدو للعيان عند الطريق . وحوالي منتصف المسافة عبر السهل الى الشرق من الطريق ، يمكن للمرء ان يشاهد قلعة القويرة التي يتمركز فيها جنود قوة البادية الاردنية . وفي هذا الموقع ايضا كانت تقوم قلعة نبطية ، ولكن هذه القلعة زالت واختفت ، اذ استعمل بناة القلعة الحديثة حجارة القلعة القديمة للبناء ، ولكن البئر الكبيرة التي أنشأها الانباط ما تزال قائمة هناك وما تزال المياه التي تتجمع فيها تزود حامية القلعة وحيواناتها بما تحتاج اليه من ماء .

وعلى بعد بضعة كيلومترات الى الامام تتفرع درب باتجاه الشرق فتصل الى رمّ والمدورة ، وهذه الاخيرة هي آخر نقطة من مواقع الحدود الاردنية الجنوبية مع البلاد السعودية . وهنا تقترب الجبال من بعضها البعض ، وبعد بضعة كيلومترات اخرى تدخل الطريق في وادي اليتم . وفي هذا الوادي تسير الطريق معظم المسافة مع مجرى الماء ، لان الجانبين في غاية من الانحدار والوعورة بحيث يصعب رفع الطريق عن مستوى المجرى ، الا اذا رصدت لذلك اموال طائلة وانشئت جسور عديدة عليها . ونتيجة لهذا ، فالطريق كثيرا ما تكون في حالة سيئه ، وقد لا ترى منها في بعض المواقع الا قطع متفرقة من التعبيد الذى انشيء محاطا بالامال في صيف احدى سنوات الحرب ، وهي القطع التي بقيت بعد اول فيضان للماء في الوادى اثناء الشتاء(١) . اما الجهات المحيطة بجانبي الوادي الضيق العميق فمن حجر الجرانيت الذي تتخلله عروق سوداء وخضراء غامقة ، وهناك شقوق في الكتل الصخرية ملئت في العصور الجيولوجية البعيدة بالاتربة والحمم البركانيه .

---

(١) خلال السنوات ١٩٥٧ - ١٩٦٠ تم انشاء الطريق الصحراوية بين عمان والعقبة ، وهي طريق معبدة على افضل طراز تتخللها الجسور المتينة في مقاطع الاودية ، ولا ينقطع السير عليها صيفا او شتاء .

خربة الخالدي :

تقع خربة الخالدي غير بعيد عن مدخل الوادي ، وفوق الجانب الشرقي من الطريق بقليل ، وهذه الخربة احدى حلقات سلسلة القلاع النبطية التي انشئت لحماية طريق القوافل ، ويبدو ان المسافة بين هذه القلاع قدّرت على اساس مسيرة يوم واحد بين كل قلعة والقلعة التي تليها — شأنها في ذلك شأن القلاع التي انشأها الاتراك لحماية طريق الحاج من دمشق الى مكة . ان احداً لم يسط على حجارة هذه القلعة ، لذلك ما تزال جدرانها قائمـــة على ارتفاع مترين تقريبا ، مع ان حجراتها مملوءة بالانقاض المتراكمه . ومهما يكن من امر ، فقد تمّ اثناء الحرب رفع الانقاض من الآبار المحيطة بالقلعة ، وبدأ يستفـــاد منها مرة اخرى . ورغم ان الارض التي تسيل فوقها مياه الامطار لم يجر اخلاؤها من الحجارة — الا ان الآبار تكاد تمتليء بالماء خلال الفصول الماطرة . وقد نقر جانب من هذه الآبار في الصخر والجانب الآخر بني من الحجارة ، اما السقوف فقد انشئت بطريقة وضع مجموعة من الحجارة المستطيلة الرقيقة فوق اقواس ترتكز على جدران البئر . وقد عثر في احداها على قطعة نقود تعود الى العصر البيزنطي ، مما يدل انها كانت ما تزال قيـــد الاستعمال آنذاك . ولكن من المرجح ان انشاء القلاع والآبار المحيطة بها قد تم اثناء القرن الاول ق.م والقرن الاول ب.م .

خربة كثارة :

وهناك قلعة اخرى مشابهة ، تقع في ملتقى وادي اليتم (الجاد) مع وادي اليتم (العمران) ، وهي تدعى (خربة كثارة) وتشبه القلاع الاخرى في هندستها وطراز بنائها . وتمر الدرب الجنوبية الى وادي رم في وادي اليتم (العمران) ، ولكن عبور هذه الدرب يتعذر احيانا بسبب الرمال الكثيفة في بعض المواضع والتي تسفيها الريح بين الحين والآخر فوق الدرب فتسدها . ويضيق الوادي ضيقا ملحوظا ابتداء من هذا الملتقى وترى الصخور الجرانيتية الضخمة المتناثرة في ارجائه . اما جانباه فجبال ترتفع ارتفاعا يكاد يكون عموديا . وقبيل الوصول الى فم الوادي ترى عبره سداً قديماً هدمت جداره الصخور الضخمة التي تقذفها من علٍ مياه الفيضانات كل عام . لا توجد اية دلائل تشير الى تاريخ انشاء هذا السد ، ولكن من المحتمل ان يكون من بناء الرومان او الانباط .

بعد العبور بهذا الاثر بمسافة قصيرة ، تخرج الطريق من مضايق الوادي ، فترى البحر الاحمر يتوهج بفعل اشعـــة الشمس ازرق اللون رغم اسمه،ويا له من مشهد رائع : كتل الجبال المتراصّة الى الشرق والغرب طالعة من المياه اللازوردية ، وفي الوسط السهل الضيق المستقيم — ساحل الحصباء المرصّع باشجار النخيل .

العقبـــة :

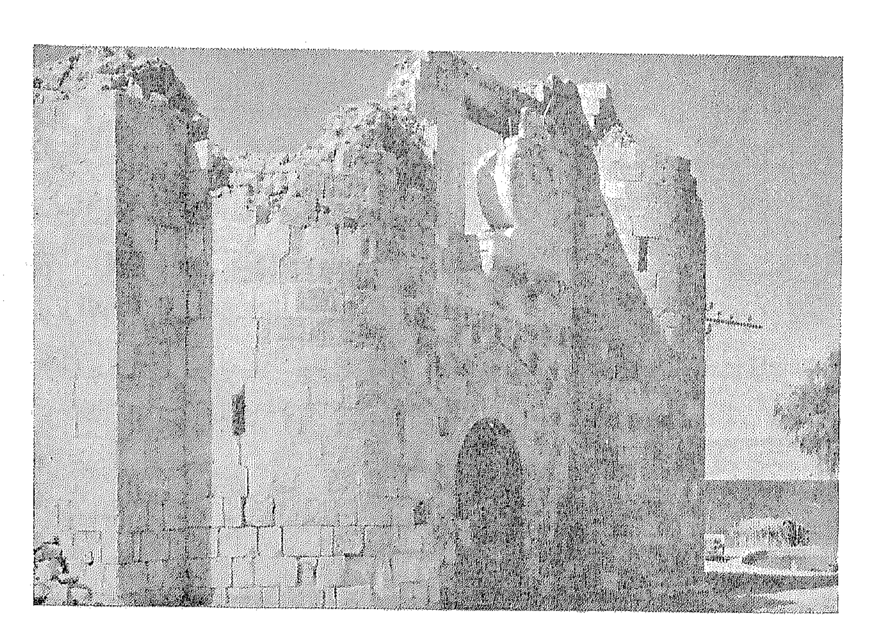
لم تكن العقبة قبل عشرين عاما سوى قريـــة صغيرة يشتغل اهلها بصيـــد السمك ، وتعشش بيوتها المبنية من الآجر التر ابي بين بساتين النخيل ، بينا تعمل الحمير في هوادة على ادارة الدواليب لضخ الماء (دولاب لكل بستان) من أجل سقي الخضروات واشجار الفاكهة التي تنمو هناك بسهولة ،ويكثر العصير فيها كما يكثر في نباتات المناطق الاستوائية . ويتوافر الماء النقي بغزارة في باطن الارض على عمـــق لا يزيد عن المترين تحت السطح ، ولو حفر المرء حفرة على بعد متر واحد عن طرف البحر لاستطاع الحصول على ماء صالح للشرب . وكان بعض الناس يزاولون اصطياد السمك بصورة غير منتظمـــة ، على اساس ان يكفي الناتج حاجات القرية المتواضعة . كما كان يسود الموضع جو سعيد من القناعة والرضى ، ترافقـــه حرارة الشمس ودفء البحر وبرودة الظلال في بساتين النخيل ، مما كان يضفي بمجموعه على المكان سحرا وعذوبة وهدوءا منعشا. على ان مدنية العالم الحديث كانت تعد العدة لغزو هذه القرية في هيئة معسكر للجيش ورصيف ميناء صغير . وهكـــذا اصبحت العقبة اليوم بلدة كبيرة مزدهره، والمنفذ الاردني الوحيد الى البحر والذى يتلقى الاردن عن طريقه معظم وارداته التجارية . وانك لترى في العقبة وكلاء تجار مدينة عمان ،وقد ذهبت القناعة والسكينة الى غير رجعة . وبالاضافة الى معسكر الجيش العربي ، فقد كان في العقبة حتى عام ١٩٥٦ معسكر كبير للجيش البريطاني غير بعيد عن البلدة ، ومن هنا صار القرويون على شيء من الثراء نتيجة للاموال المتدفقة .

ولكن العقبة اذ تغدو مرة اخرى مركزا للنشاط التجاري ،فهي انما تعيد تاريخها القديم ، لان أقدم الآثار التي عرفناها حتى الآن في جوارها ، تعود الى بلدة مهمة كانت تصهر فيها المعادن على بعد اربعة كيلو مترات الى الغرب من البلدة الحاليـــة . يدعى ذلك الموضع باسم (تل الخليفة) وهو تلة غير مرتفعة تكاد تقع في منتصف وادي عربة المقابل لمنتصف الخليج. ومع ان الموضع يبعد الان مسافة كيلومترين عن شاطىء البحر ، الا انه من المحتمل أن يكون هو

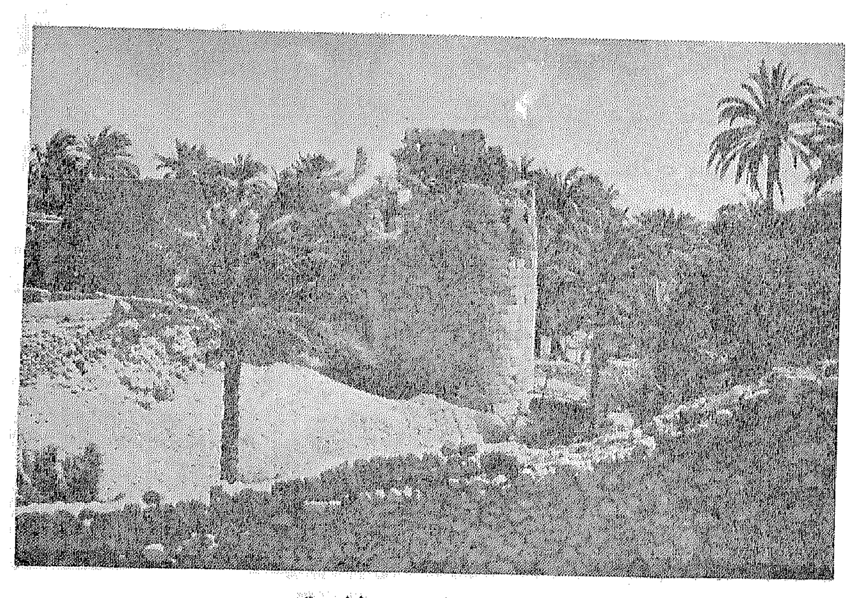
موضع (عصيون جابر) ميناء الملك سليمان ، لانه الموضع الوحيد في تلك الجهة الذي كان مأهولا بالسكان في تلك الحقبة . ومن المؤسف ان زيارة تلك التلة متعذرة الآن ، لأن خط الهدنة بين الاردن واسرائيل يكاد يخترقها . ولقد جرت حفريات في تل الخليفة خلال عامي ١٩٣٧ — ١٩٣٨ ولكن نتائج الحفريات لم تنشر حتى الان . وفي البداية كان مما يبعث على الحيرة اختيار ذلك الموضع لانشاء بلدة ما عليه ، لان ريحا عنيفة تهب نابحة مع وادي عربة قادمة من الشمال باتجاه موقع البلدة . ولكن عندما كشفت الحفريات عن سلسلة من الافران الكبيرة التي أنشئت لصهر النحاس في الجانب الشمالي من البلدة — بدا السبب (Furnaces) عندئذ واضحا ، لان الرياح كانت تؤمن وجـــود المجرى الهوائي اللازم لاشعال النيران في المصاهر . اما النحاس فقد كان يستخرج من مناجم وادي عربة .

ان تاريخ هذه البلدة يستغرق فترة تبـــدأ في القرن العاشر ق. م. وتنتهي في القـــرن الخامس ق. م. عندما اهمل أمر صهر النحاس كما يبدو ، وانتقل السكان الى موضع افضل واكثر قربا الى موقع العقبة الحالي من الجهة الغربية . وقد كشفت الحفريات عن علاقـــات بين البلدة القديمة وجنوبي الجزيرة العربية ، وتتضح اتصالاتها الخارجية من بقايـــا فخارها الذي يختلف اختلافات بينّة عن نمـــاذج الفخار التي تم اكتشافها في اي موضع آخـــر من فلسطين او شرقي الاردن . ولقد تم العثور على فخار ختم بخاتم يحمل اسم (كوس جابر) ملك ادوم ، وفي الطبقات العليا وجدت قطع فخارية عديدة من الطراز الاغريقي الجميـــل ذي اللونين الاسود والاحمر . وقد تبع تغيير الموضع تغيير في اسم البلدة أيضا . فصارت تدعى (ايلات) او (ايله) وهذا الاسم يطلق الآن على بلدة تقع على الجانب الغربي من الخليج.

لم تبق من المدن التي قامت بعد ذلك على أنقاض المدينة الاولى — بقايا ظاهرة : ولا بد ان تكون تلك البقايا مدفونة تحت كثبان الرمال او تحت التلال الاصطناعية ، وقد تراكمت فوقها مخلفات المعسكرات الحربية المختلفة . وفي احيان متفرقة تظهر للعيان قطعة ثبوتية على هيئة حجر منحوت او كسرة أثرية ، فاذا ما جمعنا المعلومات التي تزودنا بها هذه البقايا ، استطعنا ان نقول ان البلدة استمرت في ازدهار لا بأس به حتى مجيء الاسلام . ولقد بدأت طريق تراجـــان العظيمة من دمشق فمرّت بعمان والبتراء حتى بلغت العقبـــة ، ومن هناك تفرعت طريقان باتجاه الغرب ، احداهما الى مصر والاخرى الى فلسطين . ومما تم اكتشافه أيضا بقايا كنيسة مسيحية ، يبدو انها اقيمت على اسم القديسين (تيودور) و (لونجينوس) . وكان يقيم في العقبة مطران عندما بدأ الفتح الاسلامي ، ويذكر التاريخ لنا ان الخليفة عمر



قلعة العقبة التي تعود الى القرن الرابع عشر ،
ويبدو فوق الباب الرئيسي شعار الأسرة الهاشمية .



جانب من قلعـــة الأزرق

نزل عند ذلك المطران سنة ٦٣٩ اثناء احدى جولاته . وعندما جاء الصليبيون قاموا باحتلال العقبة. وفي عهد بلدوين الاول سنة ١١١٦ ب.م. انشئت قلعة على جزيرة (جراي Graye) التي تعرف الان باسم جزيرة (فرعون) قرب الساحل الغربي للخليج . ومن العسير تحديد التاريخ الذي انشئت فيه قلعة العقبة لاول مرة ، ولكن من المؤكد ان السلطان الناصر ، حوالي سنة ١٣٢٠ ب. م. كانت له يدٌ في ذلك . وهناك كتابة على بوابة القلعة ذكر فيها اسم قنصوه الغوري آخر السلاطين المماليك حوالي سنة ١٥٠٥ ب. م. بعد هذا تختفي العقبة من صفحات التاريخ وتبقى كذلك حتى الحرب العالمية الاولى عندما اصبحت قاعدة للجيوش العربية التي كان يقودها الملك فيصل .

وادي رم :

ليست زيارة وادي رمّ بالامر اليسير ، ولكنها جديرة بالمشقة التي يبذلها المرء في سبيلها . ويمكن الذهاب الى وادي رم ، اما من الدرب الجنوبية — اي من ملتقى وادي اليتم — او بواسطة الدرب الشمالية القريبة من القويرة . ولكن الطريق الجنوبية عسيرة المسالك بسبب وعورتها وكثرة المواقع الرملية فيها ، اما الطريق الشمالية فانها ايسر واسهل ولذلك يطرقها المسافرون اكثر من الاولى ، وخاصة لقلة الاماكن الرملية التي تغرص فيها الارجل والعجلات . على ان كلا الدربين تمران في اراض جميلة للغاية ، بل ان الشمالية منها تمر بسهلين واسعين من الارض الطينية ، ولكن عبور السهلين يغدو عسيرا بعد سقوط الامطار . وانها لمتعة يشعر بها سائق السيارة عند المرور بالارض الطينية المنبسطة ، وما عليه الا ان يتجه الوجهة التي يقصد ثم يملأ ناظريه من المشاهد المحيطة به وهو ناعم البال . والمشاهد خليقة بأن تسترعي الانتباه : من تلال صخرية وجبال ترتفع عمودية من بطن السهل المنبسط ، ومن اودية بعيدة الغور يمتد البصر طويلا معها الى الجنوب . وهنا تجد مرة اخرى بقايا كثيرة من عهد الانباط والسكان الذين سبقوهم مختفية في شقوق الصخور ، كما ترى رجوماً عديدة من الحجارة في اماكن متفرقة ، ومن المحتمل ان تكون هذه الرجوم اضرحة للموتى ولكن لم يظهر اي دليل حتى الآن يكشف عن تاريخ الزمن الذي تعود اليه .

ان وادي رم نفسه هو اكبر اودية هذه المنطقة وافخمها ، وهو جميل جمالا غريباً ، يملأ النفس بالاعجاب ، بل يبعث فيها الروع والرهبة . ولم ينجح أحد ، عدا الكولونيل لورنس ، في وصف هذا الموقع العجيب وصفاً مرضياً في الفصل السبعين من كتابه (اعمدة

الحكمة السبعة) . ومع ذلك فان مقدرة لورنس على الكتابة الوصفية لم تستطع في الحقيقة ان تنصفه كل الانصاف . واثناء اجتياز المرء للدرب بسيارته مع الجانب الغـربي من الوادي بعيداً عن المسيل الرملي — فانه يستطيع ان يرى هنا وهناك باحات مرصوفة قريباً من قواعد التلال ، ويحيط بكل باحة منها جدار غشيم من الحجارة المنتصبة ، بينما تتألف ارضية الباحة بدورها من حجارة غشيمة لم تصلح ادوات النحت اياً منها . وفي مواجهة منتصف الجدار الخلفي من كل باحة تقوم عادة مجموعة من ثلاثة حجارة منتصبة عمودياً ، واحياناً لا يكون هناك سوى حجر واحد . وهذه الباحات توجد فرادى واحياناً في مجموعات من خمس او ست ، وحتى الآن لم يكتشف احـد القصد من انشائها او التاريخ الذي تعـود اليه . واذا اوقفت سيارتك قريباً من اية صخور ضخمة قرب الدرب ، فمن المرجح ان تجد عدداً من الكتابات الثمودية منقورة على جوانبها . وتوجد في وادي رم مئات من هذه الكتابات القصيرة ومعظمها لا يزيد عن اعطاء اسم الكاتب واسم ابيه ، مع انك ترى احياناً الى جانب بعضها رسوم حيوانات او رسوم اشخاص ونحتها توقيع ينص على ان « فلان او فلان رسم هذا ». ومن المعلوم انه يمكن العثور على هذه الكتابات الغريبة في المنطقة الممتدة مـن جنوبي البلاد السعودية الى معان ، ولكن لا يوجد سوى القليل جداً منها الى الشمال من ذلك . من المرجح ان يكون رجال القوافل التجارية قد حفروا هذه الكتابات على الصخور ، خلال رحلاتهم بين جزيرة العرب والبتراء ، ومن الغريب ان احداً لم يكتشف حتى الآن نصاً كاملا بالحرف الثمودي . ولقد كانت قبيلة ثمود التي تنسب اليها هذه الكتابة ، تقيم قريباً من مداين صالح ، ابتداء من القرن الخامس ق . م . حتى القرن السابع ب . م . وقد ورد ذكرها في القرآن . واذا تأملنا هذه الآلاف من الكتابات التي ذكرناها — بدا لنا ان كل واحد من سكان تلك المنطقة في ذلك الحين كان يعرف القراءة والكتابة الى حد ان يكتب اسمه على الاقل — وهذه نسبة من التعلّم لا نرى ما يماثلها حتى الآن . وتكشف لنا الأسماء ان اصحابها كانوا مـن العرب ، لان الكثير منها ما يزال شائعاً حتى اليوم ، اما الكتابة فتنسب الى مجموعة الالفباء السامية الجنوبية التي لم يبق منها حياً حتى اليوم الا الكتابة الاثيوبية (الحبشية) وكان الاحباش قد نقلوها من جنوبي الجزيرة العربية . وتنسب الكتابـة النبطية كما تنسب الكتابة العربيـة الحديثة والكتابة العبرية — الى مجموعة الالفباء الساميّة الشمالية .

تقوم الى جانب جبل رم قلعة لجنود البادية الاردنية ، ولكن هذه القلعة تبـدو قزماً صغيراً امام الجبل الضخم الهائل الذي يرتفع ارتفاعاً يكاد يكون عمودياً الى حوالي ١٥٠

قدم ثم تميل قمته تدريجياً على ارتفاع ٥٠٠ قدم اخرى . ان الصخر الرملي يقوم على قاعدة من الجرانيت تبلغ كثافتها ٦٠ قدماً ، اما في الوادي الثاني الواقع الى الغرب والذي يسمى (وادي الرمان) فكثافة القاعدة تبلغ مئة قدم من الجانب الشرقي ، ولكنها غير موجودة بتاتاً في الجانب الغربي حيث يرتفع الصخر الرملي مباشرة من الوادي . ومـــن الواضح ان جميع هذه الاودية ، التي تتجه – على العموم – من الشمال الى الجنوب ، هي في الواقـــع سلسلة من الانهدامات الجيولوجية العظيمة التي شقت وفسخت كيان المنطقة كلها الى حد كبير ، بحيث ترى ان صخور الجبال في وادي اليتم كلها من حجر الجرانيت – بينما لا ترى الى الشرق من رم سوى الصخر الرملي ولا اثر لصخور الجرانيت التي تقوم عليها . وليس من شك في ان هذا التشقق كان مظهراً من مظاهر الانقلاب الطبيعي الهائل الذي كان من جملة نتائجه وادي الاردن والبحر الميت .

تبدو خلف القلعة من الجهة الغربية ، في محاذاة سفح الجبل ، خرائب هيكل نبطي من المرجح ان يكون قد انشيء في القرن الاول ق . م . وقد اجريت حفريات جزئية في هذا الهيكل ويستطاع رسم مخطط له على ضوء الخرائب المتبقية . كان الهيكل يتألف من ساحة مربعة تحيط الحجرات بثلاثة جوانب منها . اما الجانب الشرقي فقد كان مدخلا مفتوحاً يعبر الناس منه على سلسلة من الدرج . وكانت تزين جدران الساحة اعمدة متداخلة تغطيها طبقة من ملاط الكلس المدهون بلون المرمر . وأما في الوسط ، فيقوم المذبح الرئيسي ، وقد عثر هناك على جانب من تمثال حجري على هيئة آلهة جالسة . وهذا الهيكل يشبه هيكل خربـــة (التنور) ولكن على مقياس اصغر . وهنـــاك عين ماء في واد فرعي الى الجهة الجنوبية ، وتنساب مياه هذه العين بين طبقتي صخر الجرانيت والصخر الرملي ، وترى على صفحات الصخور المحيطة بها كتابات ونقوشاً نبطية عديدة تحت خطوطها الايام . ومن جملة هـــذه النقوش نقش يمثل احد الآلهة ، اما البركة الصغيرة الواقعة الى تحت فقد كانت سابقاً محاطة بالجدران . وتتفجر في جميع انحاء الوادي ينابيع ماء صغيرة ، وخاصة في شرم جبل رم ، وهذه العين الاخيرة أقواها وأغزرها ماء . ومن الواضح أن هـــذه العين كانت مقدسة في عصر الانباط ، مثلها مثل العين الواقعـــة على طريق (الدير) في البتراء . وترى فيما بين هذا الوادي والهيكل بقايا بئر ماء كبيرة ، ويمكن متابعة اثار القناة التي كانت تحمل اليهـــا الماء من العين .

واذا مضينا مسـافة أبعد الى الجنوب من القلعه ، في المدخل المؤدي الى وادي رم ، بلغنا ينبوع ماء آخر يتفجر من صفحة الصخر في الناحية الغربية حيث تنمو شجرة نخيل الى جانبه ، ويستمد الينبوع اسمه من النخلة اذ يطلق عليه اسم (عين ابو نخلة) . وقد كـانت تقوم قرية صغيرة في العصر النيوليثي على الارض المنبسطة الواقعة تحت هذا الينبوع مباشرة ، وعثر على أدوات صوانية دقيقة في ذلك الموضع كما توجد فيه آثار جدران . وبالاضـافة الى هذا فان الكتابات الثمودية المعهودة ، وجدت سبيلهـا الى كل مكان هنـا . وفي اول المدخل المؤدي الى الوادي ، ترى رسومـا غريبة لايتضح القصد منها . وهي عبـارة عن صفوف ، مفردة ومزدوجة ، من دوائر صغيرة جدا من الحجاره ، وهذه الرسوم توجد في منتصف المدخل وفي الطرفين الشمالي والجنوبي . ويبدو ان الدوائر الجنوبية ذات علاقة ببناء ما ، تدلنا الحجارة المنحوتة فيه على الدرجة ٤٥ بأنه بناء نبطي . ولكن من المتعذر على الباحث ان يصل الى تفسير معقول بشأن هذه الرسوم الدارسة والغرض من انشائها . وتجد في أودية عديدة الى الشرق من رم خرائب ابنية وسدود نبطية ، ولكن لايمكن الوصول الى هذه الخرائب الا سيرا على الاقـدام او على ظهور الجمال ، لان الرمال الناعمة تملأ معظم قيعان الاودية بحيث لاتستطيع السيارات ان تسير فيها .

ان زيارة رم تجربة مثيرة ، وخصوصـا الزيارة التي يقوم بها المرء لاول مرة ، لان رم تختلف تماما عن اي شيء آخر شاهده المرء في حياته . والحقيقة ان المكان الوحيد الآخر في العالم الذي يمكن مقارنته برم هو وادي كولورادو العظيم ، حيث يماثل تكوين الصخور ما نشاهده في رم ولكن على مقياس اعظم كثيرا .



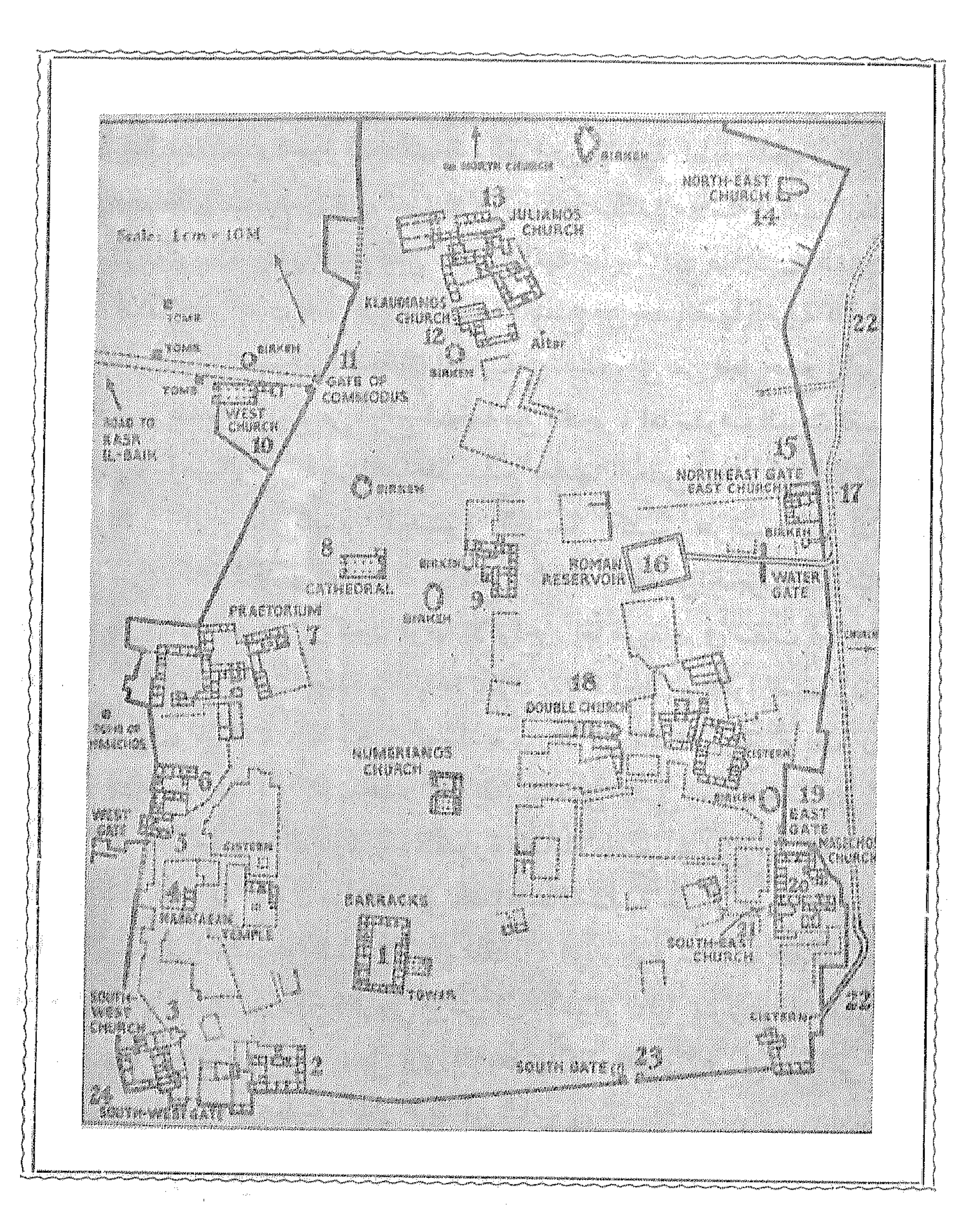
الفصل الثامن

أم الجمال : مدينة نبطية ـ الفترة المسيحية ـ اخلاؤها الخرائب .
قصور الصحراء : قصر الحلابات ـ حمام الصرح ـ الأزرق ـ قصير عمره ـ قصر الحرانة ـ قصر الطوبة ـ الموقر ـ المشتى ؛ كلوه .

ام الجمال :

تقع خرائب هذه البلدة البارزة على مسافة اثني عشر كيلو مترا الى الشرق من بلدة المفرق ، وعلى مسافة ستة كيلو مترات الى الشمال من طريق بغداد . وتقوم ام الجمال في طرف السهل الصحراوي المنبسط ، وهي واحدة من مجموعة كبيرة من البلدان المبنية من الحجر الناري الاسود والتي تمتد شرقا فتدخل حدود جبل الدروز ، واكبرها وأهمها بلدة (بصرى) الموجودة الان في سوريا . وتعتبر ام الجمال البلدة الجنوبية القصوى في هذه المجموعة . وهناك بلدة أخرى مماثلة تدعى (أم القطيّن) وتقع على مسافة خمسة وعشرين كيلو مترا الى الشرق من ام الجمال ، ولكن معظم حجارة هذه البلدة نزعت ونقلت الى اماكن أخرى لاستعمالها في البناء ، فلم يبق قائما من خرائبها واطلالها الا القليل القليل .

على المسافر عندما يبلغ مفترق الطرق عند بلدة المفرق ، أن ينحرف مباشرة الى طريق بغداد . وبعد ان يسير عليها مسافة قصيرة فانه سرعان ما يشاهد لطخة سوداء في السهل من الناحية الشمالية ، ليست سوى ام الجمال . واذا ما قطع المسافر مسافة تتراوح بين عشرة كيلو مترات وأحد عشر كيلو مترا بعد مفترق الطريق ، فانه يصل الى درب تفصل نحو الشمال وتتجه مباشرة الى ام الجمال . ويخيل اليك لاول وهلة عندما تقترب منها انها بلدة تمور بالحياة وليست خربة خاوية ، اذ ما تزال أبراجها ومنازلها قائمة وفي حالة طيبة من العمران ، كما يبدو من بعيد . تؤدي الدرب الى طرف البلدة حيث يدخلها المرء من خلال فتحة في السور الذي يحيط بالبلدة كلها ، ذلك لان البوابتين اللتين انشئتا اصلا في الجانب الجنوبي من السور قد سدتهما الحجارة المتساقطة . لقد بنيت المدينة كلها بالحجر البركاني الاسود ، وهو حجر خلفته البراكين التي قلبت باطن الارض على مسافات واسعة



مخطط مدينة (ام الجمال)

المدينة النبطية السمراء ، التي كانت تقوم حارساً يقظاً على حدود الصحراء المحيطة بمملكة الأنباط آنذاك من جهه الشرق .

تمتد الى الشمال والى الشرق وتعرف باسم (اللجـــاه) . ويوجد هذا الحجر عـــلى اشكال وأحجام مختلفة ، من الحجر الممتليء بالفقاقيع ذي الخشونة الشديدة ، والذي كان يستعمل في العصور القديمة لصنع الجواريش اليدوية والطواحين العادية لطحن الحبوب ، الى الحجر الدقيق الناعم الذي تستطيع أن تلمع حذاءك على صفحته لشدة ملاسته . لقـــد استعملت في البناء حجارة متوسطه الخشونة ، لم يكن نحتها وقطعها عسيراً رغم صلابتهـــا الشديدة . ومن الطريف ان نلاحظ الطرق الفنية التي ابتدعت للانتفاع من خصائصها الغريبة فقد بلغ الامر بالقوم الذين أنشأوها انهم تجنبوا استعمال الخشب في البناء حتى من اجل صنع الابواب احيانا كثيرة اذ انهم صنعوا ابوابهم من الواح ضخمة من الحجر ، اما سقوف البيوت فقـــد كانوا كذلك يقيمونها من الواح الحجر المتداخلة مـــع بعضها البعض ابتداء من الطرف العلوي للجـــدران . اما اذا كانت الفجـــوة العليـــا اكـــثر عرضـــا من ان تسقف بالالواح ، فقد كان الاقدمون يعمدون الى قطع دعامات دقيقة من الحجر ويضعونها متعارضة فوق الحجارة المتداخلة ، ثم يركبون فوقها الالواح . اما طريقتهم في سقف الحجرات ذات الاشكال الشاذة فقد كانت معقدة وغالبا ما تكون بدائية فجة . وكانوا يستعملون طريقـــة اخرى في سقف المنشئات ، الا وهي بناء سلسلة من الاعمـــدة المتقاربة ثم يضعون الالواح الحجرية متقاطعة فوقها ، وكانت هذه الطريقه تستعمل عـــلى وجه الخصوص في سقف الآبار . ونتيجة لاستعمال الحجارة بهذه الصورة الشاملة لجميع أغراض البنـــاء ، فان بعض الأدوار العليا لعدد من المنازل ما تزال على العموم بحالة سليمة حتى اليوم. اما بشأن المخططات العامة فان المنازل انشئت على النمط الشرقي المعتاد ، اي وجود ساحـــة سماوية تحيط بهـــا الحجرات ، بالاضافة الى درج خارجي يؤدي الى الأدوار العليا . ونرى ان منازل كثيرة كانت تضم اصطبلات ومذاود ، بل نرى ان بعضها كان يحتوي عـــلى مرحاض صغير او موضع للغسل انشيء في صلب الجدار قريبا من الباب .

يبدو ان ام الجمال كانت في الاصل بلدة نبطية لها بعض الأهمية بسبب وقوعها عـــلى الطريق الرئيسية الممتدة من الجنوب الى دمشق . ومن المحتمل أنها أنشئت في وقت ما خلال القرن الاول قبل الميلاد ، ولا يوجد في ذلك المكان أثر يدل على انه كان معمورا مأهولا قبل ذلك الحين ، ولا بد انه كان يشكل محطة لنزول القوافل . ومن المحتمل أن تكون الساحات المفتوحة العديدة في داخل البلدة ، قد اعدت لاقامة تلك القوافل العابرة ، التي ربما نشأت عنها التسمية التي نطلقها عليها اليوم (ام الجمال) . لا توجد أية آبار جوفية أو ينابيع في هذا

الموقع ، لذلك كان السكان يجمعون المياه التي يحتاجون اليها في برك اثناء فصل الشتاء . وكان كل منزل يحتوي على الاقل بئرا واحدة ، بالاضافة الى البرك العامة الكبيرة التي مـا يزال البدو في المنطقة يستعملونها حتى اليوم . ولقد وجدت بين الخرائب كتابات نبطيـة عديدة ولكن مما يؤسف له أن أيا من تلك الكتابات لاتحمل أهمية تاريخية اوتذكر لنا اسم البلده في تلك الايام . ويوجد خارج الاسوار عدد من الاضرحة النبطية الكبيرة التي كـانت تستعمل مدافن للعائلات ، وفي كل ضريح منها (شاهد) سجلت عليه اسماء الاشخـاص المدفونين فيه ، ولكن جميع محتويات هذه الاضرحة كانت قد سرقت في العصور الغابرة .

استولى الرومان على ام الجمال في اوائل القرن الثاني بعـد الميلاد ، مثلما استولوا على بقية البلاد . ومن المحتمل أن الرومان أطلقوا عليهـا اسم (ثانتيا) لان الجغرافيين القدامى يذكرون بلدة بهذا الاسم يتبين مما كتبوه عنها انها كانت تقع في هذه الناحية . وهنالك كتـابة تدلنا ان البوابة الشمالية الغربية انشئت في عهـد الامبرطور (كومودس) (١٦١ – ١٩٢ ب.م) . ولم تظهر حتى الان اية كتـابات أخرى تدل على البلدة ، ولكن مجملا بسيطـ لتاريخها يمكن استنتاجه من مبانيها ومن قطع فخارها المنتشر على أرضها ، ومن الكتابـات المحفورة في بعض كنائسهـا . ولقد استمرت البلدة في حياتهـا الهادئة الرتيبة خلال العصر الروماني وكذلك خـلال العصر البيزنطي ، ويبدو انهـا كانت في العصر البيزنطي مركزاً دينيا له بعض الاهمية ، اذ نجد بقايـا ما لايقل عن خمس عشرة كنيسة في هـذه البلدة الصغيرة . حقا لقد دخلت المسيحية الى ام الجمال في عهد مبكر لان كنيسة (جوليانوس) انشئت سنة ٣٤٥ ب . م . وهي اول كنيسة من الكنائس التي عثر على تواريخ انشائها فيما نعلم حتى الان . ولقد خلت ام الجمال من السكان في وقت ما أثناء القرن الثامن او التاسع ب . م .

لانكاد نرى اثرا يذكر في البلدة من اثار العصر النبطي الاول ، مع ان البناء الصغير (رقم ٤ في المخطط) يطلق عليه اسم الهيكل النبطي . والدلائل الثبوتية على التطـابق بين الاسم والمسمى تكاد تكون غير متوافرة ، ولكن البنـاء على اي حال يختلف في شكله عن شكل المنزل العادي . وهنالك بناء أثري من اثار العصر الروماني مايزال في حـالة سليمة ، وهو الثكنة رقم (١) ويتألف من ساحة مفتوحة تحيط بها ابنية من طابقين ، ولها برج في القرنة الجنوبية الشرقية تتخلله قريبا من السطح مزاغل لالقاء المقذوفـات . وكذلك نرى أن مدخل الثكنة الوحيد يحتوي على هذه المزاغل في أعلاه ايضا . ولقد تحولت هذه الثكنة في

العصر البيزنطي الى دير ، كما تدلنا الكتـابة الموجودة على دار البرج والتي تتخللها رسوم الصلبان . وهنالك بناء آخر يحتمل ان يكون قد انشيء في العصر الروماني ، الا وهو منزل الحاكم العسكري الروماني (Praetorium) رقم (٧) . ولقد كان هذا البناء على شيء من الفخامة ، ونرى سقف ردهة الاستقبال يتألف من الحجارة التي نحتت نحتا ناعما على شكل بسيط . اما قاعة الحكم ذاتها رواق يحيط بثلاثة جوانب منها . ولقد سبق ان ذكرنـا البوابة التي انشئت في عهد كومودس (رقم ١١) .

وتتألف معظم الأبنية التي يمكن الجزم بانها انشئت في العصر البيزنطي – من الكنائس ، مع ان كثيرا من المنازل يمكن ان تعود كذلك الى تلك الفترة . ونحن لانعرف تاريخ الانشاء لسوى كنيستين منها هما كنيسة يوليانوس والكاتدرائية التي انشئت سنة ٥٥٧ب.م. اما الاولى رقم (١٣) فبالاضافة الى كونها اقدم الكنائس فانها ايضا اضخم وأوسع كنيسة في البلدة. اما الثانية فصغيرة تمامـا (مثل كاتدرائية جرش) ولا يعرف اسمهـا . وهنالك كنيسـة كلوديانوس رقم (١٢) وقد اخذت اسمها لان كتابة تكريسها تذكر المعماري الذي بناها باسم كلوديانوس ، وهذا الامر نفسه ينطبق على كنيسة ماسيشوس (رقم ١٩) قرب البوابة الشرقية . اما الكنائس الاخرى فلا نعرف الاسماء التي كرّست عليها ، وهي الكنيسة الجنوبية الغربية (رقم ٣) والكنيسة الغربية رقم (١٠) والكنيسة الشمالية الشرقيـة (رقم ١٤) والكنيسة الشرقيـة رقم (١٧) والكنيسة المزدوجـة (رقم ١٨) والكنيسة الجنوبيـة الشرقية (رقم ٢١) .

ومن المنازل الجديرة بالملاحظة المجموعة (رقم ٢) حيث نرى بعض الامثلة الممتازة على الحجارة المتداخلة التي تشتهر بها هذه البلدة . ونرى في ساحة المنزل (رقم ٦) مذبحـا كبيرا حسن النحت وعليه كتابة نبطية دقيقة . وفي مجموعة المنـازل الخاصة (رقم ٩) ملامح عديـدة تستلفت النظر ، كالاسطبلات ، والمرحاض ، ونظام السقوف . اما البناء (رقم ٢٠) فقد اطلق عليه اسم قصر الحاكم لانه اكثر رحابة واتساعـا من معظم المنازل الاخرى ، وفي واجهته نوافذ ذات اقواس وعمود صغير .

واذا استثنينا بوابة الماء الواقعة في الجانب الشرقي ، وجدنا سبع بوابات تتخلل دائرة الاسوار : اثنتان الى الغرب (رقم ٥ ورقم ١١) واثنتان الى الشرق (رقم ١٥ ورقم ١٩) واثنتان الى الجنوب (رقم ٢٣ ورقم ٢٤) وواحدة في الجانب الشمالي لم تظهر في المخطط . ونحن لانعرف تواريخ انشاء هذه البوابات باستثناء البوابة رقم ١١ . ومـا نزال نرى حتى

اليوم في الجهة الشرقية غير بعيد عن الاسوار (رقم ٢٢) جانبامن شبكة اقنية المياه التي كان يجري فيها ماء الامطار لتملأ البرك والابار ، وكان معظم الماء ياتي من واد صغير الى الشمال حتى يصب في البرك الكبيرة المخصصة للاستعمال العام (رقم ١٦) .

ان شدة اسوداد الحجر ، لا تجعل منه منظراً جميلا في البناء ، لذلك لا يمكن الادعاء ان ام الجمال على شيء من الروعة والجمال . ومع هذا فان البلدة تثير الاهتمام لان ابنيتها ما تزال سليمة بصورة ملحوظة رغم أنها أنشئت قبل ١٣٠٠ أو ١٤٠٠ سنة . ومن خير الادلة على متانة نظام تلك الابنية ومقاومتها تقادم الزمن : ان قريـة صغيرة واقعة الى الشرق من ام الجمال وتضم عددا من المنازل الرومانية والبيزنطية — ما تزال صالحة للاقامة وتقطن فيهـا العائلات العربية ، لم يتغير فيها أي شيء منذ العهد الذي أنشئت فيه .

قصور الصحراء

يعود انشاء هذه « القصور » — باستثناء قصر الحلابات وقصر الازرق — الى عهد الدولة الاموية في القرن الثامن ب . م . ولقد كان الخلفاء الامويون بداة من عرب الحجاز من مكة والمدينة . ومع انهم كانوا يستمتعون بما في عاصمتهم دمشق من ترف ومباهج ـا انهم كانوا يحنّون الى قضاء فترات متقطعة في الصحراء التي نشأوا في ربوعها . ولكنهم بعد ان اعتادوا على الاقامة في منازل بدلا من بيوت الشعر ، فانهم عملوا على انشاء هذه العمائر ، التي كان معظمها على تنسيق رائع وتنظيم شامل ، في اماكن مختلفة من بادية الاردن وبادية سوريا . وفي هذه العمائر كان الواحد منهم يقضي بضعة أسابيع كـل سنة ، مستمتعاً بما في البادية من وسائل اللهو كالصيد والقنص ومباريات الفروسية . كما انهم كانوا يستمتعون بما توفره الحمامات من مسرّات ، وبما يصاحب ذلك من متعة الغناء والرقص التي كانت شائعة في تلك الايام . وتوجد نماذج من قصور اللهو هذه في البادية الى الشمال من دمشق ، ولكن أكملها تلك القصور القائمة في بادية شرقي الاردن ، وذلك القصر الرائع الذي نراه في خربة المفجر قريباً من اريحا . والواقع ان هذه القصـور تكشف بصورة تامة عـن ترف البلاط الاموي ، وحب الخلفاء للفنون ، وخاصة الرسـم والنحت والموسيقى والرقص . ويبدو أن الناس في ذلك العهد الاسلامي المبكر لم يكونوا يعترضون على صنع التماثيل اوالاشكال التي تمثّل الشكل الانساني والحيواني . وتعطينا الرسوم والمنحوتات التي زينوا أبنيتهم بها — فكرة واضحة عن الحياة في تلك الفترة .

قصر الحلّابات:

توجد بضع كتل من الحجارة نحتت عليها رسوم أشكال للزهور ، ويدلنا وجود هذه الحجارة في جوانب مختلفة من الخرائب ، ان بناء نبطياً كان يقوم أصلا في ذلك الموضع ، لان طراز النحت شديد الشبه بما اكتشف في خربة التنور ولكن لم يبق أي دليل غير هذا من آثار تلك الفترة الاولى . اما البناء الرئيسي والاسوار الخارجية التي نراها في أيامنا هذه ، فتعود الى العصر الروماني ، وتبين من كتابة تمّ العثور عليها قبل بضع سنوات أن البناء انشىء في عهد الامبراطور كراكللا (١٩٨–٢١٧ ب . م .) وهنالك كتل صغيرة عديدة من الحجر الناري الأسود ، بعضها أدخل ضمن الجدران الداخلية في القرنة الجنوبية الشرقية والبعض الاخر تراه ملقى بين الحجارة المتناثرة على الارض — وعلى هذه الحجارة أجزاء من كتابة باللغة اليونانية كانت في الاصل على شيء من التفصيل ، وهي تشير الى تجديد البناء في عهد الامبراطور جوستنيان .

لقد أنشأ الرومان هذه القلعة كحلقة في سلسلة من المخافر الصحراوية التي كانت مهمتها منع الغزوات بين القبائل البدوية ، ويوجد الى الشرق منها وعلى بعد بضعة كيلومترات جدار واطيء يمتد في خط مستقيم مسافة تقارب الخمسة كيلومترات عبر الصحراء . وبالرغم عن أن تحصينات شبه مستديرة أنشئت في مقاطع متباعدة من هذا الجدار ، الا انه يعتقد بأنه لم يبن إلا بقصد منع هجمات الخيالة البدو أو أيقاف تلك الهجمات الحربية ، كما لا يُشكّ بأن الجدار جزء من شبكة دفاعية شاملة . يقوم قصر الحلابات على تلة مرتفعة ، ولكن المرء الذي يقف فيها لا يستطيع روئية الجدار . أمـا مصادر الماء التابعة للقصر فقد كانت تتألف من عدد من الآبار ، بين كبيرة وصغيرة في الوادي الممتد الى الشمال والغرب .

تحوّل القصر في وقت ما خلال القرن السابع الى دير للرهبان . وهنالك كتابة على حجر تسجل هذه الحقيقة . ولكن الحجر نقل الى الزرقاء وأدخل ضمن جدار البوابة الرئيسية لمعسكر الجيش العربي فيها . اما البناء الصغير القائم خارج القلعة قريباً من القرنة الجنوبية الشرقية ، فهو جامع يحتمل أن يكون قد انشيء حوالي القرن الثاني عشر ب . م .(١).

(١) يظهر قصر الحلابات للمسافر على طريق الزرقاء — المفرق عند الكيلو ٤٥ .

حمّام السراح :

في السهل الواقع الى الشرق من قصر الحلابات ، وعلى بعد ثمانية كيلومترات تقريباً ، تقع خرائب مربع صغير أنشأه الامويون كـي ينطلقوا منـه في رحلات الصيد والقنص ، ويحتمل أنهم أنشأوا فيه بعض الحمامات كما يدل أسمه . يشبه هذا المربـع في مخططه العام وطراز بنائه الى حد بعيد — قصر عمرة قرب الازرق ، ولكنه ، في حالة محزنة من الخراب . ونستدل من بعض قطع الملاط او بعض القطع الملونة ان الجدران كانت فيما مضى مغطاة بالصور الملونة ، وهو ما نراه في قصر عمره . أما اعظم ما يستلفت النظر في حمام السراح فهو القبة المضلعة التي تقوم فوق قاعة المدخل .

الازرق :

تقع هذه الواحة الصغيرة على بعد ثمانين كيلومتراً الى الشرق مـن عمان ، وموقعها ملائم جداً من حيث انها تقوم على طرف المنطقة البركانية (Lava) التي تمتد الى الشمال والشرق منها . كما تقوم على رأس وادي السرحان ، ذلك الوادي العظيم القليل العمق والذي يشق طريقه حتى البلاد السعودية جنوباً ويغري المرء بالمسير فيـه واكتشاف مسالكه التي لا نعرف عنها الشيء الكثير . والازرق واحـة حقيقية ، ففيها عدد مـن حدائق النخيل ومستنقعات واسعة تغمرها المياه ، بحيث ترى في فصل الصيد الآفاً من طيور البط والطيور المائية الاخرى المهاجرة تتجمع هناك أثناء رحلاتها الطويلة ، ويغتنم الصيادون فرصة عبور هذه الطيور فتراهم يتسابقون لاصطيادها .

تقوم في الازرق قلعة من قلاع قوة البادية الاردنية ، وقد أبدت منظمة النقطة الرابعة الامريكية نشاطاً ملحوظاً خلال السنوات القليلة الماضية ، من اجل تجفيف بعض المستنقعات وشق القنوات كي تجري المياه فيها لري مساحة واسعة مـن الارض في الجهة الجنوبية . وخلال هذه العمليات تم اكتشاف موقع من أقدم المواقع الأثرية التي عثر عليها في الاردن حتى الان . فقد كان هناك نبع ماء الى الجنوب من القلعة — حجزت مياهه بفعل انهيار التربة ونمو الشجيرات الصغيرة ، واقتضت خطة العمل أن توسع المنطقـة المحيطة بماء النبـع في محاولة للحصول على كمية أكبر من الماء . وبدأ العمل في مساحة صغيرة لا تزيد على خمسة أمتار مربعة . وبعد ان أتم العمال حفر التربة على عمق متر واحد ، ظهرت عدة معـاول يدوية متقنة الصنع من العصر الباليوليثي . وتعمق العمال في الحفر فازداد عدد المعـاول المكتشفة ، حتى اذا ما بلغ الحفر الى عمق نصف متر تحت سطح المـاء ، اخذت المعاول اليدوية تظهر بكميات كبيرة . وهكذا تم الحصول على اربعمئـة معول من هذه الادوات

الدقيقــة بالاضافة الى عــدة مئات من الرقائق الحجرية (Flakes) ونمــاذج أخرى من الادوات التي كانت تستعمل في ذلك العهد . ومن سوء الحظ أن العمل لم يكــن يخضع الى مراقبة اختصاصية بعلم طبقات الارض. لذلك لا نستطيع أن نقول أكثر من انه تمّ اكتشاف موقع يعود للعصر الباليوليثي ، وان ذلك الاكتشاف كان مهمّاً للغاية وذا دلالات مثيرة ــ لانه لم يعثر حتى الان في أي موقع آخر على كمية كبيرة من أدوات ذلك العصر كهذه الكمية. ان هذه الاعمال الفنية تكاد تعود بأجمعها الى العصر الباليوليثي الاول ، اي الى ما قبل ٢٠ الف سنة تقريباً ، ولكن من الضروري القيام بحفريات منتظمة في ذلك الموقع من اجل تفسير المسائل الغامضة العديدة التي أثارها هذا الاكتشاف .

واذا أمعنت النظر ، رأيت سلسلة من الجدران القديمة تتعرّج في امتدادها بين البرك والبحيرات العديدة ، ويبدو أن لهذه الجدران علاقة بتنظيم جريان الماء . ولكن حتى الان لم يستطع أحد أن يصل الى معرفة تاريخ أنشاء هذه الجدران ، او الى كيفية النظام الفني الذي كانت تؤديه . وترى فوق بساتين النخيل من الجهة الشمالية ، قلعة ضخمة أنشئت بالحجر النــاري الاســود . اننــا لا نعرف تاريخ أنشائهــا ، ولكن من المؤكــد أن هذه القلعة مرّت بمراحل عديدة من أعمال الاصلاح والترميم والتغيير ، ومــن هذا القبيل نرى أقدم الادلة في كتابة باللاتينية واليونانية على مذبح هيكل ، وقد سقطت شظيتان منــه تراهما ملقاتين في ساحة القلعة . ان هذه الكتابة تنبئنا ان القلعة كرّست على اسمي الامبراطور ديوكليتيان والامبراطور مكسميان . ويعود تاريخ ذلك الى سنة ٣٠٠ ب.م. تقريباً . وهناك أيضاً كتابة اخرى تحمل اسم الامبرطور جوفيان (٣٦٣ ب . م) ومن المحتمل ان هذا الامبراطور قــام بترميم القلعة او زاد في بنائها . كانت هذه القلعة ما تزال مأهولة عامرة اثناء فترة الفتح الاسلامي ، ولكن الاشارة التالية التي تدل على تاريخ معين هي كتابة عربية فوق عتبة الباب الرئيسي ، تنبئنا ان عزالدين أيبك أنشأ القلعة (أو ربما بالاحرى أعاد بناءها) وكان أيبك هذا يحكم البلاد من حوالي سنة ١٢١٣ الى سنة ١٢٣٨ب . م . خــلال فترة الحروب الصليبية . بعد هذا لا نعرف شيئاً عن تاريخ القلعة حتى سني الحرب العالمية الاولى عندما إتخذها الكولونيل لورنس قاعــدة للعمليات العسكرية أثناء حملاته الاخيرة ، ثم بدأ منها يشن هجومه النهائي على الاتراك . ان الغرفة التي تقع فوق البوابة مباشرة ، كانت غرفة استقباله واجتماعاته . ولكننا لا نجد فيها اليوم سوى القاذورات ذات الروائح الكريهة (١) .

---

(١) لم يقم لورنس في الارزق سوى بضعة ايام ولكن الذي اقام فيها واتخذها قاعدة من قواعد الثورة العربيــة هو الشريف علي بن الحسين الحارثي احد قادة الثورة المشاهير. اما الذي شن الهجوم النهائي على الاتراك فهوفيصل بن الحسين قائد الجيش الشمالي . هذا وقد قامت دائرة الآثار مؤخراً بتنظيف القلعــة وازالة الانقاض وبذلت عنــاية كبيرة في تنظيف المسجد .

قصير عمره:

أنشيء هذا البناء الجميل خلال الفترة ٧٠٥ – ٧١٥ بعد الميلاد في عهد الخليفة الاموي الوليد الاول . ويبدو انه كان يؤدي غرضين فيستعمل مربعاً تبدأ منه رحلات الصيد ويستعمل كذلك للاستحمام . واننا نرى أن جميع حيطانه الداخلية كانت مغطاة بالصور والرسوم الملونة الجميلة الرائعة . ولقد بقي هذا الاثر حتى أيامنا هذه في حالة أفضل مما آلت اليه القصور الاخرى التي أنشئت في تلك الحقبة ، فهيكل البناء لم يصبه من الخراب الا قليل جداً ، سواء من فعل الزمن او الانسان ولا بد من أن موقعه البعيد كان سبباً من أسباب بقائه في هذه الحالة ، مع ان قصر الطوبه – وهو بناء آخر يعود الى نفس الحقبة – لم يسلم من الخراب رغم ان الوصول اليه يعتبر اكثر صعوبة من بلوغ قصر عمره .

مما يؤسف له ان تلفاً كبيراً لحق بالصور الملونة نتيجة للدخان والاقذار ومرور الزمن والاشخاص الذين كانوا ينقشون أسماءهم في كل موضع من جوانب الحيطان ، ورغم هذا فان تلك الرسوم ما تزال على أحسن حال في جوانب كثيرة . وقد جاء في « تاريخ الفنون البيزنطية » تأليف دالتون (Dalton) عن هذه الرسوم « لا يعرف ان زخارف واسعة كهذه الزخارف بقيت سليمة في أي بناء غير ديني أقدم من العهد الروماني – كما بقيت هذه الزخارف » . وتزدان أرضيات بعض الحجرات بالفسيفساء ، ولكن هذه تكمن مدفونة تحت كميات متراكمة من الاتربة والفضلات ، وليس من المحتمل أن يصار الى تعزيل ذلك الركام او الى تنظيف الزخارف قبل ان تجري الترتيبات لحماية البناء حماية كافية من أن تعبث به أيدي العابثين بعد ذلك (١) .

يواجه مدخل القصر جهة الشمال ، ويسير مباشرة الى قاعة عظيمة (A في المخطط) وقد سقفت هذه القاعة بثلاثة عقود تدعمها أقواس . ان الزخارف على الجانب الايسر وفي الحائط الشرقي ، لا تكاد تتضح معالمها ، ولكن يمكن القول انها كانت تتألف من مشاهد صيد وتشخيص للشعر والتاريخ والفلسفة في منفرج (Bay) الطرف الجنوبي . واذا انعم المرء النظر في الموضع القريب من الزاوية الشمالية في هذا الحائط – استطاع أن يرى فئة من كلاب الصيد السلوقية وهي تنبح بشدة ، كما يمكن أن يتعرف الباحث المدقق على بقايا رسوم أشخاص على رأس واضح في الطرف الجنوبي . والى اليمين في الحائط الغربي منظر

(١) قامت دائرة الاثار بتعزيل الاتربة المتراكمة داخل القصر ، واجرت فيه ترميمات من الخارج . وركبت له باباً من الحديد ووضعت عليه حارسا لحمايته من عبث العابثين والجهله.

سيدة تستحم (؟) وبعض المشاهد التي يبدو فيها نشاط منزلي أو رياضي ، وفي الطرف الجنوبي من هذا الحائط صور لستة من اعداء الاسلام ، وقد كتبت أسماؤهم باليونانية والكوفية وهم الامبراطور البيزنطي ورودريك آخر ملوك القوط في أسبانيا وكسرى ملك الفرس والنجاشي ملك الحبشة ، وأثنان آخران لا يمكن قراءة اسميهما (١) . لقد تسنم رودريك العرش سنة ٧١٠ بعد الميلاد ولقي حتفه في ميدان الحرب خلال السنة التالية .وهذا يعطينا تاريخاً قريباً جداً من التاريخ الذي صنع فيه هذه الجزء من الرسوم على الاقل . ومما يؤسف له ان هذه الصور أصيبت بتلف كبير . ويوجد الى جانب هذه الرسوم في الحنية الغربية للحائط الجنوبي — رسم شخص يمثل النصر (Nike) (٢) . ويمكن للمرء أن يرى على قاعدة كل قوس من الاقواس الكبيرة رسم فتاة راقصة ورسم موسيقار يعزف على آلة ذات اوتار ، بالاضافة الى رسوم اخرى غير واضحة المعالم .

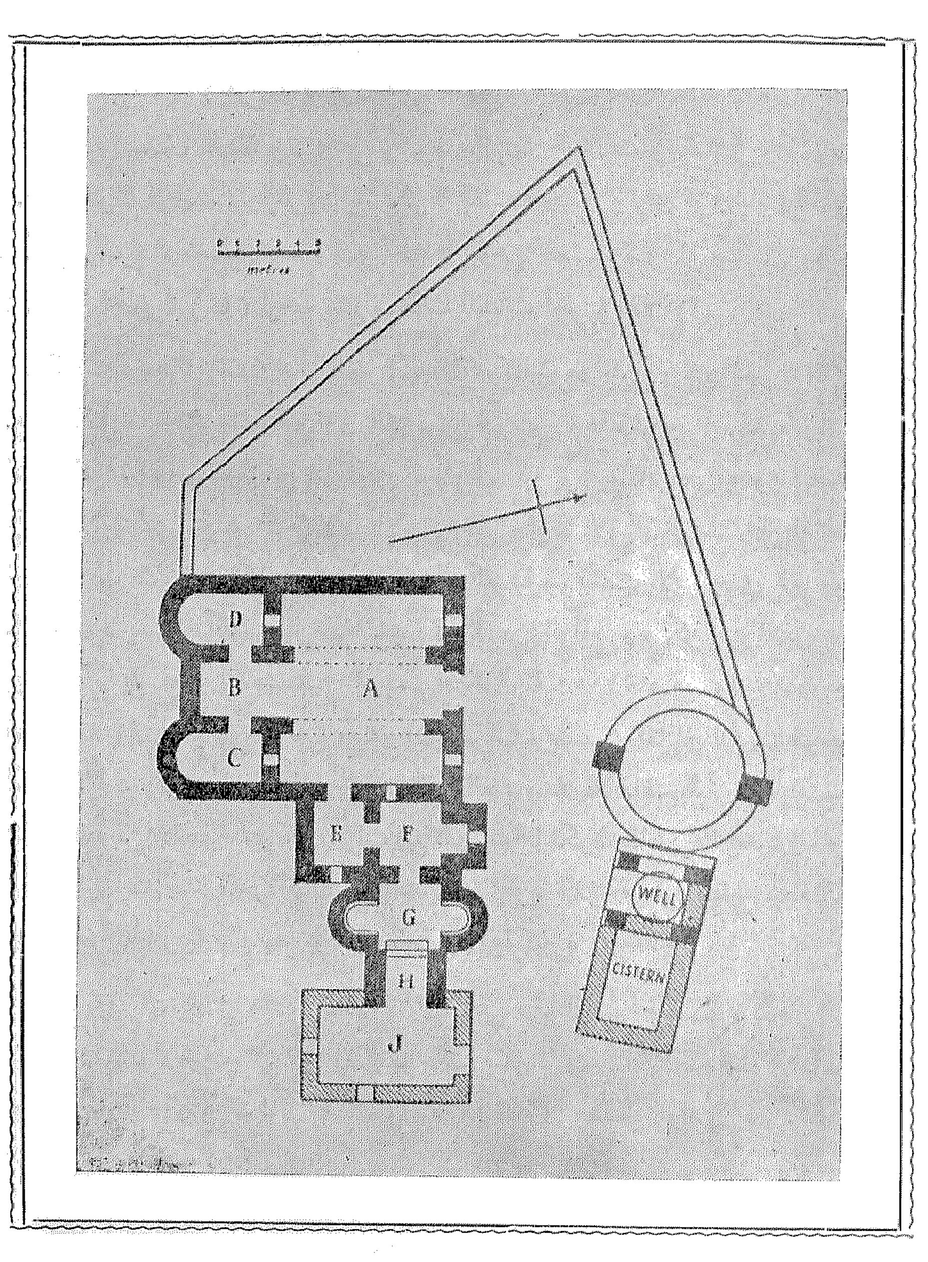
قسمت السقوف المعقودة الى افاريز مربعة ، وكل افريز يتضمن مشهداً من مشاهد العمل العادي : صانع فخار يقوم بعمله ، نجار ينشر قرامي الحطب ، فلاح ينكش الارض .. الخ . وفي حجرة الخلوة (B) والحجرتين (C) و (D) تعسر الرؤية بسبب قلة الضوء ، ولكن الحيطان الجانبية من الحجرة (B) كانت مدهونة بحيث تمثل الستائر بين الاعمدة ، وعلى الحائط الخلفي صورة لخليفة يجلس على العرش والى جانبي الصورة كتابة بالكوفية . ولقد كانت الجدران وسقوف الحجرتين (C) و (D) مزدانة بأشكال زهور ونباتات معروفة ، ولهذه الحجرات أرضيات من الفسيفساء .

تحتوي الحجرة (E) على بعض الرسوم التي ما تزال في حالة جيدة . وهنا أيضاً يقسم السقف المعقود الى افاريز ، يحتوي كل منها على صورة لاحد الحيوانات او لعصفور او لشخص انسان ،بالاضافة الى زهور طبيعية وأشجار. وترى فوق الباب المؤدي من الحجرة (A) رسم امرأة مضطجعة ورسم (ايروس) مجنّح شديد السمنة يبدو انه يحاول أن يغري السيدة بالنظر نحو شيء أصبح الان غير واضح . والى يسار النافذة ترى سيدة جالسة وهي ذات شكل عجيب ولكن لا تخفى ملامحها العامة ،والى اليمين رجل جالس أيضاً وظهره الى

---

(١) يستنتج فان برشم المستشرق السويسري ان الصورتين الاخريين هما لامير التركمان(او امبراطور الصين) ولداهر ملك السند (او احد امراء الترك) (القصور الاموية تأليف الاستاذ محمود العابدي).

(٢) في الميثولوجيا اليونانية ان(نايك) هو احد ابناء (ستايكس Styx) من زوجها (بالاس Titan pallas) وهو يمثل النصر.وقد تزوج بالاس هذه الحورية مكافأة لها على مساعدتها لالهة الاولمب اثناء ثورة التيتان Titans



مخطط قصير عمرة : الذي تقوم آثاره الى اليوم في بادية الاردن .
وهو يحدد الوضع الذي انشيء عليه عند بنائه ،

المتفرج ، وكلا الرجل والامرأة يتبادلان النظرات الحزينة المتشوقة عبر النافذة التي تفصل بينهما . ومع امتداد الحائط الشرقي يوجد مقعد طويل واطيء . وهذه الحجرة اكثر برودة ورطوبة من الحجرات الاخرى التي كانت تستعمل للاستحمام .

يحتوي سقف الغرفة (F) على رسوم غالبيتها لحيوانات وعصافير وأشخاص، بينما تزدان الجدران فوق الكورنيش بعناقيد الكرمة الطبيعية جداً . وترى فوق باب الحجرة (E) عدداً من رسوم النساء السمان ، وتبدو احداهن وهي تحمل دلواً او سلة . . وفوق الباب المؤدي الى الحجرة (G) لوحة تمثل سيدات بدينات أخر وطفلاً (؟) .

كانت الحجرة (G) هي الحجرة الدافئة ،وكانت مواقد النار في الممر (H) وكانت مقاعد في كل من حجرات الخلوة الى الشمال والجنوب . ولهذه الحجرة سقف رائع يثير الانتباه لان القبة رسمت لتمثل جانباً من السماء في الليل وعليها أبراج النجوم المختلفة في افلاكها . انها تمثل احدى المحاولات الاولى التي حاولها الانسان لرسم خارطة السماء على قبة ،وقد ظهرت في هذا الرسم بعض الاخطاء الغريبة ووضعت الابراج في غير مواضعها. لهذا السبب لا يستطاع تقدير تاريخها تقديراً قريباً من الواقع ، ولكن من المتفق عليه ان تاريخ انشائها يقع بين السنة ٥٠٠ ب . م . والسنة ١٠٠٠ ب.م . وتوجد وراء ذلك : الحجرة (J) ولها باب خارجي ويبدو ان عمرانها لم يتم . اما الى الشمال فتوجد البركة والبئر وبقايا عمودين كانا يدعمان جهاز نشل الماء ، وتملأ الانقاض البئر في أيامنا هذه . وهناك أيضاً بقايا بناء مستدير الى الغرب من البئر وربما تكون بقايا بركة اخرى ، ومن هذا البناء المستدير يمتد جدار نحو الغرب ثم يستدير في زاوية منفرجة حتى يتصل ببناء القصر عند زاويته الجنوبية الغربية ، وبهذا يؤلف ساحة سماوية كبيرة .

يقع قصر عمره في وادي البطم ، وقد دعي بهذا الاسم نسبة لأشجار البطم التي تنبت فيه ، تلك الاشجار التي تؤلف مجموعات صغيرة تمنح الظلال المنعشة في ذلك المحيط القاحل . وفي أيام الربيع تتكون غدران واسعة من الماء في بطن الوادي فترد اليها الغزلان وكثير من الحيوانات البرية .

قصر الحرّانه

هذا هو القصر الصحراوي الوحيد في الاردن الذي يبدو انه أنشيء لمقاصد دفاعية . يبدو هذا القصر لمن يراه قلعة مربعة الجوانب مهيبة المنظر ، يقوم في كل زاوية من زواياه برج مستدير بالاضافة الى برج نصف مستدير بين كل زاويتين . ترى الجدران العالية وقد

فتحت فيها شقوق للسهام ونوافذ صغيرة فوقها . والمدخل الوحيد للقصر في ناحيته الجنوبية يكتنفه من الجانبين بروز في الجدار ربع مستدير ، وفوق هذا الباب نافذة كبيرة وصف من المحاريب المزخرفة . وما يزال هناك بعض الاختلاف في الرأي حول تاريخ انشاء هذا القصر ، اذ يرى بعض الباحثين أنه انشيء قبل الاسلام ، ولكن هناك كتابة كوفية ملونة فوق باب احدى حجرات الطابق الثاني من الجهة الغربية وهي تحمل تاريخ سنة ٩٢ بعد الهجرة ، وهو تاريخ يوافق شهر أيلول ٧١١ ب .م .

يمكن للمرء ان يرى في النافذة القائمة فوق مدخل القصر دعامة من الخشب بمثابة عتبة عليا (حلق). ولو امكن فحص قطعة من هذه الدعامة الخشبية بواسطة (كربون ١٤ـ Carbon 14) فربما استطعنا ان نحل نقطة الاختلاف حول انشاء البناء . وترى في قائمة كتف الباب من الجانبين حجرين كبيرين يحمل كل منهما بقايا كتابة يونانية ، وهذا يشير الى أن بناء آخر كان يقوم في هذا الموضع او في موقع قريب منه إبان العهد البيزنطي او اواخر العهد الروماني ، وان موقعه المشرف على الطرف العلوي من الوادي الى الجنوب ، حيث تلتقي عدة دروب من جميع الجهات ومن جملتها وادي السرحان — يجعل منه قلعة استراتيجية .

يؤدي باب المدخل الى ممر طويل ، تقوم على جانبيه حجرات طويلة ذات عقود وأقواس ، كانت تستعمل اسطبلات . بعد ذلك يتقدم المرء الى ساحة سماوية توجد في جانبيها سلسلتان من الدرج تؤديان الى الطابق العلوي . وفي الاصل كان يحيط بالساحة ثمانية أعمدة مربعة تقوم فوقها شرفة . والحقيقة ان مخطط الطابق الارضي في غاية البساطة ، اذ يتألف من حجرة كبيرة واسعة ، في كل من الجوانب الشرقي والغربي والشمالي ، تحيط بكل منها حجرات أقل مساحة ، وتمتاز هذه الحجرات الارضية بالبساطة وعدم وجود الزخارف . ويعتبر مخطط الطابق الثاني نسخة طبق الاصل للطابق الارضي ، فيما عدا الجانب الجنوبي حيث قسمت المساحة التي يتألف منها كل اسطبل الى خمس حجرات . والحجرات جميعها ذات سقوف معقودة فوق أقواس ، وفي الحجرات الكبيرة تعتمد أضلاع الاقواس على مجموعات من الاعمدة تتألف كل مجموعة من ثلاثة أعمدة متصلة .
وقد امكن استعمال الملاط الشديد الصلابة لحفر الاشكال الزخرفية ،وخاصة فوق الاقواس والدعائم القائمة في الزاويا الخ. وتنتهي بعض الحجرات في شبه قباب ، تعترض زواياها دعائم داخلية لزيادة المتانة (Squinches) . ويزدان عدد قليل من الحجرات بصور كبيرة من الملاط المحزز أو معجون المرمر ، ويبدو هذا أحياناً في إطارات من الحجر . وترى

فوق الباب الشمالي للحجرة الغربية الكبيرة ، الكتابة الكوفية التي سبقت الاشارة اليها ، كما ترى بقايا كتابات أخرى كثيرة (بالاضافة الى علامات خاصة بالقبائل وما شابه ذلك) وقد نقشت وخططّت على الجدران والاعمدة .

لقد أنشئت الاقواس والعقود بطريقة ذات خاصية منفردة ، اذ كان ذلك يتم بوضع قطع رقيقة من الحجر فوق بعضها البعض مع انحراف بسيط في زاوية كل حجر ، وتثبيت تلك الحجارة بمقادير من الملاط الصلب تكاد تكون مساوية لها . وهذا النمط واضح جـداً في الحجرات التي تقشر الملاط عن سقوفها ، كما ان هذه الطريقة مماثلة للطريقة التي استعملت في إنشاء قصر الاخيضر الكبير في العراق ، ذلك القصر الـذي تختلف الاراء أيضا حول تاريخ إنشائه .

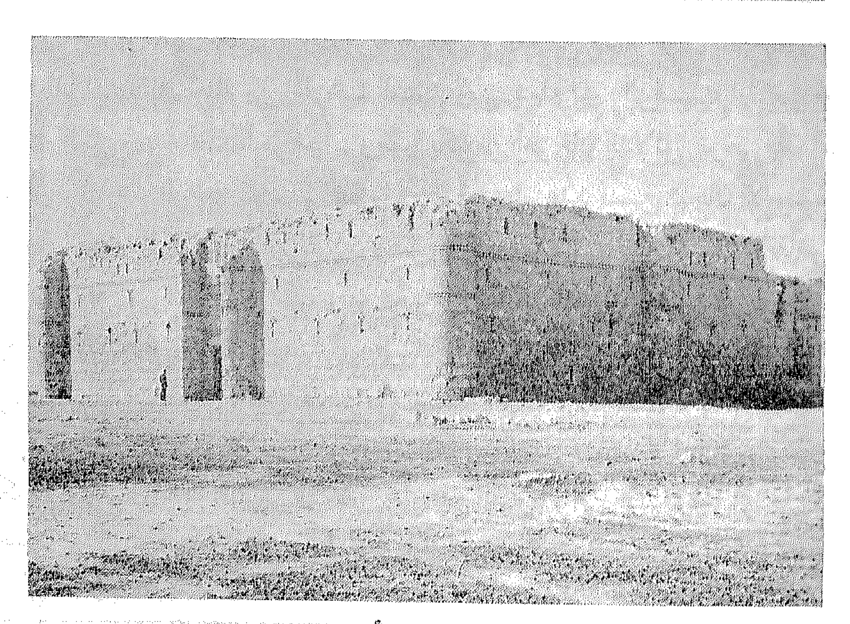
ما يزال هذا البناء قائماً في حالة جيدة ، ولكن زلزلة ارضية تسببت (سنة ١٩٢٧) في حدوث شق ضخم في الجدار عند القرنة الشمالية الغربية ، إبتداء من سطح البناء حتى أصله (١) . ومن الامور الغريبة بالنسبة لهذا الموقع ما يبدو من عدم وجود ترتيبات للحصول على الماء ، اذ لا توجد فيه برك او آبار . ذلك لان غدران الماء التي تتكون في الوادي في فصل الشتاء لا يستطاع الاستفادة منها الا في فصل الربيع ، ولا شك أن بناء ضخما كهذا البناء أُنشيء لاقامة الخيول والرجال — يحتاج الى مياه غير مياه الغدران . ومن الدلائل القوية على وجود ماء في مكان ما حول القصر ، الحادثة التالية : فقبل بضع سنوات ، اثناء القيام بزيارة لقصر الحرانة في أوائل الصيف ، لوحظ كلب أبيض صغير يتجول حـول الموقع كأنه ليس غريباً عنه ، مع ان احداً من الناس لم يكن يقيم قريباً مـن هناك وعلى مسافة عـدة أميال . وبعد مضى شهرين ، قام شخص آخر بزيارة الحرانة ، فشاهـد نفس الكلب الابيض الصغير ما يزال مقيما هنالك ، ومن المعلوم ان الكلاب لا بد أن تجد ماء تشرب منه . ومـن الواضح ان الكلب نجح في حل المعضلة التي مـا نزال حيارى تجاهها : مـن أين كان سكان الحرانة يحصلون على مائهم ؟ !

وعلى بعد حوالي كيلو مترين الى الجنوب الغربي من القصر ، في بطن الوادي ، يوجد موقع بديع من العهد الباليوليثي — الماسوليثي ، حيـث تغطي الارض الاف من الادوات الصوانية . ولكن ليس من السهل العثور عـلى ذلك الموقع نفسـه ، لان القطع الصوانية الطبيعية توجد بكثرة في تلك المنطقة المجاورة .

---

(١) قامت دائرة الاثار بسد هذا الشق وترميمه

احد ابواب قصر (الطوبة) كما يبدو من الداخل ، ويظهر فيه طابع الفن المعماري الذي كان متداولاً آنذاك



قصر الحرانة: القلعة الأموية الحصينة

قصر الطوبة :

الى الجنوب من الحرانة وعلى بعد ٤٦ كم تقريباً ، يقوم قصر آخر من قصور الامويين ويدعى قصر الطوبة : انه اكثر القصور الصحراوية بعداً الى الجنوب ، اما انه أموي فواضح من طراز النحت على الحجر ، ولكن طراز النحت هو الدليل الوحيد على تاريخ انشائه . ويختلف هذا القصر اختلافاً بيّناً عن القصور الاخرى ، اذ انه انشيء من حجارة وآجرّ ترابي على السواء ، كما انه أيضاً – بعد قصر المفجر في وادي الاردن – اكثر ضخامة من تلك القصور كلها ، او ان النية كانت متجهة الى انشائه بهذه الضخامة لان بناءه لم يتم كلياً وقد انشيء قصر الطوبة على ان يتألف من جناحين متشابهين ، ولكن انشاء معظم الجناح الجنوبي لم يتجاوز مرحلة الاساسات . وترى في الجناح الشمالي بعض الغرف الكبيرة الجميلة بعقودها المرتفعة التي بنيت بالآجر الترابي . ولكن القصر في حالة شديدة من الخراب رغم بعده . وفي الاصل كانت عتبات الابواب وقوائم الاكتاف تتألف من حجارة نحتت نحتاً فنياً جميلا ، ولكن معظم هذه الحجارة أصابتها الايدي بالتحطيم او نقلت بعيداً . ويمكن للمرء أن يشاهد في متحف عمان مثالا طيّباً لعتبة من عتبات الابواب (١).

الموقّر :

توجد بقايا قصر اموي آخر ، هو قصر الموقر ، على بعد حوالي ٣٥ كم غربي الحرانة على الدرب المؤدية الى عمان حيث توجد قرية صغيرة وقلعة من قلاع قوة البادية الاردنية . والواقع ان هذا القصر في حالة من الخراب الشديد حتى يتعذر في الوقت الحاضر تحديد المخطط الذي انشيء عليه تحديداً مرضياً . ومهما يكن من أمر فان الدلائل توحي بأن القصر كان مزداناً بالزخارف الرائعة ، اذ تم العثور في موقعه على عدد من تيجان الاعمدة التي نحتت نحتاً متقناً ينحو الى الطراز البيزنطي . وقبل بضع سنوات ، أثناء تعزيل الانقاض من احدى البرك الكبيرة الى الشرق من القصر ، عثر على عمود كامل ، وقد حفرت على تاجه كتابة كوفية جميلة تضع تاريخ البناء – او على الاقل تاريخ انشاء البركة – في عهد الخليفة عبدالله يزيد (يزيد الثاني) الذي حكم من سنة ٧٢٠ – ٧٢٤ ب . م . كما ان الحجارة الضخمة التي يتألف منها العمود ، تحمل كتابات على مسافات متساوية كدليل على المقاييس بالخط الكوفي ، وترى كتابة المقياس الاخير على تاج العمود وهي ١٥ ذراعاً اي ما يقارب ارتفاع عشرة أمتار . ولا بد أن العمود والتاج كانا يقومان في منتصف البركة للدلالة على كمية الماء التي تحتوي عليها ، ولا شك ان عشرة امتار ليست بالعمق البسيط .

(١) سبب خراب قصر الطوبة يعود الى جريان الماء حول أسواره .

المشتى :

يقع هذا القصر الى الجنوب الغربي من الموقر على بعد حوالي عشرة كيلو مترات ، واذا اراد المرء أن يصل الى هذا القصر من عمان ، فعليه أن يسير في طريق معان ثم ينحرف يساراً عند مفترق طريق اليادودة وبعد ذلك يستدير يساراً عند قرية الطنيب وهي أول القرى التي تصادف المسافر هناك .

ومرة اخرى تحيط الشكوك بتاريخ انشاء هذا القصر ، خاصة لعدم وجود أي نوع من الكتابة التي يمكن أن تنير سبل المعرفة ، ولكن معظم الباحثين يتفقون على ان طراز البناء يعود الى العهد الاموي أي في القرن الثامن للميلاد . لم يقدر لهذا القصر أن يتم بناؤه. وكانت الواجهة كلها في الاصل مغطاة بالزخارف المتقنة التفصيلية ، ولكن حدث قبل الحرب العالمية الاولى ان السلطان عبد الحميد العثماني قدّم القصر هدية الى قيصر ألمانيا ، وهكذا نزع الجبص المزخرف عن الواجهة ونُقل الى برلين حيث أقيم في احد متاحفها . وما تزال قطع قليلة من الواجهة باقية في مواضعها ، كما يمكن روئية بعض القطع ملقاة على الارض قرب البوابة الرئيسية ، وهذه القطع تعطي فكرة عن طراز هذه الزخارف المعقدة (١) .

يتألف موقع البناء كله من حظيرة مربعة عظيمة ، قسمت الى ثلاثة أجزاء متوازية الاضلاع ، ويمتد الجداران الجانبيان على طول الحظيرة كلها . اما الاوسط فقد قسم الى ثلاثة اقسام . ويحتوي القسم الاول وهو الاقرب الى البوابة ، على أساسات مجموعة من الحجرات ، وكان الثاني بمثابة ساحة مفتوحة . اما القسم الشمالي فيتألف كلياً من دار للسكن ويبرز الإيوان العظيم في هذا البناء اكثر من سواه ،وهو على شكل ورقة البرسيم ويدخل المرء اليه من باب واسع ذي ثلاثة أقواس ، وتبدو حجارة الاقواس المنحنية ملقاة على الارض بالترتيب الذي كانت عليه قبل سقوطها . وقد كان هنالك قبة كبيرة من الآجرّ المشوي فوق ذلك الجانب من الإيوان الذي يشبه شكل ورقة البرسيم ، وترى الحجرات الاخرى كلها، وقد بنيت عقودها بالآجر المشوي . ويعتبر استعمال الاجر المشوي في إنشاء البناء أمراً غير عادي ، وخاصة في هذا الطراز من الابنية ، وقد نتج عنه تقارب كبير في الآراء حول جنسية البنائين الذين قاموا بتعمير القصر . مع العلم أن قصر الطوبة بني بالآجر المجفف بفعل حرارة الشمس وليس بالآجر المشوي .

---

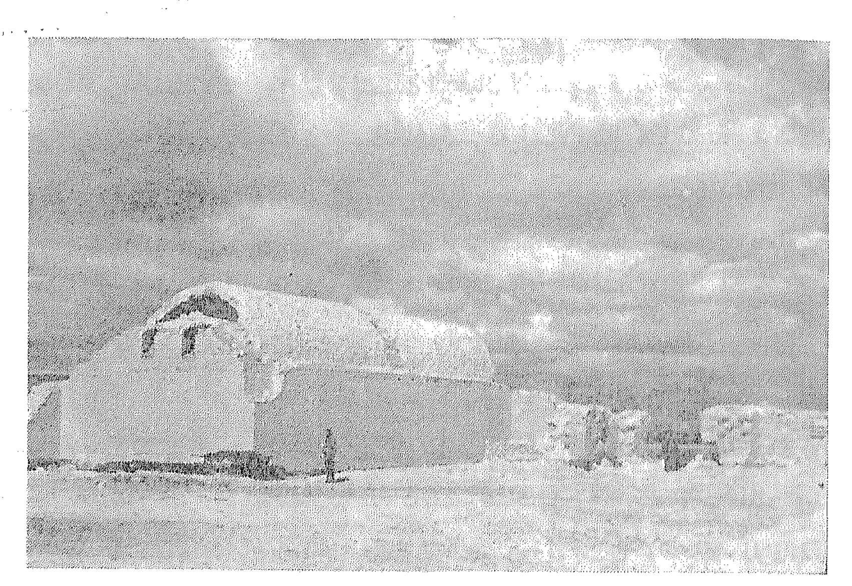
(١) نقل الالمان واجهة القصر عام ١٩٠٣ وقد أتيحت للمترجم مشاهدة زخارفها المدهشة قائمة في قاعة كبيرة من قاعات متحف برجامون (Bergamon) في برلين الشرقية (نيسان ١٩٦٤) .

وفيهما بقايا بالقرب من الشرقي والغربي مـــن الحظيرة . فالدلائـــل تشير الى ان النية كانت تتجه الى انشاء مزيد من الحجرات على طول المساحة كلها ، ويبدو هـــذا من أن حجارة عديدة بقيت بارزة الاطراف من جدار الحظيرة لكي يجري اندماجها مع الجدار المقابل عند انشائه . ولا تبدو للعيان أية آبار أو مصادر ماء في الموضع ، ولكن من المحتمل ان تكون هناك آبار مدفونة تحت الارض . ان كمية الانقاض القليلة وكذلك الحجارة والآجر الملقاة داخل الحظيرة — تدل دلالة واضحة على ان جزءاً من البناء تـــم انشاؤه فحسب . أضف الى ذلك ان زخرفة الواجهة لم تتم الا في رقع متقاربة ، ومما يؤسف له أن الكثير من حجارة البناء المنحوتة ، سُلبت ونقلت الى زيزياء (الجيزة) لبناء محطـــة سكة الحديد ، ومنازل القرية .

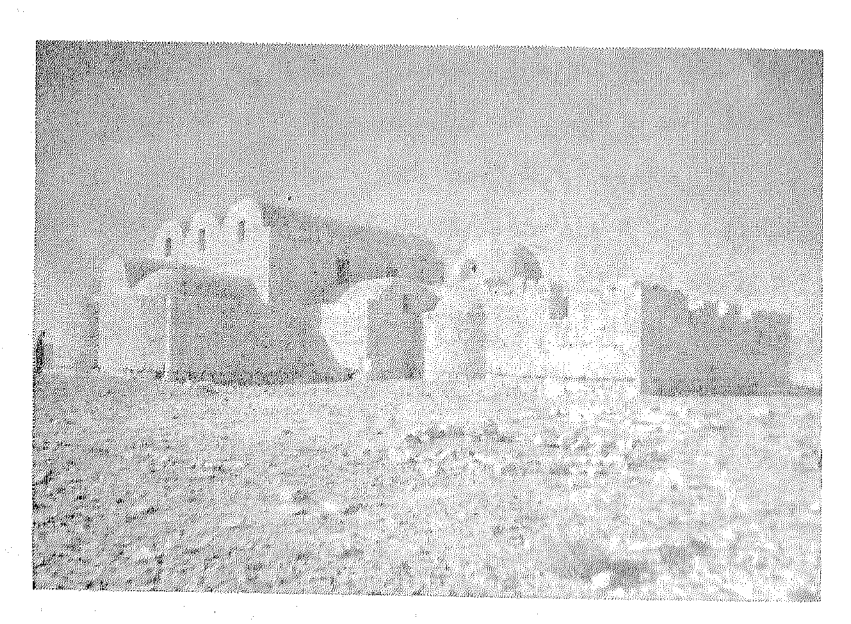
كلوة :

لا مندوحة من ذكر موقع آخر في الصحراء الشرقية ، مع انه من المستبعد أن يتمكن كثيرون من الزوار أن يشاهدوه ، لانه يقع في قلب جبل الطبيق الى الجنوب الشرقي مـــن معان . هذا الموقع يعرف باسم (كلوة) على بعد حوالي ١٨٠ كم من معان ، ويكاد يكون من المستحيل أن يبلغ المرء اليه بالسيارة دون دليل يرشده ، اذ بالرغم من علامات الدروب التي تظهر على خارطة البلاد الخاصة بالطرق ، فان هذه الدروب تتبدل كثيراً من وقت الى وقت نتيجة لزحف الرمال التي تذروها الريح أو بسبب سيول الماء العرمة . تسير الدرب من معان فتمر بالجفر حيث يقوم القصر المربع الذي أنشأه الشيخ عوده ابو تايه الحليف المشهور للكولونيل لورنس أثناء الحرب العالمية الاولى (١). وبعد الجفر تمر الطريق بمسافات طويلة من الارض الطينية المنبسطة حتى لتشبه في انبساطها وملاستها صفحة الكف ، ثم يبدأ عبور المناطق الوعرة حيث كثبان الرمال ومقاطع الاودية العسيرة . ولكن المناظر التي تشاهدهـــا العين رائعة جدا ، اذ تبدو للعيان على حين غرة سهول واسعة تحيط بها الجبال ، تلك الجبال التي تغطي منحدراتها رمال لامعة حمراء . وقد يرى المرء بين حـــين وآخر شجرة قميئة تدل على العري العام في تلك المنطقة ، حتى ان المرء يشعر حقاً بأنه أصبح بعيداً عـــن العالم .

(١) هكذا يعمد الاجانب الى إضفاء الهالات البراقة حول اسماء رجالهم . لقد كان عودة ابو تايه احدفرسان الثورة العربية التي اعلنها الحسين بن علي، ولم يكن هناك داع لتحالفه مع لورنس الذي لم يكن سوى ضابط من ضباط البعثة العسكرية البريطانية التي كانت تخدم مع الجيوش العربية.



قصر المشق : القصر الأموي ، الذي لم يقدر له ان يتم بناؤه .



« قصير عمرة »
أحد مرابع الصيد ، التي بناها الامويون في البادية .

في وسط هذه البرية ، اعتزمت جماعة من الرهبان أن تتخذ لها دار اقامة في وقت ما من القرن السادس للميلاد ، وأنشأ أولئك الرهبان لانفسهم قرية صغيرة ، كما بنوا سداً ضخما عبر الوادي الذي يكاد يكون منبسطاً لحجز مياه الامطار القليلة بقصد استعمالها في فصل الصيف ، وربما كان اولئك الرهبان يشعرون أنهم تحرروا من مشاكل الحضارة المعاصرة ومغرياتها . ونحن لا نعرف كيف كان أولئك الرهبان يتدبرون أمر طعامهم ، لانه لا يبدو من المحتمل أن الماء المختزن في السد يمكن ان يكفي لري المحصولات الزراعية والخضروات وانمائها ، حتى لو كانت الارض ملائمة للزراعة . ونستدل من الكتابة العربية على حجر في عتبة احد الابواب ان ذلك الموقع كان ما يزال مأهولا بالسكان حتى القرن الثامن ب . م ،ولكن لا توجد هناك أية دلائل على أن أحداً كان يقيم فيه بعد ذلك الزمان . وبالرغم من مرور القرون المتعاقبة فما يزال السد يحتجز كمية كبيرة من الماء في السنين الخيّرة ، وعند ذلك تتقاطر افواج من عائلات البدو مع مواشيها وجمالها للاقامة حواليه بصورة مؤقتة .

على أن الرهبان لم يكونوا أول من أقام في ذلك الموقع ، ويتبين من هذا طرف صخرة منعزلة على بعد بضع مئات من الامتار الى الشمال الشرقي من القرية ، وتحمل هذه الصخرة عدداً من رسوم الحيوانات وبعض الاشخاص . ان هذه الرسوم تعود الى العصر الباليوليثي الاول ، أي قبل ١٢ الف سنة او أكثر ، وتعتبر هذه الرسوم الوحيدة من نوعها في الاردن اذ لم يعثر على سواها من بقايا عصور ما قبل التاريخ . وتمثل هذه الرسوم الحيوانات المختلفة التي كانت تعيش يومذاك وأهمها : الثور الوحشي والوعل . اما مجموعة الرسوم التي تشتمل على اشكال آدمية ، فمن الصعب حل رموزها ، ولقد نقر الثموديون كتابات فوق تلك الرسوم القديمة ، ومع ان هذه الكتابات نقرت قبل ١٣٠٠ سنة على الاقل ، إلا أن حروفها ما تزال بيضاء جديدة ، بينما حالت خطوط الرسوم القديمة الى اللون البني الغامق مثلها في ذلك مثل وجه الصخرة – وهذا دليل موثوق على تاريخها الموغل في القدم . وانك لتجد حول قاعدة تلك الصخرة البارزة من الارض عدداً كبيراً من الادوات والرقائق الصوانية ، ويظن أنها تعود الى العصر الذي نقرت فيه الرسوم .



الفصل التاسع

أريحا : تنقيبات الدكتورة كاثلين كينيون – العصر النيوليثي – الحياة الاجتماعية – الادوات – الابنية – الدين – الفن – العصر البرونزي الاول – ارتقاء الحضارة – الاضرحة .

تمتاز بلدة اريحا بشخصيتها المتفردة وجاذبيتها الخاصة ، وهي تختلف اختلافاً بيّنا في مظهرها العام وبسكانها ، عن اية بلدة أخرى من البلدان القائمة في التلال المحيطة بها . تقع هذه البلدة على انخفاض ۸۰۰ قدم تقريباً تحت سطح البحر ، لذلك تعتبر منتجعاً مثالياً في فصل الشتاء ، وقد يحدث كثيراً ان تغطي الثلوج مرتفعات عمان والقدس في الوقت الذي يستطيع المرء ان يستمتع بحرارة الشمس الصيفية في اريحا او على شواطىء البحر الميت.

ان مادة البناء الرئيسية في البلدة هي الاجرّ الطيني بعد تجفيفه تحت الشمس ، وتتألف سقوف معظم المنازل من التراب الممزوج بالتبن فوق فرشة من قضبان القصب . وهذه السقوف متينة لا ينفذ منها ماء المطر اذا استمر اصلاحها وترميمها والمحافظة عليها .ينحدر معظم السكان الحاليين من اصلاب الرجال الذين خلفهم في البلاد جيش ابراهيم باشا في اوائل القرن التاسع عشر ، وبينهم عدد لا بأس به من اصل زنجي . انهم قوم جذابون ودودون مضيافون، رغم ان اكثرهم فقراء مدقعون ، وهم مولعون بالموسيقى والغناء ولعاً وراثياً يعود ، دون شك ، الى اصولهم الزنجية . يقوم الى الشمال من البلدة وكذلك الى الجنوب منها ، مخيمان كبيران ينزل فيهما عدة آلاف من اللاجئين الفلسطينيين الذين يضيفون الى سكان البلدة عنصراً متذمراً قلقاً . كما ان وجود اللاجئين يعتبر من جملة أسباب فقر الاهلين المحليين ، وذلك لان اللاجىء الذي يحصل على طعامه ومسكنه من وكالة الغوث الدولية التابعة لهيئة الامم المتحدة – لا يتردد في مزاولة العمل بأجر يومي بسيط لتغطية حاجاته الاضافية ، وبطبيعة الحال تفرض هذه المنافسة على المواطن المحلي ان يقبل بالاجرة البسيطة نفسها التي تقتضيه الضرورة ان يغطي منها جميع احتياجاته الحياتية .

تكثر في اريحا حدائق البرتقال والموز التي تستقي من عين الماء المعروفة باسم عين السلطان (اليشع) ، وهي غزيرة المياه وتنبع في الشمال الغربي من البلدة . انها في الواقع واحة نضرة في منطقة تكاد تكون قاحلة جرداء ،ومن السهل علينا ان نتصور المغريات التي جذبت سكانها الاوائل لاستيطانها في العصور الموغلة في القدم .

ليست اريحا القديمة سوى تل اصطناعي صغير يدعى (تل السلطان) وهو يقع الى جانب عين الماء المذكورة سابقاً . ويوحي حجم هذا التل بأنه لم يكن اكثر من قرية عادية على اساس مفاهيمنا الحالية ، لان مسطّح التل صغير جداً . بدأت الحفريات في هذا التل لاول مرة عام ١٩١١ على أيدي بعثة المانية . ولكن تلك البعثة لم تحقق نجاحاً كبيراً في اعمالها . وفي عام ١٩٣٠ قامت مدرسة الاثار البريطانية في القدس التي كان يرأسها البروفسور جارستانج (Garstang) بفتح الحفريات مرة اخرى حيث شقت سلسلة من الخنادق وتغلغلت الى عدد من اقدم المستويات في الموقع حتى العصر النيوليثي حوالي ستة الآف سنة ق . م . بالاضافة الى العثور على بعض الاضرحة الدقيقة الصنعة والتي تعود الى العصر البرونزي الاوسط اي عصر الهيكسوس . وفي عام ١٩٥١ عادت المدرسة مرة اخرى لمزاولة اعمال التنقيب بادارة الدكتورة كاثلين كينيون التي اسفر عملها عن بعض النتائج الباهرة ، خاصة فيما يتعلق بالمستويات النيوليثية القديمة جداً والتي يرجع تاريخها الى سبعة الآف سنة ق . م .

لقد أقيم التل كله بأيدي الناس . وتشتمل الامتار الخمسة عشر التي تشكّل عمقه ، على بقايا مدن قديمة نضّدت طبقاتها الواحدة فوق الاخرى . ونتيجة للحفريات التي أجريت حديثاً ، عندما تمّ الكشف على الامتار الخمسة عشر كلها طبقة بعد طبقة ، بواسطة حفر سلسلة من الخنادق بلغت في عمقها حد الصخر الطبيعي — فان تاريخ هذا الموقع غدا الان واضحاً الى حد بعيد ، كما تم خلال ذلك اكتشاف بعض المخلفات الاثرية النادرة . ولا بدّ ان ارتفاع التل كان في الاصل يزيد على خمسة عشر متراً . ولكن تعاقب العصور تسبّب في إزالة الطبقات العليا . كما اقتطعت كميات كبيرة من اتربته في العصر الروماني والعصر البيزنطي من اجل صنع الآجرّ الترابي . ويستطيع الزائر أن يرى في الخندق الاول والفسحتين المتصلتين به من الغرب — أفضل ما يمكن أن يتعرف عليه من المكتشفات الرئيسية ، حيث يظهر الوجه العمودي للخندق بالتفصيل ، تاريخ هذه البلدة : من الجدار الاصلي فيها والذي يعود الى حوالي ١٧٠٠ سنة قبل الميلاد ، الى اقدم الاثار التي تقوم على وجه الصخر وتعود الى حوالي ٧٠٠٠ سنة قبل الميلاد :

العصر النيوليثي :

تعود الاثار التي تغطي مساحة التل كله ، وهي آثار اول ناس أقاموا فيه ، الى العصر النيوليثي . وبالرغم عن ان جانباً صغيراً جداً من هذا التل اجريت الحفريات فيه ، فانها

قلبت اراءنا كلياً عن انسان العصر النيوليثي الاول . لاننا نجد ان القرية كانت محاطة بسور عظيم من الحجارة وقد حفرت امامه حفرة يمكن أن نراها في اسفل الخندق ، وأقيم وراء السور برج ضخم مستدير بني من الحجارة والطين ، تخترق منتصفه قصبة مائلة من قمته الى قاعه، تتخللها درجات متينة البناء تشتمل على حجارة نحتت بالمدقة. وهناك ممر قصير يبدأ من قاعدة الدرج ويؤدي الى البرج ، وكلا الممر وطريق الدرج سقفا بألواح كبيرة منبسطة من الحجر . ونستدل من هذين الاثرين وحدهما على الحقيقتين التاليتين : الاولى ان الانسان في هذه الفترة الموغلة في القدم أي حوالي ٧٠٠٠ سنة ق . م . كان يعيش حياة اجتماعية كاملة وكان على استعداد ان يعمل بالتعاون مع زملائه في ذلك المجتمع ، ولا شك ان الناس كانوا يعيشون تحت قيادة زعيم أو زعماء من اجل تحقيق المصلحة العامة ، والمصلحة العامة في هذه الحالة هي الحفاظ على قريتهم من اخطار الهجوم ، وذلك باقامة السور الحجري حولها وقطع خندق في الصخر وبناء برج وربما أبراج . اما الحقيقة الثانية فيكشفها لنا هذا البرج ، اذ نستدل منه ان الانسان كان قد توصل سلفا الى إحراز درجة طيبة من المهارة في فن البناء ، وانه كان يستطيع ان يرسم في ذهنه على الاقل مخططاً للبناء ، لانه بدون خطة ما للعمل، فان اشياء كثيرة لا بد ان تكون عرضة للخطأ . وهذه الانجازات خليقة بأن تبعث مزيداً من الدهشة في نفوسنا، اذا تذكرنا ان المعادن لم تكن معروفة بتاتا ولم يكن بمقدور الانسان ان يستعمل سوى الادوات الصوانية والحجرية . ولا بد ان الخندق تم حفره بطريقة الدق كما ان الالواح الحجرية التي استعملت لسقف الممر وطريق الدرج وفي الدرج نفسه، كانت قد اختيرت كلها من نوع من الصخر ذي شقوق طبيعية تجعله يفي بالغرض، ثم كان الانسان ينحته بمدقات من الحجر الصلب . لم يكن الانسان قد توصل الى اختراع الفخار في هذه الفترة البعيدة ، مع ان الطين كان يستعمل لصنع اشكال غشيمة للناس والحيوانات دون أن يشوى ذلك الطين بالنار . وعلى أي حال فقد كان الانسان يستعمل أدوات دقيقة جد ويستعين بالعظام ، حتى كان ينحت الحجارة الملونة غير القاسية على شكل يماثل جسم الانسان وبعض الهيئات الاخرى التي لا نستطيع التعرف عليها . وتشمل الادوات الصوانية : السكاكين والمثاقب والمكاشط ورؤوس السهام ونصال المناجل ، وهذا الاخير يدلنا ان الانسان كان يمارس الزراعة . وهناك دليل آخر على هذا وهو العثور على عدد من حجارة الطحن التي كانت تستعمل لطحن القمح . ولقد عثر ايضاً على انواع اخرى من الادوات التي قطعت من الحجر العادي كحجارة الدق والطحن ويد الهاون وحجارة الصقل والتنعيم .

لم تقتصر مقدرة أولئك القوم في فن البناء على إنشاء الاسوار والابراج ، فان المنازل الخاصة كانت ذات هندسة حسنة على الطراز الشرقي التقليدي الذي يتألف من غرف تتوسطها ساحة سماوية . وكانت هذه المنازل تبنى بالآجر الطيني المصنوع بالايدي كما ان الارضيات كانت تفرش بالصلصال تغطيه في العادة طبقة من ملاط الكلس . وكانت الطبقة الاخيرة ذات نعومة بالغة ، وأحياناً يكون لونها أحمر أو بنياً فاتحاً ، ثم يجري صقلهابعناية متناهية . وكانت منازلهم تمتاز بظاهرة نرى ان بعض الناس أخذوا يعودون لاستعمالها في الابنية الحديثة ، وذلك ان ملتقى الارضية بالجدار كان مجوفاً تجويفاً بسيطاً لكي يكون التنظيف اكثر سهولة وللتقليل من تراكم الغبار . وكانت الحصر المجدولة تستعمل غالباً لتغطية الارضيات ، ولا بد ان السقف كان يماثل سقوف البيوت المعاصرة في أريحا ، اذ عثر على قطع كثيرة من الطين ما تزال تحمل الاثار التي تركتها أعواد القصب مطبوعة عليها.

وكان هنالك شعور ديني في نفوس أولئك الناس ، او هو على الاقل شعور بقوة عليا تفوق الطبيعة ، اذ كانت احدى الغرف تحتوي على محراب ينتصب فيه حجر بيضوي منحوت فوق قاعدة حجرية ، وهو اول مثال نعرفه حتى الان عن « الاله الحجري » . وهناك بناء ضخم اكثر من المعتاد ربما كان هيكلا ، ولكن هذا غير مؤكد بسبب عدم انجاز الحفريات فيه . بل ان المواهب الفنية كانت متوافرة ، ومن مظاهرها الملحوظة تلك المجموعة المؤلفة من سبع جماجم ، وقد وضعت فوق عظامها طبقة من الملاط وجرى تشكيلها على هيئة الوجه الآدمي ، كما جرى تلوين الملامح بالدهان . ووضعت الاصداف في مواضع العيون بعد شقها من الوسط لتمثيل شكل البؤبؤ . وتوجد بين تلك الجماجم جمجمة ما يزال فكها الاسفل في موضعه ، ويعتبر صنعها دقيقاً الى حد مدهش تبدو فيه الملامح التشريحية واضحة جلية . ولا يستطيع المرء أن يتعرف على الغرض من هذه الاشياء الغريبة الا على سبيل التخمين ، وقد تكون رؤوس أعداء قتلوا في المعارك او قد تكون رؤوس اسلاف موقرين صار الاحتفاظ بها في البيت على سبيل التبرك . ولكن أولئك القوم كانوا شديدي الاهتمام بالجماجم والهياكل العظمية ، اذ عثر على مجموعات من الجماجم مرتبة بعناية في بعض الغرف وعلى هياكل عظمية كثيرة ملقاة هنا وهناك .

لقد أعيد بناء سور المدينة الذي سبقت الاشارة اليه ، ثلاث مرات في ثلاثة مستويات مختلفة . ويمكن مشاهدة هذه الاسوار في الخندق رقم (١) ويستدل من هذه التغييرات في المستوى ، ان الارض داخل الاسوار كانت ترتفع بالتدريج — وبكلمة اخرى فان التل بدأ

بذلك يتكون شيئاً فشيئاً . لقد عاش الانسان النيوليثي الاول الذي سبق عصـــر اكتشاف الفخار ، قروناً عدة في اريحا ، وتكوّن من خرائب ابنيته الكثيرة ركام بلغ ارتفاعه عشرة أمتار . وجاء بعد هؤلاء القوم قوم آخرون اخترعوا الفخار ، رغم انهم كانوا ما يزالون في المرحلة النيوليثية . ويبدو ان هؤلاء القوم كانوا غزاة من الخارج ، ولكن لا نعلم في الوقت الحاضر اذا كانت المدينة قد دمرت على ايديهم أو أن أهلها كانوا قد هجروها . وقد اقتصرت مساهمة هؤلاء القوم على اختراع الفخار ، وفيما عدا ذلك فان حضارتهم كانت أدنى مرتبة. ومن المحتمل انهم كانوا من البدو الرحّل ، لانهم أقاموا على التل مدة من الزمن دون أن يبنوا أية منازل ، بل انهم لم يقيموا مطلقاً أية منشآت كبيرة . لم تكن قريتهم مسوّرة ، ولم يظهر حتى الان من هذه الفترة بقايا أبنية عمومية ، وعلى العموم كانت منازلهم ادنى مرتبة مـــن منازل الذين سبقوهم . أما أدواتهم وأسلحتهم فقـــد كانت ما تزال مـــن حجر الصوان : كالمناجل والسكاكين والأزاميل وأمثالها. ولكن هذه الاشياء يندر العثور عليها بسبب عاد الناس في حفر الارض التي كان يقيم فيها القدمـــاء ، لكي يستخرجوا أدوات قديمة . وبذلك يصعب الجزم بالعصـــر الذي تعود اليه بعض الادوات . اضف الى هذا انه لا تكاد توجد مدافن او هياكل عظمية او جماجم من هذه الفترات ،لهذا فنحن لا نعرف شيئاًعن الخواص الجسمانية لهؤلاء الناس . ولقد كانت لهم دياناتهم وفنونهم التي نراها مزدوجة فيما عُثر عليه من بقايا ثلاثة تماثيل صنعت من ملاط الكلس بحجم الانسان الحي ،ولكن لم يبق سليما منها سوى رأس واحد . ولا يختلف هؤلاء القوم في صناعتهم الفنية عن القوم الذين سبقوهم في صوغ الجبس على الجماجم . ومع ذلك فهناك اختلافات ذات دلالة ، فالرأس عبارة عن قرص بيضوي مسطح سماكته حوالي الانش ، وقد جرى تشكيل الملامح فوقـــه بصورة تقريبية ، بينما استعيض عن الشعر بالدهان . وهنا نرى ايضاً استـــعمال الصدف في مواضع العيون ، ولكـــن الصدفة تثبّت كاملة دون ان تشـــق في منتصفها ، كما كان يفعل الاوائل ، لهذا فأن بؤبؤ العين لا يبدو للعيان . وتتألف هذه التماثيل من اشكال رجل وامرأة وطفل ــ مما يدل انها كانت مجموعة دينية ــ اما الفخار فقد كانوا يزخرفونه بعصائب من الدهان الاحمر وبعضه كان يزخرف على هيئة عظام السمك . ولا شك ان هذه المصنوعات الفخارية هي اكثر ما يثير اهتمامنا ، لانها تتيح لنا أن نربط بين القوم الذين صنعوها وسكان الاجزاء الاخرى من الشرق الاوسط على مسافة واسعة تمتد حتى سوريا والعراق (١) .

(١) اعلمتني الدكتورة كينيون انها تميل الان للاعتقاد بان هذه التماثيل تعود الى العصر النيوليثي قبل اختراع الفخار ,وان الجماجم المجبسة تعود الى اواخر الفترة التي سبقت اكتشاف الفخار . وربما يدل طرازها انها صنعت بعد رأس التمثال (المؤلف)

العصر البرونزي :

في نهاية العصر النيوليثي ،التي كانت حوالي السنة (٤٠٠٠) ق . م. حدث فراغ في اقامة الانسان في اريحا فبقيت دون سكان فترة من الزمن . وهناك دليلان مختلفان على هذا: وجود طبقة متراكمة من المواد العضوية المنحلّة فوق التل والتي يمكن التعرّف على جانب منها، وانعدام أية بقايا من حضارة العصر المسمى بالعصر الخالكوليثي الذي أعقب العصر النيوليثي وهو العصر الذي عرف فيه استعمال المعادن لاول مرة . ويمكن اعادة تاريخ اقامة الانسان على التل الى حوالي سنة ٣٢٠٠ ق . م . ولكن أفضل برهان على هذا يأتي من الاضرحة ، اذ ان المقابر من الان وصاعداً تعزز الادلة التي نجدها في مستويات البلدة ، كما تزودنا أيضاً بأمثلة مادية كاملة لا نجد في المنازل سوى قطع محطمة منها . وتقــع المقابر الرئيسية لاريحا القديمة في الارض التي يقوم عليها مخيم اللاجئين من الجهة الشمالية ، وقد جرى حفر بعض المقابر في شوارع ذلك المخيم وساحاته . وأدعى تلك القبور الى الاهتمام قبر يعــود الى تلك الفترة ،اذ تبين نتيجة الفحص بواسطة كاربون رقم ١٤ ان تاريخه يعود الى سنة ٣٢٦٠ ق.م + ١١٠ سنوات او — ١١٠ سنوات . وكــان ذلك القبر يحتوي على ١١٣ جمجمة رتبت حول حافة حجرة الضريح ، بينما كان منتصف الحجرة يضم كومة مــن العظام المحروقة ، وكانت بعض الجماجم تحمل آثار اللفح بالنار ولكنها لم تكن قد حرقت عمداً . وهذا يدل على وجود بعض العادات الغريبة فيما يتعلق بمراسيم الدفــن ، ونفهم منه أن أجسام الموتى كانت تتعرض اولا في العراء حتى يتحلّل اللحم وينفصل عن العظام ، ثم يلي ذلك جمــع هذه الهياكل العظمية الكثيرة بحيث ترتّب الجماجم في صف متناسق حول حجرة القــــبر ووجوهها نحو الداخل ، اما العظام فتوضع كومة في الوسط مع مادة الاحتراق الضرورية ثم يجري إشعالها بالنار . وعندما تبرد الكومة بعد الاحتراق ، توضع التقدمات الجنائزيـــــة واكثرها من الفخار في القبر ، وتغطى العظام المحترقة بطبقة من شظايا الحجارة . والواقع ان الاكتشافات الاثرية الاخرى في فلسطين وشرقي الاردن لم تقدّم ادلة تؤيد وجود هذه العادات ، مع ان عادة تعريض الاجسام في العراء حتى يتحلل اللحم ثم تدفن العظام ليست عادة بعيدة عن المألوف . ونحن لا نعلم شيئاً عــن اولئك الناس سوى انهــم كانوا بداة في الاصل . ولكنهم كانوا أيضاً طلائع الفترة التالية أي العصر البرونزي الاول ، ذلك العصر الذي كان من اكثر العصور ازدهاراً في الاردن وفلسطين .

اننا نرى معالم العصر البرونزي الاول الذي يمتد من سنة ٢٩٠٠ الى سنة ٢٣٠٠ ق. م. واضحة جلية في أريحا ،خاصة فيما يتعلق بالتحصينات الدفاعية في البلدة، وهي تحصينات لا

بد انها كانت على قدر كبير من الاهمية . وفي الخندق رقم (١) يمكن مشاهدة جانب من الاسوار العديدة التي أُنشئت حول البلدة في تلك الفترة وكلها مبنية بالآجرّ المصنوع من الطين . حتى الجدار الاعلى من بينها وهو مواز لسطح الارض حالياً لم يبن بعد تلك الفترة . اما الجدران التي بنيت فوق ذلك المستوى ، فقد زالت واندثرت بفعل العوامل الطبيعية . ويمكن مشاهدة بقايا منازل من أبنية تلك الفترة في موقعي (E. III) و (E. IV). اما الاسوار الدفاعية فقد اجريت عليها تعديلات واعيد بناؤها حوالي ست عشرة مرة خلال فترة العصر البرونزي الاول وطولها ٦٠٠ سنة . وكثيراً ما يكون من الصعوبة بمكان تعيين الفترات المختلفة التي تمّ فيها تجديد البناء ، فالجدران كانت تتساقط نتيجة للزلازل أو بسبب تسرّب المياه تحت أساساتها بحيث كان السكان كل مرة يبادرون الى ترميمها . ولكن بعض الدمار كان يحل بالاسوار نتيجة لهجمات الاعداء . ويمكن مشاهدة مثال دراماتيكي هذا في الخندق رقم (٣) على الطرف الجنوبي من التل . لقد كان السور هنا متيناً جداً اذ يبلغ عرض الجدار اربعة أمتار ونصف المتر ، وما يزال حتى الان يرتفع مسافة ثلاثة امتار ونصف المتر ، ولكن ناراً عظيمة أشعلت الى جانبه حتى ليمكن مشاهدة رمادها منتشراً على مسافة سبعة امتار ابتداء من واجهة الجدار في طبقة تكاد سماكتها تبلغ متراً واحداً . ان سماكة هذا الرماد تشير الى ان أطنانا عديدة من الحطب تمّ استعمالها ، وقد كانت الحرارة الناجمة عن تلك النار من الشدة بحيث أن قوالب الاجرّ احترقت وصار لونها احمر حتى منتصف عرض الجدار . والواقع أن شيئاً في تركيب البناء ساعد على امتداد النار ، وذلك ان البنائين كانوا قد ادخلوا في الجدار دعائم معترضة وطولية من الخشب ، وهم يهدفون من ذلك الى تقويته حتى لاينهار بفعل الزلازل ، ولكن النار امتدت الى هذه الدعائم فاشتعلت وأسهم وجودها في احتراق السور . وعلى أية حال فان جميع أسوار تلك الفترة تظهر عليها آثار التهديم والخراب كما تظهر آثار الترميم وتجديد البناء ، وهذا يوحي بأن سكان البلدة كانوا يوم ذاك يحيون حياة تفتقر الى الامن والاستقرار.

وبالرغم من هذا فان الصورة العامة تظهر تحسناً متواصلا في مستوى التمدن والعمران ، اذ بدأ السكان يستعملون النحاس بكميات كبيرة من اجل صنع الاسلحة والادوات ، كما ان الاواني الفخارية تعطي دلائل على رواج التبادل التجاري مع جميع الاقطار المجاورة . لقد كانت تلك الفترة عظيمة في نموها الحضاري ، اذ رافقها نشوء عدة بلدان جديدة في كثير من المواقع التي لم تكن مأهولة قبل ذلك بالسكان . ولكن هذه الحضارة ، كغيرها من الحضارات التي سبقتها ، تهاوت واندثرت على ايدي الغزاة من البدو . ويبدو ان

السكان في اواخر العصر البرونزي الاول اخذوا يشعرون بمزيد من الاستقرار والطمأنينـة وبدأوا يهملون تحصيناتهم الدفاعية . وجاء وقت أفاقوا فيه من غفلتهم عـلى انباء التهديد بغزوة مفاجئة ، وذلك لان السور الاخير العائد لتلك الفترة تبدو فيه اعمال الترميم السريع غير المتقن فوق بقايا سور أنشيء قبل ذلك . وتبدو حجارة الاساسات وقد القيت بسرعـة ودون تنظيم ثم بدأ أنشاء الجدار من قوالب الاجرّ فوق تلك الحجارة ، وتظهر أيضاً في هذا الجدار قوالب الاجرّ الذي كان مستعملا في جدران اخرى . ولكن الكارثة حلّت بأولئك القوم قبل أن يفرغوا من بناء ذلك السور ، فلم يلبث أن تهدم بفعل النار وسقطت المدينة في أيدي القبائل البدوية الغازية ، وانتهى بذلك العصر البرونزي الاول في اريحا .

نصب القادمون الجدد خيامهم لفترة من الزمن عـلى سطح التل ، ولكنهم بعد ذلك بنوا لانفسهم بعض المنازل الركيكة ، وقد امتد انتشار هذه المنازل على منحدرات التل اذ لم يكن هناك أي سور دفاعي في تلك الفترة . وهناك بناء في الجانب الغربي ربما يكون هيكلا في الاصل ، اذ عثر فيه على ما يشبه المذبح وكذلك بقايا حيوان صغير تحت أساساته . ولكن أضرحة أولئك الناس كانت في الواقع اكثر ما يثير الانتباه من بين ما خلفوه لنا . فهم ، على العكس من المقابر الجماعية التي كان الموتى يدفنون فيهـا خلال العصور السابقة – اخذوا يدفنون ميتاً واحداً في كل قبر ، ولا يتركون مع الميت في قبره سوى تقادم قليلة . ولقد تم العثور على (٢٤٨) قبراً من قبور هذه الفترة من أصل (٣٦٠) قبراً في تـل السلطان ، وتعرف هذه الفترة بأنها أوائل العصر البرونزي الاوسط . وكان بعض هذه القبور واسعـاً جداً بحيث يبلغ عرض الحفرة ثلاثة امتار وعمقها خمسة أمتار ، وبحيث تبلغ مسـاحة حجرة الدفن ٣٦٠ × ٣٣٠ وارتفاع ٢٦٠ سم ، مما كان يستدعي حفر حوالي ١٥٠ طناً من الصخور ، وكل هـذا من أجل دفن شخص واحد . على اننا نرى ان الاجسام كانـت تتعرّض حتى تتحلل العظام من اجل دفنها كما كان يفعل الاقوام الذين سبقوهم . اما الاشياء التي كانت توضع داخـل القبر فتختلف باختلاف نماذج القبور ، فترى في بعضها خنجراً واحداً لاغير ، وترى في البعض الاخـر دبابيس وخرزاً (يفترض بأن هذه للنساء) ، وفي اخرى غيرها بضع أوان فخاريـة لاغير ، بينما ترى في اضرحة اخـرى عدداً من الجرار وخنجراً أو رأس رمح . على ان هذه القبور كانت كلها تتفق في شيء واحد ، وهو وجود محراب صغير محفور في جدار حجرة المدفن ويحتوي على قنديل ذي أربعة رؤوس ، وكان هذا الطراز من القناديل سائداً في تلك الفترة . وتبين على صفحة صخرة ملساء في احدى قصبات القبور ، ان شخصاً ما خطط بعض الرسوم الصغيرة على شكل ماعز او وعل

او شجرة ، بالاضافة الى رجلين مسلحين بالحراب والتروس ، وهذا كما نعلم هـو المثال المعروف الوحيد من فن هؤلاء الناس . اما آنيتهم الفخارية فلا تمتاز بالدقة والاتقان ، ولا زخرف عليها سوى بعض الخطوط المستديرة دون لون او دهان من أي نوع ، مما يدل على انهم كانوا يصنعونها للانتفاع بها دون أي اهتمام بتجميلها .

من المرجّح ان هؤلاء القوم الرحل لم يكونوا سوى العموريين الذين استولوا عـلى معظم أقطار الشرق الاوسط ومن جملتها العراق ومصر ، خلال الفترة الواقعة ما بين السنة ٢٣٠٠ و ١٩٠٠ ق.م. وقد كانوا بدورهم ضحية غزوة كبرى اخرى ، ولكنها غزوة من نوع مختلف جداً عن غزوتهم بالذات . ففي هذه المرة جاء الغزاة معهم بحضارة اكبر رقياً وتقدماً من الحضارة التي عرفتها فلسطين حتى الان . والدليل الرئيسي على هذا هو الآنية الفخارية : فالنماذج كلها جديدة وغالباً ما تكون دقيقة جداً ، وقد صنعت كلها على دولاب الخزّاف ، بينما كان الفخار يصنع سابقاً في فلسطـين بواسطة الايدي وحدها مـع استعمال الدولاب البطيء أحياناً في تصنيع الرقبة والحافة . ولا بد أن بيوتهم ذات البناء المتقن قد غطت سطح التل كله ، مع انه لم يبق منهـا حتى الان سوى تلك التي أقيمت على المنحدرات الشرقية ، ويمكن مشاهدة جوانب من منازلهم في المواقع (H. I- V.) وهناك بعض الدلائل على ان البلدة كانت محاطة بسور قوي من الآجر كالسابق وذلك في اوائل هـذه الفترة التي تدعى العصر الاوسط ، ولكن بعد مدة من الزمن أدخل نظام دفاعي جديـد كل الجدة ليس في اريحا وحدها بل في جميع ارجاء فلسطين . وكان هذا النظام الدفاعي الجديد يتألف من منحدر عميق من التراب يرتفع فوقه جدار من قـوالب الآجر . وتوجد في اريحا ثلاث من هذه التشكيلات الدفاعية الضخمة ، وقد بنيت في أوقات مختلفة ، ويمكن مشاهدة جوانب منها في الخندق رقم (١) . اما الاول فهو أقرب ما يكون الى منتصف التل ويمكن رؤية آثار طبقة الجبس الابيض التي كانت تغطي المنحدر واضحة بجلاء حتى ان مسارب الكانس تبدو مع انحدار طبقات التربة المختلفة . ويمكن اعادة بناء هذه التشكيلة الدفاعية كلها مما عثر عليه في جوانب اخرى من التل ، فاذا ما تم انشاؤها تبين انها كانت تتألف من واجهـة حجرية ارتفاعها $\frac{1}{2}$ ٣ متراً ، وانحدار مغشّى بالجبس على زاوية ٣٥ درجة يرتفع ١١ متراً فوق ظهر الواجهة ، وعلى قمة الانحدار يقوم جدار عال من الاجر يبلغ الارتفاع به أفقياً ٧٥ر٢٠ متراً . ولا بد أن منظر هذه التحصينات عند اتمامها حول البلدة كلها كان منظراً مهيباً يرتد عنه الطرف وهو كليل .

اما التشكيلة الدفاعية الثانية فتقع قريباً من طرف التل ، ولا تبدو معالمها واضحة كمعالم التشكيلة الاولى بسبب ضياع معظم الطـين الكلسي ، بينما التشكيلة الثالثة والاخيرة ما تزال واجهتها الحجرية الضخمة قائمة على ارتفاع ٧٥ر ٤ متراً، وهي حجارة ضخمة بنيت فوق بعضها البعض بعناية ودقة .

تمتاز أضرحة هذه الفترة بأن الاشياء التي فيها ما تزال في حالة أفضل من الاشياء التي عثر عليها في اضرحة العصور الاخرى. . انها في العادة أضرحة أقوام قدامى أعيد استعمالها من جديد ، وترى حجرة القبر مغطاة بحجر كبير والفتحة مملوءة بالتراب ، ويبدو ان سبب بقاء الاشياء في حالة جيدة يعود الى ان الغازات كانت تتسرب من شقوق الصخر وتتجمع في الحجرة فتقضي على جراثيم التسوس والانحلال. وهكذا تم العثور على مناضد خشبية وسلال ومقاعد وحشايا وشعور مستعارة ، وحتى قطع من لحم القرابين ، وكلها باقية في حالة طيبه. وترى احـــد اضرحة العصـــر البرونزي واضح المـــلامح ، فالى اليسار توجـــد سلة تحتوي على ادوات زينة والى جانبها منضدة ذات ثلاث سيقان يزيد طولها على خمســـة أقدام وفوقها طعام كثير وباطية خشبية قليلة الغور فيها فخذ من اللحم ، والى اليمين اطار سرير يرقد عليه هيكل عظمي ، وحول الجدار جرار وصحون وأقداح ، ومن الواضح أن سبعة اشخاص كانوا قد دفنوا في هذه الحجرة . حقاً لقد اصاب الموجودات قدر معين من الانحلال ، ولكن هذه الاشياء المختلفة من الاثاث يمكن اعادة رسمها بدقـــة على الورق لكي تعطي فكرة فريدة عن حالة داخلية المنازل في ذلك العهد . ولقد كانت كل الاضرحة تشكل مدافن جماعية ، وكانوا يزيحون الهياكل العظمية والتقدمات الاولى جانباً في الزوايـــا لكي يفسحوا مكاناً للموتى الجدد . وفي متحف الاثار الفلسطيني في القدس ضريح من تلك الاضرحة تم تركيبه على الحالة التي كان عليها في الزمن القديم (١).

ومن المرجح أن القوم الذين أنشأوا هذه التحصينات الجديدة وهذه الاضرحة ، هم الهكسوس او ملوك الرعاة كما تلقبهم التوراة ، وهم الذين يسود الاعتقاد بأنهم جلبوا الخيل معهم ، وربما المركبة ، الى فلسطين ومصر . وقد نجد في وجود الحصان والمركبة سبباً لنشوء هذا الطراز الجديد من التحصينات التي لا بد منها لمقاومة عـدو يمتاز بقدرة عـلى الحركة والانتقال اكثر من الشعوب التي جاءت من قبل .

---

(١) كما تم تركيب قبر آخر رقم ١٨ في متحف عمان الاثري

العصر الحديدي :

لا تكاد توجد على التل أية بقايا تدل على تاريخ اريحا الذي اعقب هذه الفترة . واشهر النصوص المتعلقة بذلك التاريخ هي هجوم يشوع على البلدة ، ولا نرى من معالمه سوى وعاء او وعائين من الفخار وبقايا قليلة من الجدران . وحتى أضرحة هذه الفترة لم يعثر على شيء منها . ولا شك ان قرية كانت على التلة يومذاك ، ولكنها امحت كليا ولم يبق أي أثر لها في المناطق التي جرى حفرها حتى الان . ولقد كان الموقع مأهولا بالسكان على نحو ما خلال العصر الحديدي ، وعثر على منازل في أسفل منحدرات التل بعيداً عن كل الاسوار الدفاعية السابقة . وفي عهد الرومان انتقل موقع اريحا الى المكان الذي تقوم فيه البلدة في الوقت الحاضر ، ولم يتم العثور في التل الا على مدافن قليلة من ذلك العهد . ومن المحتمل أن الرومان استعملوا تراب التل من اجل صنع قوالب الاجر . على انه من المؤكد ان البيزنطيين فعلوا ذلك . ولا شك ان هذه الحفريات ساعدت عوامل التآكل الطبيعية على محو بقايا عدد كبير من المنازل التي أنشأتها الشعوب المتعاقبة .



الفصل العاشر

خربة المفجر – القصر الاموي (قصر هشام) : بنـــاء القصر – وصف الخرائب – الفسيفساء – الزخارف المنحوتة والملونة.

يبعد هذا الموقع حوالي كيلومترين الى الشمال من اريحا ، وعندما بدأت الحفريات فيه لاول مرة عام ١٩٣٧ ، كـــان الاعتقاد سائداً بأن الاثار ليست الا بقايا كنيســـة ، ولكن نتائج العمل في الايام القليلة الاولى اظهرت انه لم يكن كنيسة . واتضح بعد مضي الوقت انه لا بدّ ان يكون قصراً ، بل ان الفخار دل على ان تاريخه يعود الى العهد الاموي . وثبت هذا فيما بعد نتيجة العثور على رسالتين كتبتا على قطع من الرخام وهما موجهتان الى هشام امير المؤمنين ، الذي لا يمكن ان يكون سوى الخليفة هشام بن عبد الملك الذي حكم الامبراطورية العربية من سنة ٧٢٤ الى سنة ٧٤٣ ب.م. عندما كانت رقعتها تمتد من الهند الى اسبانيا . ومن المحتمل ان كنيسة كانت في الاصل تقوم في ذلك الموقع لان بعض الاعمدة التي استعملت في القاعة الداخلية تحمل شارات الصلبان منحوتة عليها . ولقد استمرت الحفريات في البناية الرئيسية حتى عام ١٩٤٨ ، وما كشف عنه منها يشمل قصراً وجامعاً وحمامات وفناء امامياً ذا أعمدة وبركة مزدانة بالزخارف . ويسير العمل حالياً في الكشف عن بناية اخرى الى الشمال ، وهي بناية يبدو انها كانت تستعمل مكان إقامة للخدم والعبيد (١) .

خربة المفجر :

كان القصر وجميع ما يحيط به من منشئات في الاصل محاطاً بجدار ، ومن المحتمل ان الموقع كان يشمل مساحة واسعة يستطيع الخليفـــة ان يمارس فيها هوايته للصيـــد . ويمكن العثور هنا وهناك على آثار السياج الذي كان يحيط بها ، مما يدل على انه كان يمتد حوالي كيلومترين في اتجاه نهر الاردن : اما حدوده من الشمال والجنوب فيصعب تحديدها بدقة . واذ لم تكن

---

(١) قام الدكتور عوني الدجاني عامي ١٩٥٧–١٩٥٨ بالبحث عن اسوار قصر هشام فعثر على بيوت العمال الذين بنوا القصر ، وقد وجدت في مخازنها كميات من الحبوب والزبيب والتمر والسمسم كذلك وجـــدت حوانيت المعدنين وفيها المواقد والافران.

هناك أية ينابيع ماء على مقربة من الموقع ، فقد جيء اليه بالمياه من ينابيع النويعمة على بعد ثلاثة كيلومترات الى الشمال الغربي . وقد استلزم هذا انشاء عدد من الجسور في اثنين من الاودية ، وما يزال أحد تلك الجسور يحمل على ظهره قناة ماء تسقي المنطقة الواقعة بين النبع وخربة المفجر . وفي الزمن القديم كان يستفاد من جريان الماء لتشغيل طواحين الماء في موضعين ، ويمكن مشاهدة بقايا هذه الطواحين على بعد حوالي مئة متر غربي القصر .

وليس قصر المفجر القصر الاموي الوحيد في وادي الاردن ، اذ يوجد هناك قصر آخر في خربة المنية قرب طبريا ، وهناك قصور عديدة أخرى في بوادي سوريا والاردن. ولكن هذا القصر يعتبر اكثرها زخرفة ، وقد أُنفق على تزيينه عن سعة اكثر مما انفق على اي قصر من تلك القصور . ولم يكتف لتغطية جدرانه بالتصاوير الملونة فحسب بل أضيف الى ذلك زخارف الجبس المنحوت والتماثيل أيضاً . ولا بد ان البنائين والفنانين الذين انشأوا القصر — جيء بهم من المناطق البيزنطية والسورية والعراقية إذ يوجد فيه أثر من الفنون المعمارية السائدة في تلك الاقطار . على أن البناء لم يبلغ مرحلته الختامية قط ، ورغم ذلك فقد كان مأهولا بالسكان مدة لا بأس بها ، ويبدو ذلك من الاثر الذي تركه جريان المياه الساخنة في قساطل الحمامات . على انه من المستبعد ان يكون الخليفة نفسه قد أقام فيه . ولقد دمرت المكان كله زلزلة بعد ذلك ببضع سنوات ، ومن المحتمل أن تكون الزلزلة العظيمة التي حدثت سنة ٧٤٧ب. م، وهي التي دمرت أيضاً كنيسة القيامة في القدس وكثيراً من أبنية جرش . ولقد بقي موقع القصر مهجوراً منذ ذلك الحين ، عدا فترات قصيرة خلال القرن الثاني عشر ، حيث اجريت بعض الاصلاحات المستعجلة لبعض الغرف التي تصلح للسكنى . وعندما بدأ العمران يتجدد في أريحا في أوائل القرن التاسع عشر — اخذ الناس ينقلون حجارته المنحوتة لبناء منازلهم ، كما حدث في مواقع أثرية كثيرة أخرى ، وقد أدى ذلك الى إلحاق الاذى الكثير بهيكل البناء وبحجارته المنحوتة . وهكذا لم يبق من بعض الجدران حتى الان سوى خنادق الأساسات ، بعد أن نزعت الحجارة من الارض ونقلت بعيداً .

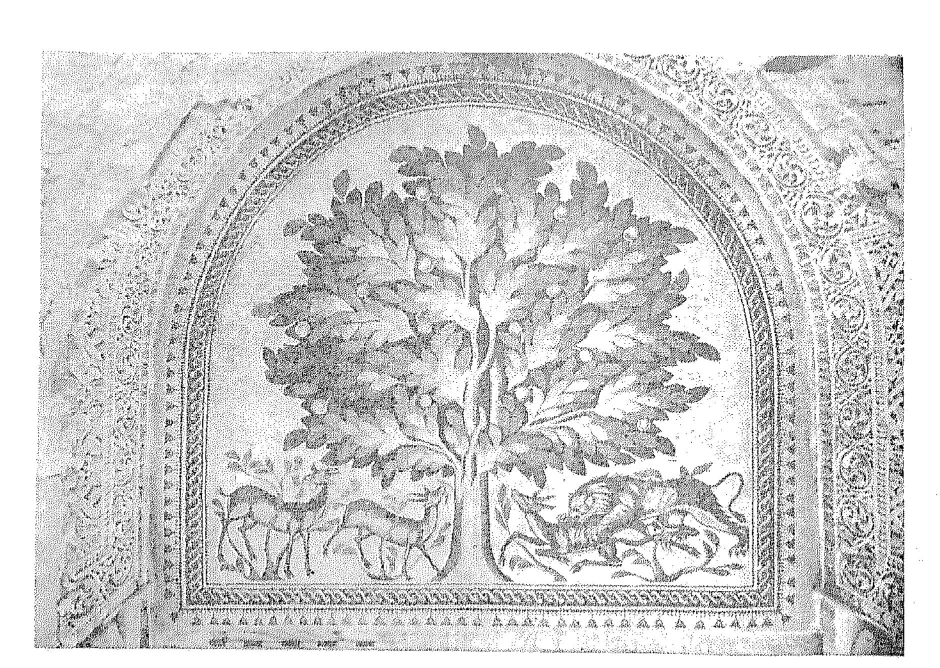
من الواضح ان تبديلات كثيرة في المخطط والزخرفة — كانت تجري دائماً أثناء إنشاء البناء ، ولا بد أن تلك التبديلات كانت مصدر ازعاج عظيم لمتعهدي ذلك الزمن . ويبدو ان الحمامات والجامع لم تكن ضمن المخطط الاساسي ، لانها ترتبط بالقصر ارتباطاً غير وثيق ، ومن المؤكد ان القصر كان البناء الرئيسي . وغالباً ما كان يحدث ان تبذل جهود مضنية في نحت احد الحجارة وزخرفته ، حتى اذا اخذ موضعه في البناء — عمد البناؤن

الى تغطيته بالملاط المزخرف . وأحياناً اخرى ترى الجدران قد غطيت بالملاط ثم نحتت على أدق النماذج والاشكال ، ولكن لا تلبث ان توضع فوقها تماثيـل ومنحوتات اخرى . ومما يستلفت النظر انه في تلك المرحلة القريبة من بدء ظهور الاسلام — لم يكن هناك اعتراض على تصوير اشكال الحيوان والانسان او صنع نماذج منها ، وقد عثر في المفجر عـلى تمثال ربما يكون تمثال الخليفة هشام نفسه .

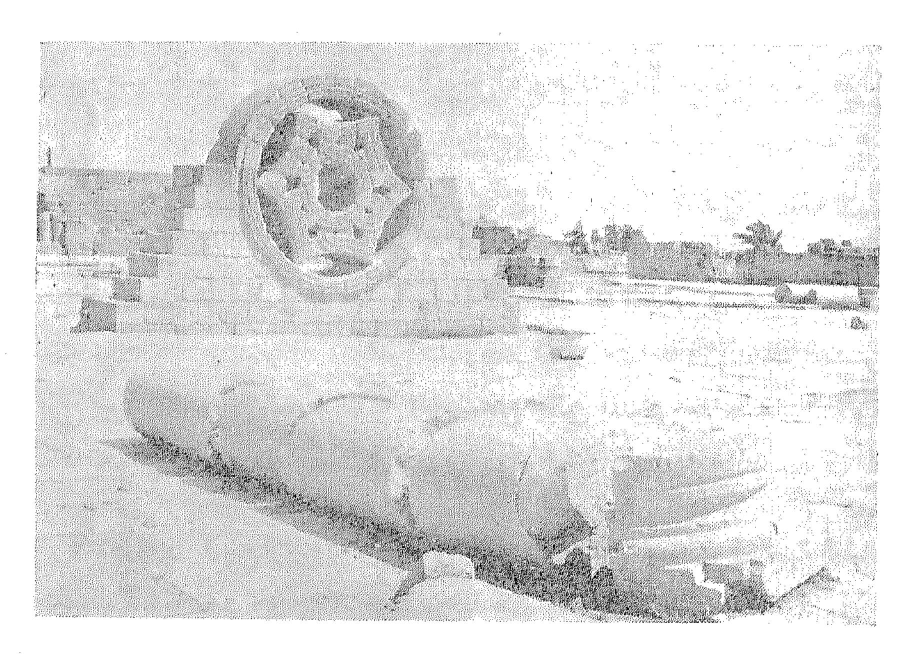
الآثـار :

ليس القصر إلا جزءاً مـن المنشآت ، وقد كان مخططه الاساسي يشبه مخطط القلاع الرومانية التقليـدية حتى ان الابراج نصف المستديرة أدخلـت في بعض نواحي الجدران الخارجية دون النظر الى فاعليتها الحـربية . وقد جاء هـذا القصر على هيئة مربع رغم ان تعديلات كثيرة أدخلت عليه . وكان هناك فناء امامي تتخلله الاعمدة ، وهذا الفناء كان يمتد حتى الحدود الشمالية للحمامات ، وفي الوسط تقوم البركة ذات الزخارف وهي من المنشئات المهمة . اما المدخل الرئيسي الى الفناء فقد كان من الناحية الجنوبية ، وهو عبارة عن بوابـة يحيط بها برجان ، وقد وضع المخطط الاساسي لهذين البرجين على هيئة مربع ، ولكـن تبديلا حدث في المخطط فأنشىء على الشكل الغريب الذي نراه الان . ولقد كان مدخـل البوابة مبلطاً بالحجارة وتحيط به مقاعـد مستطيلة عـلى الجانبين . وكان يحيط بالفناء من ناحيتيه الجنوبية والشرقية ، جدار خارجي وأعمدة ، ولكن لم تبق مـن هذا الجدار سوى الاساسات ، فيما عدا جزء صغير الى الغرب من البوابة حيث مـا تزال قواعد الاعمدة في مواضعها . ويبدو ان معظم مساحة الفناء تركت عـارية ، لعدم وجود أي أثر للحفر في التربة ، سوى قنوات المجاري التي تمر في منتصفه آتية من القصر والبركة .

ولقد كانت البركة المزخرفة بناء غريباً عجيباً يتألف من بركةمربعة عمقها حـوالي المتر تعلوها قبة عظيمة ذات ثمانية أضلاع فوق أربع أقواس ضخمة ، وهي مزدانة بأجمل الزخارف وأدقها . وكانت هناك نافورة ماء في وسط البركة . وقد نحتت واجهات الاقواس لتبدو فيها أوراق خرشوف (شوك الجمل) تذروها الريـح ودهنـت باللونين الاحمر والاصفر . اما المنطقة المنبسطة تحت العمود فقد غطيت بمـلاط الكلس ثم دهنت كي تبدو كالمرمر الابيض والرخام الفستقي . اما دعائم الاقواس والبناء المثمن الاضلاع الذي يغطي بقية البركة — فانها تقوم ضمن منطقة الماء ، تلك المنطقة التي تحولت نتيجة لذلك الى مساحة صغيرة . ومن سوء الحظ ان كثيراً من حجارة الابنية نهبت بحيث تمثل الحجارة المنحوتـة



فسيفساء شجرة النارنج في قصر هشام بن عبد الملك في مدينة (اريحا)



نجمة القصر : من آثار قصر هشام في مدينة (اريحا)

والمزخرفة التي بقيت بعد ذلك — معضــلات عديدة حول الشكل الذي انتهى اليه هذا البناء غير العادي . وهناك (درابزين) من الحجارة المنحوتة ، تــم ترميمه جزئياً على الجـــدار الغربي ، ويبدو انه كان يدور حول سقف البناء المثمّن من الخارج .

كان بناء القصر الرئيسي يتألف من طابقين ، وكانت الواجهة المطلة على الفناء تشتمل على شرفتين تعلوهما قناطر في كل من الطابقين على جانبي المدخل . أما قناطر الطابق الارضي فكانت تقوم فوق مجمع من اربعة أعمدة متداخلة تقف على قاعدة مرتفعة ، ولقد عثر على هذه القواعد في مواضعها . وعندما حدث الزلزال تهاوت الاقواس في الرحبة الامامية وعثر عليها فيما بعد ملقاة في أوضاع تكاد تكون طبيعية . ولقد تم إعادة بناء اثنين من الاعمدة المجمعة ، بينما وضعت الاقواس ورؤوس الاعمدة على الارض قريباً من المدخل الحالي : على ان قناطر الطابق الثاني كانت ترتكز على أعمدة من المرمر والجرانيت وبينها مشبّكات متقنة من الجبس المنحوت : وترى هذه الاقواس أيضاً ملقاة على الارض في وضع يوازي أقواس الطابق الارضي .

كانت بوابة الدخول ضمن برج كبير ، تزدان واجهتـــه بالحجارة المنحوتة على نسق متشابك ، وهذه الحجارة ملقاة الان امام المدخل ، وهناك أيضاً حجارة مزخرفة مسدسة الاضلاع ، لا بد انها كانت تشكل جزءاً من الواجهة ، وقد اعيد تثبيت اثنين منها عــــلى جانبي البوابة . وكانت هنالك قوس متقنة للغاية ترتفع فوق البوابة ، وتزدان واجهتها الامامية بصف من المحاريب المستديرة بين فواصل مجنحة . وجميع هذه الحجارة ملقاة على الارض في ترتيب اقرب ما يكون الى اوضاعها الاساسية . اما المدماك العلوي في جميع أجزاء الابنية فقد كانت تتوجه طاقات متعرجة ، وقد أعيد وضع اثنتين منها فوق المدماك العلـــوي من جدار برج البوابة الذي أعيد بناؤه جزئياً . وترى على جانبي المدخل مقاعد مستطيلة ووراءها محاريب ذات سقوف منحوتة نحتاً دقيقاً ، وقد وضعت قطع من هذه المحاريب فوق المقاعد .

تزدان القوائم الجانبية للباب الرئيسي بأفاريز مربعة تنتشر ايضاً فوق العتبة العليا للباب ، تلك العتبة التي تتألف من حجارة ضخمة ، ولقد كان المعبر داخل الباب معقوداً في الاصل بالآجرّ ، ويمكن رؤية جانب من هذا العقد في الحجرة الملاصقة للباب من الجنوب . وكانت هناك مقاعد أخرى على جانبي هذا الممر ، أما الجدران ومجمّعات الاعمدة فقد كانت كلها

مغشاة بالجبس ومنحوتة على هيئة زخارف دقيقة . وبعد ذلك مباشرة تصل الى الفناء الرئيسي الذي تحيط به جميع الغرف وتفتح عليه . كان هنالك رواق يحيط بجوانب هذا الفناء ، وما تزال أعمدة عديدة ملقاة على الارض كما سقطت عند حدوث الزلزال ، وقد تحطم بعضها . هذه هي الاعمدة التي تبدو الصلبان محفورة في بعضها ، ومن الواضح انه قد جيء بهذه الاعمدة من كنيسة قريبة من ذلك الموقع . اما الطابق الثاني فقد كانت تؤدي اليه درجات في زاويتي الفناء من الشمال الشرقي والجنوب الغربي ،وكانت هنالك أيضاً شرفات ذات قناطر في هذا الطابق ، ترتكز أقواسها على اعمدة من المرمر ، وبين الاعمدة مشبكات منحوتة لم يتقدر لبعضها أن تتم صنعاً .

وفي منتصف الجانب الجنوبي غرفة يحتوي جدارها الجنوبي على محراب ، ومن المحتمل ان الغرفة كانت بمثابة جامع صغير خاص . وتبدو خارج الغرفة أساسات برج ضخم مربع ربما كان مأذنة في الاصل . ويتألف الجانب الشمالي كله من غرفة كبيرة واحدة يرتكز سقفها على سلسلة من الاقواس . وهناك غرفة كبيرة اخرى في منتصف الجانب الغربي ، مقابل المدخل ، قد يحسب المرء انها قاعة الجلوس ، بسبب موقعها المتوسط . ولكن مما يجعل ها مستبعداً أن الجانب الاعظم من بابها يقع فوق ساحة واطئة ، فيضطر من يود الدخول الى ان يسير محاذراً حول الطرف المشبك الذي يحمي هذه الساحة . ولقد أعيد انشاء نافذة كبيره مستديرة من الحجر أقيمت في منتصف الفناء الرئيسي ، وكانت أجزاء هذه النافذة قد وجدت مبعثرة في تلك الساحة الواطئة ، لذلك يبدو ان النافذة كانت اصلاً في الطابق الثاني فوق الغرفة التي أشرنا اليها .

وعجيب شأن تلك الساحة الواطئة : فالدرج ينحدر من الاروقة الى باحة مبلطة بالفسيفساء ، ومن هنا يلج المرء بابا يؤدي الى مكان يعتقد بأنه كان حمامات تحت الارض ، اذ يوجد في الطرف الاقصى من الغرفة المعتردة حوض مغشى بالجبس تخترق القساطل اعلى جداره . واذاك لترى الجدران والقبو كلها مغشاة بالجبس بينما تتألف الارضية من الفسيفساء ، وهناك مقاعد مستطيلة على الجانبين . وبالاضافة الى ما تقدم توجد قناة عميقة تمر تحت الجدار الغربي ، ويمكن الوصول اليها بواسطة بواليع أنشئت من الحجارة ، وقد عثر على ثلاث منها خارج القصر . ويحمي جانبي الدرج (درابزين) مشبك تدعمه قوائم رؤوسها مستديرة على هيئة رؤوس البصل ، وهذا الدرابزين يشبه الحاجز الذي يفصل صحن الكنيسة

عن المذبح في الكنائس البيزنطية ، وربما جيء به من الموضع ذاته الذي جيء منه بالاعمدة المنحوتة . ومن المحتمل أن هذه الغرفة الصغيرة أنشئت لتكون مكان الاستحمام الرئيسي قبل اضافة الحمامات الكبيرة الى مخطط الانشاءات .

ويوجد في الزاوية الشمالية الغربية من الفناء درج يؤدي الى ممرّ مسقوف كان بمثابة طريق خاصة الى الحمامات . ويمكن للمرء أن يرى في غرفة عند اول الدرجات بعض قرميد السقوف مرصوصاً الى جانب الجدار ، وهو قرميد اما ان يكون قد زاد عن الحاجة في البناء الرئيسي أو إنه لم يستعمل قط ، وهذا القرميد من الفخار الاحمر . ويبدو من هذا ان سقف القصر المقبّب كان مغطى بالقرميد الاحمر مما كان يعطيه منظراً غريباً نوعاً ما .

يقع الجامع في الجهة الشرقية بين القصر والحمامات . والطريق الوحيدة اليه التي يمكن أن نراها في المخطط ، هي عبارة عن ممر يتفرع عن الطريــق المؤدية الى الحمامات . وفي طرف الممر عدد من الدرجات الصاعدة يليها عدد من الدرجات المنحدرة ، وأخيراً يصل المرء الى باب صغير ذي درجات فيدخل الى الجامع في موضع ملاصق للمحراب . ونستدل من وضع الجامع الغريب أن البنائين لم يكونوا يعملون حسب مخطط مترابط تم اعــداده مسبقاً . ويشبه الجامع الجوامع الاخرى التي بنيت قبل ذلك العهــد ، اذ يتألف من كنيف مستطيل غير مسقوف باستثناء الصدر الجنوبي المعقود الذي يضم المحراب . وليس هناك ما يدل على وجود مئذنة .

وتعتبر الحمامات اكثر المنشئات دقة ، فهي تتألف من رحبة أمامية ومدخل مسقوف ، وقاعة ضخمة طول كل ضلع من اضلاعها ثلاثون متراً وفي جانبها الجنوبي بركة ماء . كما تتألف أيضاً من غرف للحمامات الساخنة واخرى للحمامات الباردة وغرفة بخار ، ومــن غرفة استراحة خاصة ممتازة في الزاوية الشمالية الغربية . وفي القاعة خمسة تجاويف اثنان في الحائط الشرقي وتجويف في كل من الجدران الشمالي والغربي والجنوبي ، اما المدخل ففي الحائط الشرقي ، وكانت هذه التجاويف مسقوفة كالقباب على ارتفاع عظيم . اما السقف فيرتكز على ست عشرة قاعدة ضخمة تتألف من أعمدة متداخلة . وكانت هذه القواعــد تحمل اقواساً ضخمة فوق كل قوس منها صف من ثلاث نوافــذ ، وفي واجهات الجدار محاريب صغيرة بين النوافذ ، وهذه المحاريب مغشاة بالجبس ومدهونة بدهان يجعلها تبدو

كالمرمر الابيض والرخام الفستقي ، وكانت جوانب من السقف معقودة بالآجر ، فيما عدا الجانب الاوسط حيث تبرز القبة مرتفعة فوق مستوى الجوانب الاخرى . أما ارضيـــة الحمامات كلها فقد كانت مبلطة بالفسيفساء . وقد رصفت كل خلوة وكل مربع تقريباً على نسق هندسي يختلف عن سواه ، وهي تمثل أضخم قطعة فسيفساء واحدة عرفت حتى الآن من الفسيفساء القديمة . وهي ما تزال كاملة في الحالة التي صنعت عليها أصلاً فيما عدا بعض التلف الذي أحدثه سقوط الجدران (١) .

كان المدخل المسقوف عبارة عن غرفة مربعة صغيرة ذات جدران متوسطة ، اماسقفها فقبة تعتمد على دعائم الاقواس . وكانت داخلية الغرفة بأكملها مغشاة بالجبس المنحوت . وتتألف الرسوم على دعائم الاقواس من اشخاص ذكور يحملون رباطاً من اوراق الخرشوف فوقه صفٌ من الخراف الجاثمة مع امتداد الدائرة . وفوق هذا طبلة القبة التي كانت تحتوي على عشرة محاريب وربما اثني عشر محراباً ، وفي كل منها يقـــف شخص انسان مذكر أو مؤنث الواحد تلو الاخر بالتعاقب ، اما الرجال فيغطي كل واحد منهم حقوه بقطعة قماش بينما ترتدي النساء وزرات من عند الخصر حتى السيقان .كما ان النساء يتزيّن بقلائد وأقراط ومشابك في الشعر بينما يحمل بعضهن طاقات ورد او أطباق ملأى بالزهور ، وكانت كـــل هذه الشخوص مدهونة بألوان بهيجة . كما ان واجهة المدخل كانت مغشاة بالجبس المنحوت وتضم محرابين على جانبي المدخل ، وقد عثر في أحـــد هذين المحرابين على تمثال رجـــل يرتدي حلة حمراء طويلة ويحمل سيفاً ويقف على أسدين جاثمين . ويعتقد أن هذا التمثال هو تمثال الخليفة هشام وهو معروض في المتحف الفلسطيني بالقدس .

كانت جدران القاعة والخلوات تحتوي على صفوف من المحاريب على طابقين ،وقد عنيَ بالخلوة الوسطى في الجدار الغربي اكثر من سواه . وهنا ترى الصف الواطيء مـــن المحاريب على شكل حذوة الحصان تحيط به أنصاف الاعمدة وقد نحتت الجوانب العليا منها بينما صنعت محاريب الخلوات الاخرى على شكل مربع بسيط . وكذلك فان محاريب الصف العلوي تحتوي على أعمدة مزدانة بالجبس المنحوت وفي كل منها تمثال . وفي منتصف القبة

(١) أعدت دائرة الاثار برنامجا للقيام بترميم هذا القصر ، وقد قامت بوضع طبقة من الرمل والتراب سماكتها ٤٥ س. م فوق فسيفساء ارضية القاعة الرئيسية للحمامات لوقايتها من التلف اثنـــاء عمليات الترميم . ثم باشرت العمل في بناء القوائم الست عشرة ، فانجزت بناء اربع منها في باديء الأمر ، ثم انجزت ما تبقى بعد ذلك ، عن طريق استعمال الحجارة القديمة في اكثرها . وقد انجزت الدائرة ترميم محراب الجامع الرئيسي . وقامت بازالة كميات كبيرة من الانقاض المتراكمة ، بين القاعة الرئيسية للقصر ، والقاعة الرئيسية للحمامات .

النصفية في هذه الحلوة ينحدر حجر معلق على سلسلة حجرية ، وكل هذا نحت من كتلة حجرية واحدة . وبالاضافة الى ما تقدم فأن ارضية الفسيفساء هنا صنعت بدقة اكثر من الحلوات الاخرى ، اذ تمثل عدة اشكال ورسوم على هيئة فسيفساء المربع الاوسط .

وترى في الجانب الجنوبي درجات بين القراعد تؤدي الى بركة السباحة ، ومن الواضح ان الدرجات والبركة لم تكن ضمن المخطط الاساسي ، لان الدرجات وجدران البركة غير متحدة مع القراعد ولا مع الجدران الرئيسية .

من الواضح ان الغرفة الصغيرة في الزاوية الشمالية الغربية كانت ذات اهمية خاصة ، لان الفسيفساء التي تغطي أرضيتها اكثر جمالا ودقة مما عداها في البناء ، وقد بذل في تزيينها وزخرفتها اكثر مما بذل في سواها . وهذه الغرفة تتألف من قسمين : القسم الامامي وهو مربع وعلى جانبيه دكتان مستطيلتان ، والقسم الخلفي وهو تجويف نصف مستدير ترتفع أرضيته عن مستوى القسم الامامي . ولقد صنعت فسيفساء القسم الامامي على شكل سجادة في تنسيق هندسي مع وجود (شرابه) في كل زاوية من زواياها . أما ارضية القسم الخلفي فتصور شجرة نارنج تحمل ثماراً وتبدو فيها الظلال بعناية فائقة ، والى يسار الشجرة غزالان يتضمان الحشائش ، بينما يبدو الى اليمين أسد يهاجم غزالا آخر . ومن الواضح ان الشكل والالوان والظلال كانت في الاصل قد نسخت عن قطعة قماش من أقمشة المفروشات المزركشة ، يؤيد هذا الرأي وجود عدد من (الشرابات) على دائرها . لقد صنعت هذه القطعة بمهارة فائقة حتى جاءت آية في الجمال ، كما ان حجم حجارتها يساوي نصف حجم حجارة الفسيفساء في القاعة الرئيسية . مما أتاح للفنان أن يجيد في تلوين الظلال إجادة تامة . ولم يلحق بأرضية القسمين أي تلف — فيما عدا قطعة صغيرة واحدة — بخلاف ارضية القاعة حيث حطمت الحجارة المتساقطة بعض اجزائها دون ان تتلفها تماماً .

كانت جدران هذه الغرفة مغشاة بمعجون المرمر المنحوت الذي ما تزال بقاياه محيطة بأدنى جدار القسم الخلفي ، ويبدو أن هذا القسم كان مسقوفاً بقبة نصف مستديرة داخلها مغشى بالجبس أيضاً . اما القسم المربع من الغرفة فتعلو فوقه قبة كاملة وفيها رسوم على هيئة جياد طائرة ، وفوق هذه نطاق عليه صور طيور حجل منحوتة ومدهونة ، بينما كان في طبلة القبة نوافذ من الجبس المنحوت وفي بعضها زجاج ملون . كما ان القبة كانت تزدان بعصابة عريضة رسم تحمل على طرفيها أغصان كرمة مجدولة وفي الوسط رسم وردة تتفرع منها ست اوراق ،

وترى بين كل ورقة وورقة رأس آدمية : احداها لرجـل والتي تليها لامرأة ،اما رؤوس الرجال فذات لحى بينما تزدان رؤوس النساء بالاقراط ، وقد لوّن شعر الرجال باللون البني الغامق وشعر النساء باللون البني الفاتح . وترى وراء هذه الرؤوس مباشرة درج دقيق الصنع تبدو فيه أغصان الكرمة وأوراقها .

سطى اللصوص فانتزعوا عدداً كبيراً من حجارة غرف الحمامات الباردة والساخنة في الناحية الشمالية ، خاصة لان أرضية هذه الغرف كانت مبلطة بالرخام. ويدخل المرء اول ما يدخل من القاعة الى غرفتي الاستحمام البارد،فيجد في أولهما بابا يؤدي الى غرفتي الاستحمام الساخن . لقد نزع الرخام من هذه الغرف ، كما نزع أيضاً قبل زمن قريب آجر التسخين الذي وضع في نظام دقيق جداً تحت بلاط الارضية . ولقد أُنشئت الغرفة الاولى من غرفتي الاستحمام الساخن مربعة الجوانب ، وأقيمـت موقدتها في الجـانب الشرقي حيث كانت الحرارة تمر بواسطة مجاري هوائية من الآجر تحت الارضية ، ثم تصعد مـع الجدران عبر قساطل فخارية ما يزال بعضها في موضعه حتى الان . وكانت هنالك فـوق الموقدة فجوة تحتوي على صهريج يسخن الماء فيه من اجل غرفة البخار ، اما الغرفة الشمالية فمستـديرة وتحتوي على ثمانية محاريب أنشئت على هيئة حذوة حصان ، وقد كانـت تدفئة المحاريب الخمسة القريبة من الباب تتم بواسطة الهواء الساخن القادم من تحت الارضية ، وبهـذه الطريقة أيضاً كانت تجري تدفئة بقية أنحاء الغرفة ، ولكن المحاريب الثلاثة الاخرى كانت تقع فوق الموقدة القائمة في الجدار الشمالي ، وفي كـل محراب منها صهريج لتسخين الماء . وكان إشعال النار في هاتين الموقدتين يتم من الخارج ، كما ان المرء كان يصل اليهما عـبر سلسلتين من الدرج .

تقع غرفة البخار الى الشرق ، وتمر قناة ماء حول ثلاثة جوانب منها ، وفوقها دكة تخترقها ثقوب مستطيلة على مسافات منتظمـة كي يندفع البخـار منها الى الغرفة . وكانت هنالك نافورة صغيرة في وسط الغرفة ، ربما كان الماء البارد يتدفق منها ، أما الارضية فقد كانت مبلطة بالفسيفساء البيضاء وغير الملونة .

لقد نقل الكثير من الجبس المنحوت الذي كان في هذه الابنيـة ، الى متحف الآثار الفلسطيني في القدس حيث يعرض هناك . وقد حتم اتخاذ هذه الخطـوة ، أن الجبس هشّ جداً ولا يمكن تركه في مواضعه معرّضاً للتقلبات الجوية،وخاصة لان اكثره مدهون وملوّن.

الفصل الحادي عشر

خربة قمران : اكتشاف مخطوطات البحر الميت — التاريخ التقريبي للضيعة — شيعة الأسينيين — شهادة يوسيفوس — خلو الموقع من السكان ٣١—٤ ق .م. — تخبئة المكتبة — الجيش الروماني ينهب الضيعة سنة ٦٨ أو ٦٩ ب. م — الخرائب .

أصبحت اليوم لهذا الموقع الاثري الصغير ، الذي يقوم على شواطىء البحر الميت على بعد بضعة كيلومترات الى الجنوب من اريحا — شهرة عالمية بسبب العثور على مخطوطات البحر الميت فيه . وعندما ذاعت أنباء العثور على هذه المخطوطات التي لا مثيل لها ، لاول مرة أثناء ١٩٤٨— ١٩٤٩ ، لم تكن قمران معروفة الا لعدد قليل من علماء الآثار ، وحتى هؤلاء لم يقم كثيرون منهم بزيارة الموقع والوقوف عليه . وأول زيارة قام بها العلماء لهذا الموقع حدثت في أواخر القرن الماضي . وكان من جملة ما قيل في وصفه ان احد العلماء ذكر انه قد يكون موقع مدينة عمورة ، معتمداً في ذلك على تشابه بين الاسمين . وفي ذلك الحين لم تكن دراسة القطع الاثرية الصغيرة وعلم طبقات الارض قد بلغت من الدقة ما بلغته الآن ، ولم يكن بمقدور أي عالم آثار معاصر وهو يشاهد الموقع قبل اجراء الحفريات فيه — ان يضع تاريخه قبل العهد الروماني .

مخطوطات البحر الميت :

لقد سبق أن وصف كثيرون قصة الاكتشاف الاول للنماذج الاولى من مخطوطات البحر الميت ، مع وجود اختلافات كثيرة بين كل قصة وقصة ، ولكنني ما ازال اعتقد أن القصة الصحيحة هي تلك التي رواها لي أصلا في اوائل صيف ١٩٤٩ الراعيان اللذان اكتشفا المخطوطات ، وهي القصة التي نشرت في جريدة التايمس اللندية بتاريخ ٩ آب من ذلك العام — اذ لم تكن حينذاك بهما أية حاجة او اي دافع لاخفاء المعلومات او للزيادة فيها . وهذه القصة باختصار هي ان الراعي الاصغر سناً بين الاثنين فقد احدى رؤوس الماعز التي كان يرعاها عند أقدام التلال على الشاطىء الشمالي الغربي للبحر الميت في صيف ١٩٤٧ .

وبينما كان الراعي يبحث عن العنزة في جوانب الاودية الوعرة – شاهد منفرجاً مستديراً في الصخر . وقد دفعه حب الاستطلاع لكي يتطلع بمزيد من الامعان في هذا المنفرج الذي كان عمودياً في وجه الصخر على مستوى النظر . ولم يستطع ان يرى شيئاً عــدا ان باب المنفرج يؤدي الى مغارة في الداخل ، وهكذا التقط حجراً ورمى به ، واشد مــا كانت دهشته – وخوفه – عندما سمع صوت ارتطام الحجر بشــيء ما في الداخل وصوت تكسير ذلك الشيء . وسرعان ما غادر ذلك المكان ، لكي يعــود بعد يوم او يومين مع رفيقه . وصعد الراعيان الى بــاب المغارة وهما يغالبان الخوف مــن المجهول ، وولجا الى الداخل فوجدا نفسيهما يعبران شقاً ضيقاً في الصخر تقوم على جانبيه بعض الجرار المستطيلة ، وهما يذكران أربعة في جانب وخمسة في الجانب الاخــر – كما شاهدا أقداحاً من الفخار مثبتة فوق رقاب الجرار لتغطيتها . كانت احدى الجرار قد تحطمت بفعل الحجر الذي رمى به الفتى ، وعندما تفحصــا الجرار اكتشفا انها كلها فارغة الا واحــدة منها ، وهي جرة كانت تحتوي ثلاث لفائف من الجلد العتيق ، كما لاحظا كتابة على الجلد . والواقع انهما شعرا بخيبة أمل ، لان الجرار لم تكن مليئة بالذهب ، ولكنهما مع ذلك حشرا اللفائف الجلدية في عبيتهما وغادرا المغارة . وعرض الراعيان هذه اللفائف الغريبة على الاقارب والاصدقاء ، وقد وصف لي أحدهم وصفاً شائقاً كيف امتدت اللفيفة الكبرى عندما بسطاها من طرف خيمتهم الى طرفها الاخر . ونستدل من هذا الوصف ان تلك اللفيفة بالذات كانت مخطوطة سفر اشعيا المشهورة ، التي يبلغ طولها حوالي سبعة أمتار .

لم تتضح بعد طريق المغامرات التي مرت عليها هذه المخطوطات الثلاث بعد ذلك . ولكن المخطوطات وجدت سبيلها في النهاية الى أشخاص كان باستطاعتهم أن يقدروا ، على نحو ما ، أهميتها الحقيقية . ومن سوء الحظ ان فلسطين كانت حينذاك تعاني من ويلات القتال وتمرّ في مرحلة انتهاء الانتداب البريطاني ، لهذا اجريت حفريات بصورة سرّية في المغارة – التي نعرفها الان باسم الكهف رقم ١ – وقام بهذه الحفريات الاشخاص الذيــن أصبحت المخطوطات الاولى في حوزتهم . وقد عرضت بعض هذه المخطوطات على المدرسة الامريكية للابحاث الشرقية في القدس ، فأخذت صوراً لها ، وأول ما علمت عنها انني اطلعت على اعلان موجز ظهر في نشرة تلك المدرسة التي وصلت اليّ في شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤٨ . وكان واضحاً حتى من هذه المعلومات الموجزة أن هذا الاكتشاف ذو أهميــة

بالغة ، وان الكهف يجب أن تجرى فيه الحفريات في أسرع وقت ممكن . ولكن المشكلة ان نعثر على الكهف عينه . وبقي الامـــر معلقاً حتى هدأت الاحوال قليلا ، وفي كانون الثاني ١٩٤٩ استطاعت فئة صغيرة من رجال الجيش العربي أن تبحث في المنطقة التي كنا نخمـــّن وجود الكهف فيها ، وأن تعثر عليه فعلا . وعندما علمت بهذا النبأ ، سارعت الى تنظيـــم حملـــة صغيرة تتألف من الاب ديفو مدير مدرسة التوراة والآثار الفرنسية في القدس ، وعامل من عمان واثنين من متحف الآثار الفلسطيني ، ومنّي أنا . ونزلت هذه الحملة في موقع الكهف وبعد أبحاث دقيقة وحفر الكهف رقم ١ ، بقينا نواجه معضلتين رئيسيتين : ما هو التاريخ الحقيقي للمخطوطات ؟ ومن أين جاءت في الاصل ؟ لقد تمكنا من الحصول على الكثير من القطع الصغيرة للمخطوطات وعلى كمية كبيرة من الجرار الفخارية ، ونتيجة لفحص الجرار قرّ رأينا على انها تعود في تاريخها الى ما قبل العهد الروماني أي حوالي القرن الاول ق. م. لان اكثر الجرار على شكل اسطوانات كبيرة تغطي فتحاتها الاقداح ، وهذه النماذج مما لم يعثر عليه في أي موقع روماني في البلاد . وعلى أية حال فقد كان هنالك قطـــع فخارية قليلة تمثل آنية طبخ من العهد الروماني ، بالاضافة الى اجزاء من سراجين رومانيين ، وكان تقديرنا ان هـــذه الموجودات الثانية تعود الى القرن الثاني ب . م . ولقد كان هذا في البداية شيئاً مثبطاً للعزائم ويبعث على الحيرة .

كان من بين الاشياء المختلفة التي عثر عليها في الكهف الاول ، كمية من القماش ، وقد تم فحص نموذج من القماش على الكربون ١٤ وكانت النتيجة ان تاريخه يعود الى سنة ٣٣ب .م ـــ ٢٠٠ سنة أو + ٢٠٠ سنة. وبقي الموقف على هذه الحال لمدة من الزمن ، بينما مضى علماء الاثار والمخطوطات القديمـــة يناقشون قضيـــة التاريخ على أساس شكل الحروف ومحتويات المخطوطات التي كانت بين الايدي للدراسة .

كنا جميعاً نعتقد في ذلك الوقت ان هذا الكهف لا مثيل له ، وانه لم يكن هناك وان يكون اكتشاف آخر يماثله . وهكذا كان من الاهمية بمكان ان نحاول ايجاد وسيلة اكثر دقة لتعيين تاريخ المخطوطات ، وان نحاول أيضاً العثور عـــلى المكان الذي جاءت منه اصلا. وأعدنا من جديد فحص القطـــع الاثرية التي عثرنا عليها في قمران ـــ وهو الموقع القـــديم الوحيد في تلك الناحية ـــ وأثبت لنا هذا الفحص أن تلك القطع تعود الى العهد الروماني ، كما بدا لنا ان ما بقي من البناء نفسه يشبه كثيراً خرائب قلعة صغيرة . واذ لم يكن هناك أي موقع

ثري آخر ، فقد عقد العزم عام ١٩٥٠ عـلى القيام بحفريات تجريبية هناك . واختيرت لاجراء التجربة ثلاث غرف في الزاوية الجنوبية الغربية من البناء الرئيسي ، وتبين فيما بعد أن الاختيار كان موفقاً جداً ، اذ عثر عند مستوى أرضية أحدى الغرف على جرة تماثـل الجرار التي عثر عليها في الكهف ، والى جانبهـا قطعة نقود تعود الى سنة ١٠ب .م .وفي نفس الوقت عثر على كثير من الأسرجه والاواني الاخرى ذات الطراز الروماني ،وكان من الواضح وجود علاقة مباشرة بين هذه المكتشفات والكهـف ، وأهم من هـذا إمكان الوصول الى تاريخ دقيق .

وفي أواخر سنة ١٩٤٩ بدأت تظهر في الصحف قصص عن الأسعار الخيالية التي بلغت اليها المخطوطات ،واعتزم البدو الذين اكتشفوا المخطوطات في الاصل ان يجربوا حظهم في العثور على كهوف ومخطوطات أخرى ، لانهم في الواقع لم يفيدوا كثيراً مـن اكتشافاتهم الاولى. ان المنطقة التي يتجولون فيها برية موحشة وجرداء ، وهي تقع بين البحر الميت وبيت لحم ، وانه لمن العسير جداً على أي انسان لايعرف المنطقة معرفـة حسنة ، أ يسلك سبيله فيها دون ان يستعين بأحـد البدو دليلاً . انها بريـة صخرية مهجورة ، واد رغب بعض الاشخاص ان يختبئوا فيها فانهم يستطيعون ان يختفوا عن الانظار حتى ولو ان جيشاً بأكمله شرع في البحث عنهم . واكثر اولئك البدو كانوا رعاة في صغرهم ويذكرون كثيرا من الكهوف والمغاور التي كانوا يأوون اليها ، وهكذا عادوا وبدأوا يبحثون عـن المخطوطات . وسرعان ما كان النجاح حليفهم اذ عثروا في أوائل سنة ١٩٥١ على كمية من الجلود واوراق البردي وعليها كتابات ،وذلك في بعض المغاور الكبيرة في موقع (المربعات) على مسافة ١٨ كيلومتراً الى الجنوب من قمران . وتبين ان تاريخ هذه المكتشفات يعود الى حوالي سبعين سنة بعد تاريخ مخطوطات قمران ، ولكنها رغم ذلك كانت ذات أهمية عظيمة . وفي نفس الوقت تقريباً اكتشفت جماعة أخرى كانت تبحث في ناحية قمران — مغارة أخرى وفيها بعض قطع جلدية مكتوب عليها ،وكان من الواضح انها تماثل مخطوطات الكهف الاول في تاريخها وطرازها . وكنا يومذاك نجري حفريات في مغاور (المربعات) وهكذا ما كاد عملنا ينتهي هناك حتى اسرعنا بالعودة الى قمران وبحثنا في سلسلة من الكهوف عددها سبعة وثلاثون كهفاً في واجهة الشقيف. ولم نعثر على أية مادة مكتوب عليها الا في كهف واحد ، وكانت تتألف من ملفين نحاسيين عـلى جانبيهما الخارجيين علامـات واضحة لاشكال عبرية كان الاقدمون قد نقشوها بالمطارق . ولكن عثرنا في كل كهف دخلناه تقريباً

على قطع فخارية من طراز فخار الكهف الاول ، مما دل على ان تلك الكهوف كانت مأهولة بالسكان. وفي كانون الاول من ذلك العام أُجريت التجربة الاولى للحفريات في قمران واستمرت على مقياس أوسع لمدة ثلاثة أشهر من كل سنة حتى عام ١٩٥٦ حين تمّ تعرية الموقع الاثري كله ، كما تمّ التثبت من تاريخ انشاء البناء نتيجة للعثور على اكثر من اربعمئة قطعة نقود .

ولكن البدو حققوا اكتشافهم الاكبر في خريف ١٩٥٢ : الكهف الرابع (دعي كهف قمران : الثاني ، ودعي الكهف الذي كان يضم الملفين النحاسيين : الكهف الثالث ، وقد عثر في هذا الكهف على اكبر كمية من المواد المخطوطة التي عثر عليها حتى ذلك الحين ، رغم انها كانت كلها شظايا مقطعة . والسبب في ذلك ان الأقدمين القوا الملفات على ارضية الكهف بدلا من ان يودعوها في جرار كما كانت الحال بالنسبة لملّفات الكهف الاول ، وهكذا تعرضت ملفات هذا الكهف الى عوامل الرطوبة وأملاح الارض وغارات النمل الابيض والجرذان . لم يكن الكهف الرابع يبعد عن قمران اكثر من مئة متر ، لذلك شعرنا نحن والعمال بالهوان لاننا كنا قضينا هناك ثلاثة أسابيع كاملة خلال فصل الربيع دون ان يخطر على بال احد منا وجود ذلك الكهف .

تاريخ قمران :

نستطيع الان ان نقول ، بناء على الدلائل التي تحملها البقايا الأثرية والنقود — ان تاريخ قمران ، وبالتالي تاريخ المخطوطات ، كان كما يلي : لقد بدأت الحياة في ذلك الموقع على شكل قلعة في العصر الحديدي ، من المحتمل حوالي القرن السابع ق. م. وقد عثر على قطع أثرية صغيرة تعود الى تلك الفترة وكذلك قطعة فخار منقوشة . ويبدو ان الموقع ترك مهجوراً منذ ذلك الحين حتى القرن الثاني ق . م . عندما اعتزمت جماعة من الناس ان تعتزل في مكان بعيد عن العالم ، كي يتاح لاعضائها ممارسة شعائرهم الدينية وتعاليمهم ، تلك الشعائر والتعاليم التي لم تكن متطابقة مع حياة يهود القدس التقليدية . واختار أولئك القوم قمران وبنوا فيها ضيعة جديدة لهم فوق أساسات قلعة العصر الحديدي ، ولكنهم توسعوا في انشائها من الناحيتين الجنوبية والغربية . والواقع أن اختيار الموقع كان موفقاً اذ كان يقع على مرتفع من الارض يعلو عن سطح البحر الميت بحوالي ٢٥٠ قدماً ، ويحميه من الجنوب

المنحدر السحيق لوادي قمران ويحميه من الغرب الشقيف الشاهق الذي تمتد خلفه صحراء قمران ، كما تحميه من الشرق المنحدرات التي تنحدر الى شاطيء البحر الميت . وهكذا نرى ان الموقع لم يكن مفتوحاً الا من الشمال ، ومع ذلك لم يكن من السهل الوصول اليه من تلك الجهة ، وبالرغم عن أن أولئك القوم لم يكونوا يميلون الى الحروب فانهم اتخذوا احتياطات دفاعية . لقد أنشأوا نظاماً دقيقاً من آبار المياه وكذلك قناة لجلب مياه الامطار من مساقطها في وادي قمران، اذ كانوا يعتمدون كلية على مياه الامطار لقضاء حاجاتهم . وجعل أولئك القوم من أنفسهم جماعة تعتمد علـى نفسها كل الاعتماد ، حتى أنهم أنشأوا مصنعاً لعمل أواني الفخار وكذلك الافران الملحقة به. ومن المحتمل أنهم كانوا يزرعون الاشجار والنباتات في أراضي المستنقعات الى جانب البحر الميت بين قمران والفشخة من ناحية الجنوب لانتاج الفواكه والخضروات التي يحتاجون اليها. ويبدو ان مذهب تلك الجماعة أستطاع ان يجتذب المزيد من الاتباع ، اذ توجد هناك دلائل على إجراء توسيعات وتعديلات في الابنيـة ومن جملتها البناء الذي أنشيء أولا .

يبدو أن اولئك القوم عاشوا حياة هادئة يسودها السلام خلال قرن من الزمن تقريباً . وعندئذ حدث حادث ما جعلهم يتفرقون ويهجرون منازلهم مدة مـن الزمن . ولقد تبيّن نتيجة للحفريات أن زلزالا عظيما أصـاب تلك الضيعة بالدمار ، حتى إن البناية الرئيسية أنشقت الى شطرين وهبط الشطر الشرقي حوالي ٥٠ سنتم عن مستوى الشطر الغربي . ولا بد ان تكون شدة الزلزال قد تسببت في تهديم بقية الأبنية في نفس الوقت ، وهناك دلائـل كافية على حدوث هذا . ويستطاع تعيين تاريخ هذا الزلزال بكثير من اليقين اعتماداً على مصدرين : النقود التي كشفتها الحفريات والمؤرخ يوسيفوس . فالنقود تمثل فترات متتالية من عهد يوحنا هركانوس (١٣٥—١٠٤ ق . م .) الى عهد هيرودس الكبير (حوالي٣٦ ق . م .) ولكن لم يعثر من نقود هذا الحاكم الاخير الا على خمس قطع رغم ان فلسطين بلغت مستوى طيباً من الرخاء في عهده ، ويصعب تفسير وجود هذا العدد القليل من النقود لو ان قمران كانت مأهولة بالسكان خلال عهـد هيرودس . وينبئنا يوسيفوس ان زلزالا عظيما هائلا حدث في ربيع سنة ٣١ق. م . عندما كان هيرودس مع جيشه في أريحا ، وأن هذا الزلزال بعث الفزع بين رجال الجيش . ان تاريخ الزلزال يطابق الدليل الذي جاءت به النقود ، ولكننا لانستطيع الان أن نجزم عما اذا كان الزلزال هو الذي تسـبب في إخلاء

قمران ام ان هنالك سببا آخر . وبحسب الظواهر فان حدوث زلزال لا يعتبر سبباً كافياً لان يهجر السكان مكاناً مترعرعاً كقمران ، مع أنه يحتمل أن اولئك القوم اعتبروا حدوث الزلزال كدليل على الغضب الالهي تجاه معصية من المعاصي .

ومهما يكن من أمر فأن ذلك الموقع بقي مهجوراً على الاقل من سنة ٣١ ق. م. حتى حوالي سنة ٤ ق . م . وهذا التاريخ الاخير يطابق تاريخ النقود التي عثر عليها في قمران بأعداد معقولة . وهناك إثبات غريب لاخلاء قمران وتاريخ إعادة بنائها ، وهذا الاثبات هو العثور على ثلاث جرار تحتوي على ٥٧٠ قطعة نقد فضية وذلك في احدى الغرف الغربية في مستوى الارضية ، بل ان احدى تلك الجرار كانت ملاصقة لمدخل الباب . وتتراوح تواريخ هذه النقود من سنة ١٣٥ ق . م . الى سنة ٥ ق . م . وكانت بمثابة ثروة كبيرة في تلك الايام ، ومن المستبعد أن تكون هذه النقود قد خبئت عندما كانت قمران مأهولة بالسكان ، لانه ما من شخص يمكن أن يخبيء نقوده في ملاصقة مدخل الباب ، والاولى أن تدفن النقود في أحدى زاوايا الغرفة ، كما ان تواريخ النقود تطابق هذا الافتراض مطابقة تامة .

وعلى أية حال فأن اعضاء الجماعة عادوا الى قمران حوالي سنة ٤ ق . م . وعزّلوا خرائب الابنية وبدأوا انشاءها من جديد. وقد القوا الانقاض في واد جانبي الى الشمال . وهنا يمكن القول انه اذا كان الزلزال قد تسبب في إخلاء قمران فان ذلك يوضح عدم وجود هياكل بشرية بين الخرائب. على ان القوم أعادوا بناء المنازل والابنية العمومية ومن جملتها طاحونة لطحن الحبوب ومخبز ومستودعات للحبوب وأفران لشيّ الفخار وحفرة لعجن الطين الخزفي ، وأتون ربما كان يستعمل في صناعة التعدين . ويبدو أن بعض أفراد تلك الجماعة كانوا يقيمون في الكهوف الطبيعية المختلفة القريبة من هناك ، بل انهم حفروا مغاور أخرى في الصخر الطري هناك . ونرى انهم صنعوا درجا في الصخر يؤدي الى كثير من المغاور التي حفروها بأيديهم .

بدأت أول ثورة يهودية ضد الرومان سنة ٦٦ ب . م . واتسعت هذه الثورة اتساعاً أدى الى دخول بعض الفيالق الرومانية الى البلاد من أجل اخمادها . ولا يعرف عما اذا كان سكان قمران اشتركوا في الثورة اشتراكاً عسكرياً أو سياسياً ، ولكن من المستبعد ان يكون قد حدث شيء من هذا . ومهما يكن من أمر فقد كانوا يقيمون هناك : جماعة صغيرة

معزولة وليس لديهم أية وسائل دفاعية . ولم تهتم الفيالق بالتفريق بين هذه الجماعة اليهودية او تلك . وهكذا نهبت قمران وأحرقت سنة ٦٨ أو ٦٩ ب . م . ومن المحتمل أن يكون السكان قد ذبحوا . ولكن لا بد أنهم عرفوا مسبقاً بقدوم الرومان (نحن نعلم مما كتبه يوسيفوس ان الفيلق العاشر كان في اريحا) فخبأوا على عجل أثمن ما كانوا يملكون — مكتبتهم — في بعض الكهوف القريبة . ولقد تم التعرف حتى الان على بقايا اكثر من اربعمئة مخطوطة مختلفة — وهي مكتبة كبيرة بالنسبة الى تلك الايام — مع العلم ان هذه المجموعة قد لا تكون هي محتويات المكتبة الاصلية . وليس من شك في أن بعض الاشخاص كانوا يأملون أن يعودوا لانقاذ المخطوطات ولكن هذا لم يحدث أبداً . ولقد أقام الرومان مخفراً صغيراً فوق خرائب جانب من البناء الرئيسي يرتفع حوالي مترين فوق مستوى أرضيات بعض الغرف . ويبدو من النقود التي وجدت في ذلك المخفر ان الاقامة فيه استمرت حتى نهاية القرن الاول . أما بعد ذلك فقد أخلي المخفر ، ولكن يبدو ان البرج في الزاوية الشمالية الغربية صار موئلا لبعض الاشخاص ، اذ عثر في ثقب في أرضية الطابق الاول على مجموعة من النقود تعود الى عهد الثورة اليهودية الثانية التي نشبت خلال الفترة ١٣٢—١٣٥ ب .م . ويبدو ان هذا البرج كان أحد مخابيء الثوار الكثيرة في صحراء اليهودية الجرداء .

بعد ذلك بقيت قمران مهجورة من السكان ، الا اذا كان بعض الرعاة قد عبروا بها في أوائل العهد العربي ، ولم تفق من سبات القرون الا عند اجراء الحفريات مؤخراً فيها . ولكن المنطقة لم تكن مهملة كلياً . ونحن نرى لمحة أخرى عنها حوالي سنة ٨٠٠ ب. م .من خلال رسالة كتبها شخص يدعى تيموثيوس بطريرك بغداد — سلوقية ، الى سرجيوس مطران عيلام ، وقال فيها ان شخصاً معينا من القدس قام بزيارته قبل مدة وجيزة وقص عليه حكاية غريبة . وتفهم من هذه الحكاية أن رجلا عربياً كان يصطاد مع كلبه في المنطقة القريبة من اريحا ، وان الكلب كان يطارد احد الحيوانات البرية فاختفى في أحد الكهوف الصخرية . وعندما لم يعد لحق به صاحبه بعد فترة وجيزة ، فوجد نفسه في بيت صغير محفور في الصخر ويحتوي على مخطوطات كثيرة . وقد أنبأ العربي بعض علماء اليهود في القدس عما شاهد في الكهف فجأوا اليه ونقلوا كثيراً من المخطوطات التي قال البطريرك انها كتب من العهد القديم (التوراة) وكتب عبرية أخرى . ومن هذا يستطاع القول أن القصة تشير الى احد كهوف قمران .

يكاد ينعقد الاجماع اليوم على ان تلك الجماعة التي كانت تقيم في قمران هي شيعة الاسينيين الذين يحدثنا عنهم يوسيفوس أحاديث مفصلة، كما ان بليني الكبير وهو احد كتاب ذلك العصر يحدثنا أيضا عنهم . وينطبق وصف بليني للموقع الذي يقيم فيه الاسينيون على شواطيء البحر الميت — انطباقاً شديداً على موقع قمران ، بحيث يمكن ان يكفي هذا الوصف وحده للقول بأنه قمران بالتأكيد . ويبدو أن محتويات المخطوطات تثبت انها من كتابات الاسينيين ، مع ان بعض العلماء ما يزالون غير مستعدين للاقتناع بهذا . وعلى أية حال ، فأن احداً لم يشر حتى الآن الى موقع آخر غير قمران يمكن ان ينطبق وصفه وآثاره وتواريخه على موقع الاسينيين .

الاثــار :

يمكن أن نشاهد من الصور الجوية ان هناك ثلاثة مداخل رئيسية للاثار القائمة حالياً : الاول الى الشمال من البرج (٣٢) والثاني في الجدار الشرقي الطويل والثالث في الزاوية الجنوبية الغربية . وكان هنالك أيضاً باب في الجدار الجنوبي للغرفة الطويلة في الجهة الجنوبية . ولكن هذا الباب أغلق في المرحلة الاخيرة . وكان للرومان باب (١) في محاذاة الزاوية الشمالية الشرقية للبرج ، وباب آخر الى جانب البئر ذات الشقوق (٢) .

يدخل المرء من الباب القائم في الجهة الشمالية الغربية من البرج (٣) فيجد نفسه في ساحة سماوية (٤) ومن هناك يلج بابا الى اليمين يؤدي الى ساحة اكثر اتساعاً . ويسير منحرفاً عبر هاتين الساحتين مصرف الماء الرئيسي المغطى بألواح الحجر والذي يصب في الوادي الصغير الى الشمال . وهناك بئر ذات درج (٥) وراء هاتين الساحتين الى الغرب ، والى جانب البئر ما يبدو انه مجموعة من بوابات السدود لتنظيم جريان الماء من القناة ؛ وتمتد امام البئر فسحة سماوية واسعة (٦) يبدو أنها كانت تستعمل لترسيب الطين الممتزج بالماء قبل ان يجري في القناة الرئيسية الى جميع الآبار الاخرى . واذا عدنا الى الدرج ، نرى بقايا بوابة أخرى تؤدي جنوباً الى ساحة سماوية مستطيلة (٧) . وهنا نرى ان البناية الرئيسية تقع الى الشرق بينما تقع حجرات السكن الاضافية الى الغرب .

ويوجد هنا بابان في جدار البناء الرئيسي ، يستطيع المرء منهما أن يدخل الى جوانب مختلفة منه : فيؤدي الشمالي منهما (٨) الى الجانب الاوسط بينما يؤدي الجنوبي (٩) الى مجموعة من الغرف يبدو أنها كانت ذات أهمية خاصة . وليس من السهل الآن ان نعرف

لأية غاية كانت تستعمل الغرف المختلفة في الجانب الاوسط لان الجنود الرومانيين استعملوا كثيراً منها مرة أخرى ، ولكن ربما كانت الغرفــة (١٠) تستعمل مطبخاً . واننا نرى في زاوية (١١) مالا بد انه كان حماماً من نوع ما ، فالجدران والارضية مقصورة بالجبس ، ويجري مصرف تحت الجدار الشرقي . ويؤدي الباب الجنوبي الى ممر توجد في طرفـه الجنوبي درجات ترتقي الى الطابق الاول ، ولقد كــان هذا الجانب من البناء على الاقل يتألف من طابقين ، كما ان بعض اجزاء جناح السكن كانت كذلك .

هناك في الجانب الشرقي حجرة ضيقة مستطيلة (١٢) عثر فيها على أثر ذي أهمية بالغة. فقد وجدنا بين الانقاض في داخلها كمية كبيرة مــن اللبن الترابي المقصور بالجبس ، ومن الواضح أن هذا اللبن سقط من الطابق العلوي . كان هذا اللبن قد صنع على هيئة غريبة ، فالجانب العلوي منبسط ولكن الطرفين منحنيان وضيقان عند القاعدة ، وهناك أيضاً بقايـا مقعد واطيء . لقد تم جمع القطع المتناثرة صغيرها وكبيرها بعناية ، وعند ضمها الى بعضها البعض في متحف القدس تبين انها كانت على هيئة طاولة مستطيلة ووراءها دكة مستطيلـة واطئة . ولقد عثر على محبرتين بين هذا الركام احداهما من البرونز والثانية مــن الفخار ، وكانت محبرة البرونز ما تزال تحتوي على كمية من الحبر الجاف ، ومن هذا يبدو ان هــذه الحجرة كانت تستعمل مكتباً يجلس الناسخون فيه لنسخ المخطوطات ، ولا بد أن العمل على منضدة كهذه كان شاقاً للغاية .

يعتقد ان الحجرة الواقعة جنوبي الممر كانت تستعمــل مكانا للاجتماعات (١٣) اذ توجد هناك دكة واطئة تشبه الدكة التي في المكتب وتمتد حول جوانب الحجرة الاربعة ، كما ان الارضية مقصورة بالجبس مثلها مثل الدكة . وفي ملاصقة جانب الباب من الداخل الى اليسار — محراب مقصور وحوض في الجدار ، مع قناة صغيرة مقصورة تمتد خلال الجدار حتى الممر ، حيث يمكن بواسطة هذه القناة أن يتم تزويد الحوض بالماء دون ان يستطيع أي شخص من الخارج ان يعيق أي عمل يجري في الداخــل . وهناك ثلاثة محاريب مربعة في الجدار الجنوبي من المحتمل أنها كانت تستعمل خزائن ، رغم أنها تبدو كأنما كانت في وقت ما أبواباً تتخلل الجدار وتؤدي الى الحجرة المجاورة . وكــان للحجرة في الاصل باب في الطرف الغربي للجدار الجنوبي ، ولكن هذا الباب أغــلق في آخر مرحلة . أما الحجرتان الواقعتان الى الجنوب فلايعلم لأي غرض كانتا تستعملان ، كما ان الحجرة القائمة الى الغرب أنشئت في وقت متأخر لان جدرانها غير ملتحمة مع الجدران الرئيسية :

ويمكن أن نرى في الطرف الجنوبي للساحةالتي تفصل البنائين ،بقايا التنور الكبير الذي كان يستعمل للخبز (١٤) . ونرى خلفه في الجانب الاخر من قناة الماء،الارضية المرصوفة بالحجارة حيث تقوم الطاحونة (١٥). اما الطاحونة نفسها وهي مصنوعة من الحجر الناري الاسود فتوجد خارج البناء الى الجنوب . وعلى مقربة تقع بئر مـن اكبر الابار في قمران (١٦) ، مع وجود مجموعة من الدرج تنحدر اليها وحوض لتصفية الماء الى جانبها .وهناك بئر اخرى الى الشرق مباشرة تنـحدر اليها أيضاً بواسـطة درج ولكنها تقسم الى قسمين بواسطة جدار في منتصفها (١٧ و ١٨) ومـن العسير ان نعرف سبباً للجدار الفاصـل . وتسير قناة الماء مع الجانب الشمالي لهذه البئر ،وعلى المرء ان يتابع مجراها كي يستطيع الدخول الى الجناح الشرقي من البناء . وهنا أيضاً تقع بئر أخرى ذات درج (١٩) وتظهر فيها بوضوح نتائج زلزال سنة ٣١ ق . م . لانها مشقوقة من منتصفها وقد انخفض نصفها الشرقي حوالي ٥٠ سنتيمتراً تحت مستوى النصف الغربي . ويمكن ملاحظة استمرار هذا الشق في بئر صغيرة ملاصقة الى الشمال ، كما ان الشق يستمر متصلا عبر بقية جدران البناء . وترى الى الشرق من البئر ذات الدرج حماماً أو حجرة غسيل (٢٠) . كما يمكن ان نرى تحت درج البئر بقايا اتون كبير لصنع الفخار ، ولا بد ان هذا الاتون انشيء في المرحلة الاولى للبناء .

تنحني قناة الماء حول الطرف الشرقي للبئر وتمضي شرقاً كي تتصل ببئرين صغيرتين ، دمرت الزلازل احداهما ، وأخيراً تنتهي القناة عند البئر الكبيرة ذات الـدرج في الزاوية الجنوبية الشرقية (٢١) . وتوجد خارج منطقة البناء حفـرة وحوض مقصور قليل العمق كان يستعمل لتهيئة الطين من اجـل صنع الفخار (٢٢) حيث ينقل المـاء اليه من القناة الرئيسية . ويقوم قريباً من الجدار الشرقي الخارجي تنوران للفخار احدهما كبير والاخـر صغير (٢٣) . وهناك جدار يمتد من البئر الكبيرة جنوباً مـع حافة الارض المرتفعة حتى منحدر وادي قمران ، فيشكل خطاً دفاعياً آخر . وتتألف المنطقة المفتوحة هنا (٢٤) من ركام اصطناعي يبلغ عمقه ٤ أقدام في بعض الجوانب ، وقد عثر على جرار فخارية عديدة مدفونة هناك وهي تحتوي على بقايا الولائم الدينية .

اما الحجرة (٢٥) فهي أوسع الحجرات في قمران ، ويحتمل أنها كانت تستعمـل للصلاة او لعقد الاجتماعات . وهناك مساحة مستديرة صغيرة بقرب الطرف الغربي وهـي

مبلطة بالحجارة ، وربما كان زعيم الجماعة يقف فيها أثنــاء الاحتفالات . أمـــا الحجرة المتصلة به من الجنوب فقد قسمت في آخر مرحلة الى ثلاثة أقسام ، وعثر في القسم الجنوبي منها (٢٦) على مخزن عظيم من الفخار وهو يحتوي على اكثر من الف وعــاء بين جرة وصحن وقدح وباطية .

يشمل جناح السكن الغربي ثلاث آبار اخرى (٢٧ –٢٩) احداها مستديرة ، ربما تكون أقدم الآثار في الموقع ، لان القناة الاساسية تنخفض قدمين تحت مستوى القناة الحالية وتصب مباشرة فيها ويمكن مشاهــدتها في الجانب الشمالي . اما البئران الاخــريان فانهما مستطيلتان كالمعتاد ولهما درج . وفي الحجرة المجاورة البئر المستديرة من الشمال (٣٠) بقايا مستودعين من الطين ، ومن المحتمل انهما كانا يستعملان لخزن الحبــوب . ولقد أجريت تبديلات عديدة في الغرف المتبقية في الجانب الغربي ،ولكن يبدو أنها كانت في الاصل ثلاث قاعات مستطيلة ضيقة . امــا الان فالقاعة الشمالية تؤلف ثــلا ث غرف ، ومما يدعو الى العجب ان القاعة الغربية لاباب لها يدخل المرء منه . ولا ترى في الحائط الذي انشيء عــلى غير ترتيب بخليط من الحجارة والاجر الترابي – سوى فتحتين ضيقتين . وفي هذه القاعة المستطيلة داخل الباب الاساسي مباشرة ، تم العثور على مجموعة النقود التي سبقت الاشارة اليها .

لا تبدو للعيان في الوقت الحاضر منافذ الى الحجرات التي يضمها البرج (٣٢) ولكن ربما كان الاقدمون يصلون اليها من السقف او من الطابق الارضي . وكان البرج يتألف من طابقين : الاول بدون ابواب أو نوافذ في الجدار الخارجي ، والثاني الذي لم تبق منه سوى بقايا رسوم . وهناك غرفة صغيرة غريبة الشكــل في الزاوية الجنوبية الغربية ، ينتصب في وسطها عمود مفرد – وربما كان يشكل دعامة لدرج حلزوني من الخشب ، كواسطة اتصال بالطابق الارضي . لقــد اصيب البرج بخراب كبير نتيجة للزلــزال ، ويمكن أن نرى في الحجرة (٣٣) عتبة باب محطمة ، وفيما بعد انشيء جدار مائل في ملاصقة جدران البرج من اجل دعمه وتقويته حتى يصلح اصطبلا للدواب .

ان نوعية البناء ضعيفة جداً على العموم ، ومهما تكن طبقة الناس الذين كانوا يقيمون فيه ، فلا بد أنهم كانوا يضمون بينهم معماريين او بنائين . وفي احدى الفترات كانت العمارة تشتمل على أعمدة ، اذ عثر بين الخرائب على قواعد أعمدة وحجارة اعمدة ، ولكن ربما

لم يبلغ انشاء الاعمدة مرحلة التمام لان بعض الحجارة لم يتم نحتها . ومن العسير جداً على الباحث أن يصنف المراحل التي مرّ بها البناء لكثرة ما أصابه من تغيير وتبديل في مختلف فترات الاقامة فيه ، كما ان الفخار لا يساعد كثيراً في تصنيف المراحل اذ ان طراز صنعه لم يشهد سوى تطور لا يكاد يذكر طوال الفترة التي كان البناء فيها مأهولا بالسكان .

يقع الكهف الرابع المشهور قريباً جداً من عمارة قمران ، في تلعة من الارض غربي العمارة مباشرة ، وعلى حافة الوادي . وليس من العسير على من أحب زيارته أن يصل اليه ، خاصة بعد ان نحتت بعض الدرجات الغشيمة لتسهيل الوصول الى الكهف . وهذه الدرجات تقود الى ثقب كان في الاصل مدخلا الى مجموعة الكهوف . وترى حفرة كبيرة في أرضية الكهف الرابع مما يدل على ان القدماء كانوا ينوون أن يحفروا كهفاً آخر ثم توقفوا عن اتمامه لسبب من الاسباب . ولقد ملئت هذه الحفرة بالانقاض مع مرور الزمن فلم ينتبه اليها البدو . وفيما بعد عندما تم تعزيلها وجدنا قطعاً كثيرة من المخطوطات بين الركام . اما الكهوف الاخرى فتقع كلها في الواجهة الصخرية الى الغرب ، وعلى مسافة من قمران ، وانه ليستحيل العثور عليها دون دليل .

وفي السنة الاخيرة من سني الحفريات ، تم الكشف عن ضيعة أخرى قريباً من عين الفشخة غربي قمران ، وحتى هذا الحين لم يتم تعزيل الضيعة سوى حجرة واحدة وجانب من حجرة أخرى ، ولكن ذلك كان كافياً للتثبت من أنها معاصرة لقمران (١).

تقع مقبرة قمران الرئيسية على الارض المنبسطة وفي التلاع الى الشرق من الضيعة ، وفيها ما يزيد على الف قبر ، وهناك مجموعات صغيرة من القبور شمالي الضيعة والى الجنوب منها ، واكثر القبور تواجه الشمال والجنوب ، ولكن بعضها يواجه الشرق والغرب ، ولم تكشف الحفريات عن أي أختلاف في طراز القبور ، لهذا فان سبب الاختلاف في الاتجاه ما يزال غامضاً . تتألف القبور من حفرة طولها متران تقريباً وعرضها نصف متر وعمقها

---

(١) كشفت الحفريات في عين الفشخة أبنية دلت محتوياتها انها تماثل ما اكتشف في قران ، مما يؤكد انها كانت مزرعة لسكان قران . وتبين ان سكان قران كانوا يزرعون اشجار البلح قريبا من ضيعتهم. (راجع حولية دائرة الاثار المجلدين الرابع والخامس — ١٩٦٠).

متران ، وهي على العموم تشبه في داخليتها وفي مظهرها من الخارج — مع وجود الشاهد في كلا الطرفين—القبور التي يقيمها عامة الناس في الاردن هذه الايام . ولم يكن يدفن مع الجثمان أي شيء في ما عدا بعض قبور النساء والاطفال جنوبي وادي قمران ، حيث وجدت بعض حبات من الخرز . كما عثر على بقايا تابوتين من الخشب في أثنين من القبور .

وعلى العموم ،فان خرائب قمران ليست مما يسترقف النظر أو يملأ النفس بالاعجاب ، ولكن اقترانها بالمخطوطات يجعلها ذات أهمية عظيمـــة . أضف الى هذا ان الضيعة تكاد تكون البناء الوحيد في البلاد الذي بقي قائماً على حاله منذ عهد المسيح حتى الان ، باستثناء ما أصابه من عوامل الانحلال الطبيعي . (١) .



(١) في الحفريات التي اجرتها دائرة الاثار عام ١٩٥٩ في خربة القويلبه « ابيلا القديمة شمالي اربد » عثر على مخبرة وجرة تشبهان تماما محابر الاسينيين وجرارهم . ويعتقد الدكتور الدجاني مدير الاثـــار ان الاسينيين اقاموا في المدن اليونانية الحرة (راجع المقالة التي كتبها مستر تشنجهام عن مخطوطات البحر الميت ونقلها المترجم الى اللغة العربية في العدد ١٤ من مجلة رسالة الاردن – آب ١٩٦٠).

الفصل الثاني عشر

دائرة الآثار : واجباتها ومسؤولياتها ـ المحافظة على المواقع الاثرية ـ تهريب الآثار وبيعها دون تصريح ـ المكافآت ـ اجتذاب السياح ، شراء مخطوطات البحر الميت من البدو ـ التعاون مع المؤسسات الأجنبية ، وقيام الدائرة بالترميم والاصلاح وحفظ السجلات ـ الحاجة الى خبراء فنيين ـ متحف الآثار الاردني في عمان ـ متحف الآثار الفلسطيني في القدس .

سبقت الاشارة بايجاز الى المهام التي تقوم بها دائرة الاثار ، ولكن عامة الناس لا يدركون المشاكل المختلفة الكثيرة التي تنطوي عليها شؤون التنظيم والادارة ، لذا فقد يكون من المفيد بحث هذا الموضوع والتوسع فيه .

من المؤكد ان الاردن سوف لن يعاني من قلة مشاريع البحث عن الاثار والقيام بالحفريات ،لان هذا البلد يثق بالجمعيات المهتمة بالآثار التي تقوم بالحفريات بعد الحصول على ترخيص من الحكومة ، كما ان الاردن يعامل هذه الجمعيات معاملة كريمة ويمنحها حصة عادلة مما تكتشفه من القطع الاثرية . ولكن لا نجد في أيامنا هذه جمعية تأخذ على عاتقها مهمة المحافظة على الاثار القديمة في بلاد أجنبية وصيانة تلك الاثار وترميمها . وتضطر معظم دوائر الاثار الحكومية ممارسة أعمالها في حدود ميزانية صغيرة تبعث الاسى في النفس ، لذلك ترى الدائرة من الضروري أن تدرس كل عمل من اعمالها بعناية تامة . فاذا ما أخذنا هذا بعين الاعتبار ، بدا لنا واضحاً ان واجب الحكومة يقتضي منها المحافظة على الاثار التي تم اكتشافها وعلى أوسع نطاق ممكن ، كما ان الحكومة يجب أن لا تبني سياستها العامة في هذا المجال على القيام بمشاريع الحفريات التي يمكن ان تجلب معها المزيد من المشاكل . فالفراغ من احدى عمليات الحفر لا يعني بأية حال وقوف القصة عند ذلك الحد ، لانه لا بد من العثور على كمية كبيرة من القطع الاثرية خلال عمليات الحفر ، واكثرها يكون عادة من الفخار المكسّر ، كما يمكن اكتشاف بعض الانصاب الاثرية المهمة . واذ تحصل الدائرة على حصتها من القطع الاثرية ، فان واجبها يقضي بتنظيف كل قطعة وترميم التالف منها

وتجديده – سواء كانت من الفخار او المعدن أو أية مادة اخرى ، كما يجب تصنيفها وتسجيلها وتصويرها وجعلها صالحة للعرض في المتحف . واذا تم اكتشاف أثر مهم فيتبقى على الدائرة ان تحافظ عليه في موقعه . وعلى أية حال ، فان للدائرة احياناً كل الحق في القيام بالحفريات ، كما يحدث مثلاً عند العثور بطريق الصدفة على قطع أثرية ، ومن أمثلة هذا ما يكتشف أثناء حفر الاساسات لبناء احد البيوت . وفي هذه الحالة يجب على الدائرة أن تعمل بسرعة حالما تبلغها أنباء الاكتشاف ، لان تأخير المتعهد او صاحب البناء اكثر مما ينبغي ومنعه من مواصلة العمل – سيؤدي بالنتيجة الى اخفاء ما يكتشف من القطع الاثرية في المستقبل او تحطيمها ، مما يحتمل ان ينتج عنه اختفاؤها الى الابد . ولا تنطوي عادة أعمال الحفر من هذا الطراز على جهود ضخمة ، وغالباً ما تكون بدون نتيجة ، ولكن من الضروري القيام بها رغم كل شيء .

ان اجتذاب الزائرين الى البلاد التي تضم مواقع قديمة – يعتبر أيضاً جزءاً من اعمال دائرة الاثار ، وهكذا فان القيام بالحفريات في احد المواقع بغية تحسين الفعاليات السياحية – يعتبر عملاً ضرورياً . وعندما تنعقد النية على القيام بحفريات في موقع ذي أهمية بالغة – كنمران مثلاً – فينبغي على دائرة الاثار ان تساهم في أعمال الحفريات ، فيما اذا لم يكن بمقدورها أن تقوم وحدها بالعمل كله . ومهما يكن من أمر فان السياسة العامة للدائرة يجب أن تتجه الى صيانة الآثار والمحافظة عليها ، وكما يعلم كل من له حظ من المعرفة بهذه البلاد – فانها تضم في أرجائها ثروة ممتازة من آثار العهود الغابرة .

انه لمن الضروري تعيين الحراس في جميع المواقع الاثرية الرئيسية وفي كل لواء من ألوية البلاد ، وينفق هؤلاء الحراس معظم أوقاتهم في الطواف والتنقل من مكان الى مكان ، كل منهم في منطقته ، وغالباً ما يكون ذلك بواسطة الخيل . كي يستيقنوا ان المواقع الاثرية – كبيرها وصغيرها – لا تستعمل كمحاجر لاستخراج حجارة البناء ولا تجري فيها حفريات غير مرخص بها ، ولكن غالباً ما تكون المنطقة التي يعمل فيها الحارس من الاتساع بحيث لا يتمكن من زيارة موقع ما اكثر من مرة واحدة في السنة . ورغم ان هذا الترتيب أفضل من لا شيء فانه – لسوء الحظ – يترك مجالا واسعاً أمام اللصوص للقيام بأعمالهم .

وترى معظم الناس في أي بلد من بلدان العالم يهتمون بالاثار بقدر ما تساوي من مال ، وهم على العموم يحملون افكاراً تنطوي على الغلو والمبالغة بشأن أية قطعة أثرية ، كما أنهم في نفس الوقت يخشون ان يتورطوا مع الحكومة بهذا الشأن ، وهو موقف يندفعون اليه بسبب

تجاربهم السابقة . وينص قانون الاثار على ان جميع الاثـــار ملك للحكومة وأن لها الحق في مصادرة أية قطعة أثرية أو أي مادة حدث خلاف قانوني بشأنها ، وهذا النص عادل جداً ومعروف لدى معظم المواطنين في أي قطر . ولكن أولئك الناس – ومثلهم كثيرون مـــن موظفي الحكومة أيضاً – يجهلون أيضا عبارة أخرى في القانون تنص عـــلى أن أي شخص يكتشف بطريق الصدفة قطعة أثرية ويبادر بسرعة الى احاطة المسؤولين علما بذلك ، يستحق أن يحصل على مكافأة مناسبة اذا كانت الحكومة ترغب في أقتناء تلك القطعة . ولكن حتى لو افترضنا اندائرة الاثار تمسكت بهذاالنص الاخير تمسكاً تاماً ، فان الخشية من الحكومة غالباً ما تدفع مكتشفي القطع الاثرية الى الاتصال بالتجار الذين يتعاملون بهذه الاشياء بدل أن يذهبوا بها مباشرة الى دائرة الآثار . وهكذا نرى أن التخلف عن دفع ثمن مناسب للقطع الاثرية التي يتم العثور عليها عرضاً – سوف يؤدي بالتأكيد الى حرمان الدائرة مما يعثر عليه الناس ، والى تهريب القطع الاثرية من البلاد الى سوق أكثر ربحاً . وفي الماضي القريب كان تهريب القطع الاثرية الثمينة ظاهرة منتظمة في كل قطر من أقطار العالم توجد فيه أشياء كهذه ، لافرق في ذلك بين أوربا وغيرها . وبالرغم عـــن أن الاجهزة الادارية المستنيرة هبطت بمجازفة فقدان الآثار الى حد كبير ، فان تلك التجارة لم يقض عليها كلياً . وتبدو المجازفة في أوضح مظاهرها عندما يتم اكتشاف أثر ذي أهمية بارزة ، خاصة اذا كانت المادة المكتشفة مما يسهل نقله .

ان مخطوطات البحر الميت تعطينا مثالا ممتازاً عـــلى هذا النوع مـــن المشاكل ، فان الاكتشاف الاساسي حدث في فلسطين في وقت كانت فيه تلك البلاد لسوء الحظ في حالة اضطراب عظيم . وخلال الفترة التي انقضت بين انتهاء الانتداب في أيار ١٩٤٨ والعودة الى أحوال أكثر استقراراً سنة ١٩٤٩ – تم تهريب مخطوطات كثيرة من الكهف الاول الى أمريكا . وأجرت دائرة الاثار الاردنية أثناء العامين التاليين اتصالات تدريجية مع الاشخاص الذين توصلوا اولا الى اكتشاف الكهف ، حتى اذا حدث الاكتشاف الثاني العظيم للكهف الرابع سنة ١٩٥٢ – كان البدو قد وثقوا ثقة كافية بالنـــوايا الطيبة لدائرة الاثار فبادروا الى ابلاغها ولو بطريقة غير مباشرة . ولقد دل الفحص الاولي لبعض قطع المخطوطات عـــلى أنها كانت عظيمة الاهمية ، كما أشارت القصص التي رواها أولئك البدو الى وجود كمـــية كبيرة جداً من جذاذات المخطوطات . وكان متعذراً علينا أن نعاين ما تم اكتشافه كمجموعة كاملة ، لان الجماعات المختلفة من البدو الذيـــن تقاسموا معظم ما في الكهف – احتفظت

كل جماعة منهم بما عثرت عليـه ، اضف الى هذا أن عامل الثقة لم يكـن قائماً عند بعض البدو . ومهما يكن من أمر فقد قُدّر بأن مبلغ ١٥ ألف دينار يكفي لشراء جميع الجذاذات ، وكان ذلك التقدير بناء على أقوال المكتشفين . وبناء على ذلك فان الدائرة قدمت تقريراً الى الحكومة واستوضحت عما اذا كان من الممكن رصد هذا المبلغ من أجل الحصول على قطع المخطوطات والاحتفاظ بها كاملاً في البلاد . وبالرغم عن أن موارد الحكومة كانت طفيفة جداً فانها قدرت أهمية الموقف ورصدت المبلغ المطلوب . وبعد ذلك بدأت المفاوضات مع المكتشفين ووكلائهم فأمكن الحصول على كمية كبيرة من الجذاذات . ولكن عندما بدأ دفع النقود فعلا — أخذ يظهر المزيد من القطع ، وسرعان ما اتضح انه يوجد بين أيدي البدو ما لا يقل عن ضعف الكمية المقدرة أصلا . وبادرت الدائرة الى رفع تقرير عـن الموقف الى الحكومة ، ولكن الحكومة لم تستطع تأمين مبلغ ١٥ ألف دينار اخرى في السنة ذاتها وهكذا تقدمت الدائرة باقتراح مشروع آخر الى الحكومة ، وخلاصة المشروع أن توجه الدعوة الى الجامعات والمتاحف ومعاهد البحث في الاقطار الاجنبية ، من أجل المساهمة في تقديم ثمن بقية المخطوطات . على أن تبقى تلك المخطوطات في البلاد حتى تتم دراستها واعـداد محتوياتها للنشر ، وبعد ذلك تتسلم الجهة المساهمة حصة من قطع المخطوطات تعادل المبلغ الذي ساهمت به . ووافقت الحكومة على هذه الخطة ، وبادر عدد من المؤسسات الى تقديم بعض المبالغ . وهكذا وبفضل السياسة الحكيمة السخية التي اتبعتها الحكومة فقد أمكـن للبلاد ان تحصل على النصيب الاكبر من قطـع المخطوطات ، كما أتيح جمع الكمية كلها في الاردن لدراستها كوحدة تامة . ومن حسن الحظ ان البلاد لا تواجه كل يوم قضية من هذا المستوى الخطير . (١)

ان التنظيم الداخلي في دائرة الاثار نفسها هو مسألة كثيرة التعقيد . فلا بد من وجود فنيين قادرين على تنظيف وترميم وتصليح كمية الفخار الكبيرة التي تنتجها مشاريـع

---

(١) اتخذت الحكومة الاردنية عام ١٩٦١ قرارا برد المبالغ التي ساهمت بها المؤسسات الاجنبية والاحتفاظ بالمخطوطات في الاردن . وما تزال هذه المخطوطات في متحف الاثار الفلسطيني حتى يبت نهائيا في امرها . والواقع ان الحكومة لم توافق خطياً على اقتراح مستر هاردنج .

الحفريات ، وكذلك لا بد من وجود فنيين يستطيعون تنظيم وترميم القطع المعدنية القديمة من البرونز والنحاس والفضة وأشباهها ، ويستوثقون أن هذه القطع الاثرية لـــن تكون عرضة لعوامل التآكل بعد ان تم تنظيفها. ويوجد دائماً لدى قسم التصوير ضعف العمل الذي يستطيع ان يقوم به بكفاءة ، ومما لا يحتاج الى دليل ان تصوير الاثار يتطلب مقدرة فنية وتخصصاً بارعاً . كما يجب الاحتفاظ بسجلات لجميع المواقع الاثرية في البـــلاد ، تكون مدعومة بالصور والمخططات والمعلومات المتوافرة بالاضافة الى قائمة بجميع القطع الاثرية التي عثر عليها في الموقع والتي هي ملك للدائرة ، مع اشارة الى مكان وجود أي قطع أثرية أخرى تنتسب في أصلها الى ذلك الموقع . وعلى الدائرة أن تعطي رقما لكل قطعة أثرية تحصل عليها وان تدخلها في سجلاتها وتذكر أوصافها وتفاصيل عن تاريخها والمكان الذيوجدت فيه وموقعها الحالي . واذا ما تقرر نشر معلومات عنها وجب ذكر شيء من المعلومات التاريخية المتعلقة بها ، كما يجب الاحتفاظ بصورة او عدة صور لتلك القطع ، وأن يتضمن ذلك السجل دائماً آخر المعلومات وما يستجد منها . ومن هذا نستطيع أن نقدّر الاعباء التي يمكن أن تقوم بها الدائرة اذا عرفنا انها قد تحصل في كثير من السنين على بضعة الآف من القطع الاثرية . (١)

يتجه علم الاثار ، كغيره من العلوم الاخرى ، الى أن يغدو علما اختصاصياً دقيقاً ، حتى ليستحيل ان يوجد في قسم واحد موظف فني أو خبير يكون في مقدوره معالجة كـــل حادثة أو قضية من نواحيها المختلفة . لذلك كثيراً ما لجأت الدائرة الى طلب المساعدة مـــن الخبراء الاجانب ، ويمكن القول أن تلك المساعدة تقدم دائماً بسخاء . على أنه من المهم جداً أن تحتفظ دائرة الاثار على الاقل بعدد من المستخدمين المدربين فنياً ، وهوالامر الذي مـــا تزال تفتقده دائرة الاثار الاردنية حتى الان . والواقع أن أيقدر من الحماسة غير العلمية لا يستطيع أن يعوض التدريب الفني الاختصاصي ، رغـــم ان حماسة الهواة كانت ولا تزال ذات نفع عظيم جدا . ومن الامور الحيوية وجود رسام كفـــوء يستطيع أن يرسم الجرار والادوات والاسلحة ورقائق الصوان والعظام وغير ذلك من المواد العديدة التي تنهال على الدائرة . وانه لمن النادر أن يستطيع الفنان صـــنع الرسوم لجرة فخـــار مثلا بالدقة اللازمة

(١) استعانت الدائرة بالبروفسورقلعيان مهندس دائرة الاثاراللبنانيةوالمستر رايت، من اجل الانتفاع بآرائهما حول أفضل الطرق لترميم المعالم الاثرية في الاردن. وجاء في حولية دائرة الاثار، المجلد السادس، ان احـــدى عشرة بعثة اجنبية قامت بأعمال حفريات في البلاد خلال عامي ١٩٦١ – ١٩٦٢.

حسب المقياس ، قبل ان يقضي فترة تجربة كافية ، فهذا الفن يختلف اختلافاً بيناً عن بقية الفنون ويقتضي مبادأة مختلفة . ولكي يستطيع الرسام ان يرسم أية كتابة أو نقـوش رسما يكون من الدقة بحيث يستطيع الخبير أن يقرأه أو يفهمه ــ فمـن الضروري على الاقل أن يكون ملما بألفباء تلك الكتابة عينها لكي يتفادى ادخال أية خدوش او علامات زائدة ، مما يمكن أن يحدث بلبلة ويجعل تلك الخدوش او العلامات تبدو للعين غـير الخبيرة وكأنها جزء من الاصل (١) .

وتلقى مهام ادارة كل هذه الاقسام المعقدة على عاتق مدير دائرة الاثار الذي تنطوي مسؤلياته على ان يسير العمل في الاقسام سيراً منتظما ، وهكذا يبدو ضرورياً أن يكون ذلك المدير رجلا حسن الادارة قبل كل شيء . ولا مندوحة له طبعاً أن يكون ملما بشيء من علم التاريخ اذا لم يكن ملما بعلم الاثار ــ لان هدف الاثار أن تقدم الصورة التي تعكس الحياة اليومية في عصور التاريخ القديمة . واذا كان المدير مـن رجال التاريخ استطاع ان يدرك حاجات الدائرة وواجباتها ادراكا سليما . ومـن حسن حظ دائرة الاثار الاردنية أن تجد على رأسها في الوقت الحاضر اداريا ممتازاً ومؤرخاً قديراً (٢) . ويستحيل حالياً التنبؤ بالاتجاه الذي ستتجه اليه السياسة المتعلقة بالاثار في المستقبل . ولكن الامال معقودة على أن تستمر الدائرة في السير على سياسة الثقة بالمؤسسات الاجنبية التي تبحث عن الاثار وتشجعها على القيام بالحفريات ، وان تواصل ما تبذله حالياً من عناية بالاثار الرائعة وشواهد الماضي المجيد التي تقع ضمن صلاحياتها .

المتاحف :

لم نتعرض حـتى الان الى ذكر المتحفين الموجوديـن في البلاد وهما متحف الاثار الاردني الرسمي في عمان التابع لدائرة الاثار ، ومتحف الاثار الفلسطيني في القدس ، وهو مؤسسة مستقلة لها دخل خاص من هبة مرصودة . أما المتحف الحكومي في عمان فقد

---

(١) يوجد الان في ملاك دائرة الاثار سبعة موظفين جامعيين بينهم من اختص بدراسة الاثار ، وتسعى الدائرة دائما الى ايفاد موظفيها في بعثات دراسية الى الخارج . كما ان بعض الموظفين احرزوا كفاءة ممتازة في اعمال الرسم والتجبيس .

(٢) هو الاستاذ سعيد الدرة . وقد سبق ان تولى مسؤولية دائرة الاثار عدا هاردنج : الدكتور رضـا توفيق وهاشم باشا خـير والمستر هورسفيلد والدكتور عبد الكريم الغرايبة . أما المدير الحالي فهو الدكتور عوني الدجاني .

انشيء حديثاً ولم يتم تنظيمه على الوجه الأكمل حتى الان ، ولكنه يحتوي على قطع مختارة من حفريات الاردن خلال الثلاثين سنة الماضية ، بالاضافة الى عدد كبير من الاثار الجميلة التي امكن الحصول عليها من ايدي الاشخاص الذين عثروا عليها بطريق الصدفة . وبالرغم من أن البناء صغير نسبياً ، فان تخطيطه كان رائعاً جداً والاضاءة فيه ممتازة حتى في الزاويا البعيدة والقاعة الرئيسية والمكاتب . اما المهندس المعماري الذي قام بتصميمه فهو المستر أوستن هاريسون الذي قام أيضاً بتصميم بناء متحف الاثار الفلسطيني . ومما هو جدير بالذكر أن المستر جون . د. روكفلر الابن هو الذي موّل بناء متحف الاثار الفلسطيني وقدم أيضاً هبة رصد ريعها للانفاق عليه . وبهذه الهبة السخية أمكن انشاء ذلك البناء الضخم الرائع ، بينما أنشيء متحف عمان من ميزانية الحكومة الاردنية . ومنذ انتهاء الانتداب ، قام مجلس من الامناء الدوليين بادارة متحف القدس .

ان متحف الآثار الفلسطيني جدير جداً بالزيارة حتى بالنسبة الى الاشخاص الذين لا يهتمون بالاثار ، لان تصميمه الهندسي يمزج بصورة موفقة بين الطراز الوطني القديم الذي يمتاز بالعقود المتقاطعة وبين فنون الهندسة الحديثة . ولقد بذلت عناية عظيمة في انشاء وهندسة كل جزء من أجزاء البناء ، اما الكتابات في الغرف المختلفة فهي من ريشة (اريك جيل) الذي قام بحفر سلسلة من اللوحات بين اعمدة أروقة القاعة الوسطى ، تلك اللوحات التي تمثل الشعوب المختلفة التي تركت طابعها في تاريخ فلسطين ومراحل تطورها ، كما انه قام أيضاً بعمل اللوحة الموجودة فوق الباب الامامي وهي تمثل التقاء آسيا مع افريقيا في فلسطين . ويشتمل بناء المتحف ايضاً على مسرح للتمثيل والمحاضرات وعلى مشاغل ومختبر ومخازن وغرف للتصوير ومكتبة ومكاتب ادارة ، بالاضافة الى قاعة المدخل الفخيمة وردهات العرض .

تم ترتيب المعروضات بحسب تسلسل تاريخ العصور التي تنتسب اليها في الردهتين الشمالية والجنوبية ، ابتداء من أقدم عصور ما قبل التاريخ في الردهة الجنوبية وانتهاء بالعصر العربي الاوسط في الردهة الشمالية . وتقوم خلف هاتين الردهتين ردهتان أخريان أقل إتساعاً حيث يستطيع الباحثون أن يعملوا في دراسة الاثار الاصلية . وتتوافر الكتب التي تعطي الزائر موجزاً لتاريخ الفترة بالنسبة للمعروضات في كل ردهة ، كما توجد قوائم كاملة بالاثار المعروضة او المحفوظة في الخزائن ، اما المعروضات ذات الاهمية الفائقة فيشار اليها بنجمة حمراء خلف كل اثر منها .

تظهر في الردهة الجنوبية معروضات تغطي الفترة منذ حوالي ٢٠٠ الف سنة خلت الى نهاية العصر البرونزي حوالي سنة ١٣٠٠ ق . م . أما الردهة الشمالية فتظهر فيها معروضات من آثار العصر الحديدي حوالي السنة ١٢٠٠ ق . م . وحتى سنة ١٧٠٠ب.م . وتوجد هناك قاعات أخرى بالاضافة الى هاتين الردهتين الرئيسيتين ، وتظهر في هذه القاعة معروضات ذات أهمية خاصة : ففي المثمّن الجنوبي يمكن مشاهدة بعض الالواح الخشبية المحفورة وأغطية الدعائم التي وجدت في المسجد الاقصى أثناء العمل في تجديد داخلية ذلك المسجد قبل عدة سنين . وتبدو في القاعة الغربية المحاذية أشكال الجبس المنحوت الذي تم نقله من القصر الاموي في أريحا (خربة المفجر) . وقد تم اعادة تركيب الجانب الاعظم من هذه المعروضات بواسطة تجميع الآف القطع المحطمة الصغيرة مما اقتضى جهد سنوات عديدة من قبل مهندس المتحف . ولقد كانت النتائج مدهشة حقاً ، وهي تعطي انطباعاً رائعاً عن وفرة الزخارف في القصر والحمامات ، كما تدل على المقدرة الابداعية وسعة خيال المهندسين والمثّالين الذين قاموا بانشاء القصر ، وتظهر في غرفة صغيرة بين القاعة الغربية والمثمّن الشمالي معروضات من الحلي والجواهر التي تعود الى جميع العصور رغم ان معظمها يعود الى العصر الروماني أو العصر البيزنطي.

وقد أقيم في الجانب الشرقي من الردهة الشمالية معرض خاص موقت لمخطوطات البحر الميت ، وعرضت هناك معظم المخطوطات التي أمكن جمعها ونشر محتوياتها .وهناك أيضاً الاواني الفخارية والاشياء الاخرى التي عثر عليها في الكهوف وفي خربة قمران ، كما تظهر في صندوق منفصل المخطوطات والاشياء الاخرى التي اكتشفت في كهوف (المربعات)و من ضمنها رسالة (بار كوشبار) . ويبدو في محاذاة هذا المعرض من الناحية الشمالية ضريح كامل يعود الى عصر الهيكسوس وقد عثر عليه في أريحا (حوالي سنة ١٦٠٠ ق . م .) وقد أعيد بناؤه في الحالة نفسها التي وجد عليها . ويمكن هنا ان تشاهد بقايا الطاولات الخشبية والمقاعد والصناديق المطعّمة بالعظام ، والسلال وجرار الماء وأنواعاً أخرى من الفخار ، وبقايا لحوم الاحتفالات الجنائزية فوق صحون من الفخار والخشب ، وكلها ملقاة بالترتيب حول الجثمان المسجّى في الوسط والذي يرقد على دكة واطئة وحوله والى الخلف منه هياكل عظمية أخرى . والواقع أن الضريح يبدو كما وجده الحفارون في أريحا ، عندما ازاحوا السدادة الحجرية عن المدخل ، لأول مرة منذ ٣٥٠٠ سنة .

تحتوي قاعدة المدخل والمثمنات المحاذية لها على كمية من المنحوتات والاثار الضخمة ، وغالباً ما تعرض هناك نماذج من المكتشفات الاثرية التي تم الحصول عليها مؤخراً . ويوجد في الساحة الوسطى (حيث توجد لوحات جيل التي سبقت الاشارة اليها) بركة مستطيلة للزنبق ، وفي الطرف الغربي تجويف مسقوف بالقرميد وفيه نافورة ماء ، مع انه لم يعد ممكنا في الوقت الحاضر تشغيل النافورة دائماً بسبب ارتفاع ثمن الماء . وتحيط بالبركة أروقة من جوانبها الثلاثة الاخرى ، ويبدو في هذه الاروقة عدد من المعروضات الاثرية : نواويس من المرمر وغير ذلك .

تعتبر الحديقة الامامية للمتحف من جملة المناظر الجميلة في القدس ، وهي تمثل منظراً اماميا بديعاً للمدخل الرائع الذي يتألف من البرج والواجهة الرئيسية للبناء وكلها مبنية من الحجر الابيض . وتلقى الحديقة عناية متواصلة رغم ارتفاع ثمن الماء ، وتزدهر الارض في فصل الربيع تحت اشجار الزيتون بأنواع عديدة من زهور البلاد البرية ، التي تم جمعها عبر سنوات طوال .

وفي جانب خاص من المتحف يواصل العلماء والباحثون عملهم في تجميع جذاذات مخطوطات البحر الميت ونسخها وترجمتها . انهم فريق متجانس من مختلف البلدان بين انجليزي وفرنسي وأمريكي وبولندي والماني — وكلهم خبراء في اللغات السامية وعلماء في التوراة . اما المهمة التي يضطلعون بها فتقتضي منهم صبراً وحماسة لاحدّ لهما ، اذ عليهم ان يعالجوا ملفات الجلد المطوية بالإلانة والتبسيط . ومعلوم أن المخطوطات تصلهم غالباً على شكل لفائف ، وبعد ذلك عليهم ان يفرزوا الآف القطع ويعملوا على تجميعها في وحدات متجانسة ، ثم تراهم يحاولون تنسيق هذه القطع مع بعضها البعض حتى يتمكنوا في النهاية من قراءة وترجمة ما جمعوا ونسّقوا . ومما يسهّل على أولئك العلماء مهمتهم ان كل قطعة من قطع المخطوطات يجري تصويرها بأشعة ما دون الاحمر ، تلك الاشعة التي تظهر الكتابة التي تبدو للعين المجردة صفحة سوداء خالية من الحروف . ولقد مضت حتى الان عدة سنوات على ذلك العمل ، وما يزال هناك قسط عظيم ينتظر دوره ، حتى ان بعض المخطوطات التي تم اكتشافها مؤخراً لم تجد من يلقي عليها نظرة حتى الان . ولكن العلماء لم يفقدوا شيئاً من حماستهم الاولى نحو القيام باعباء المهمة ، بل ان اندفاعهم يزداد دائماً عندما تصل الى المتحف قطع جديدة من المخطوطات . وتراهم يتجمعون حول كومة

صغيرة مغبرة من الجذاذات الجلدية ، فينكبّون بحرارة تمازجها العناية التامة على فرزهـــا وتنسيقها ، وكل منهم يرجو أن يعثر على قطعة كبيرة تملأ فراغـــاً يفتقده في المخطوطة التي باشر العمل فيها .

لقد أسهم متحف الاثار الفلسطيني ومجلس أمنائه مساهمة كبيرة في المحافظة عـــلى مخطوطات البحر الميت ، وكانت هذه المساهمة على نوعين : اذ ابتاع قطـــع المخطوطات بالاموال كلما أمكن ذلك ووفرّ مكاناً للعمل مع جميع الوسائـــل الضرورية بالنسبة للعلماء . ولكن رصيد المتحف من الاموال لم يعد كافياً للقيام بالعبء ، ولولا المنح التي قدمها المستر روكفلر الابن لما استطاع العلماء أن يـــواصلوا أعمالهم . ولا بد مـــن القول أن التعاون بين المتحف ودائرة الاثـــار الاردنية كـــان دائماً مثمراً ووديا (يشترك مدير الاثار في عضوية مجلس الامناء) . والآمال معقودة على انه مهما كان مستقبل القدس ، فان التعاون الحالي سيبقى مستمراً ، لان كلا الطرفين يستطيعان أن يقدما أجلّ المعونات لبعضهما البعض . ومن حسن حظ المتحف ان الامين الذي يعمل فيه رجل مخلص كل الاخلاص لعمله ، وهو يصرّف جميع المشاكل التي تنشأ ، بين ادارية وشخصية مسترشداً بمبدأ واحد لا غير الا وهو خدمة علم الاثار وزيادة امجاد المتحف. ومن هذا نرى أن استمرار الاحوال الحاضرة سيؤدي بالدائرة ومتحف الآثار الفلسطيني الى مستقبل عظيم (١) .

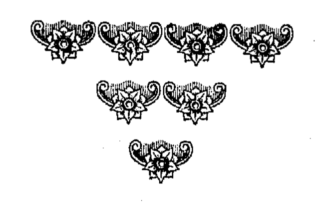


(١) راجع مقالة « متحف الاثار الفلسطيني في القدس » بقلم السيد فرح معايعه(مجلة رسالة الاردن العدد ١٨ – كانون الاول ١٩٦٠) ففيها تفاصيل وافية عن انشاء هذا المتحف وموجوداته . اما امين متحف القدس المشار اليه فهو السيد يوسف سعد .

المشتمل

صفحة

صفحة



جدول موجز للعصور التاريخية في فلسطين والاردن ومقارنتها مع العصور التاريخية في مصر والعراق

العراق	مصر	فلسطين	أدوم	مؤاب	عمون	
سومر وأكاد عروات العموريين والحموريين	السلالات ١ — ١١ السلالات ١٢ — ١٧ حتى مجيء الهكسوس	العصور الباليوليثية والنيوليثية — الفترة ١٠٠٠٠٠٠ — ٤٠٠٠ ق م العصر الحالكوليثي — الفترة ٤٠٠٠ — ٣٠٠٠ ق م. العصر البرونزي الاول — الفترة ٣٠٠٠ — ٢٠٠٠ ق م ابراهيم (الخليل) الهكسوس				العصر البرونزي الاوسط الفترة ٢٠٠٠ — ١٦٠٠ ق م.
الحوريون، الكوشيون. نشأة اشور الامبراطورية الاشورية تغلث فلاسر الاول الفترة ١١٠٠ ق. م	السلالتان ١٨و١٩ العصر الذهبي للامبراطورية المصرية السلالتان ٢٠و٢١ شيشانك الاول يغزو فلسطين سنة ٩٢٢ ق م	خروج بني اسرائيل — موسى يشوع احود فترة القضاة والفلسطينيين شاؤل، ١٠٢٠ — ١٠٠٤ ق م. داؤد، ١٠٠٤ — ٩٦٥ ق. م. سليمان، ٩٦٥ — ٩٢٦ ق م	بيلا جوباب هوشان هدد الاول سمله شؤل بعل حنان هدد الثاني هدد الثالث	بالاق عجلون -	ميمون (في حسبان) ناحاش حانون شوبي	العصر البرونزي الاخير الفترة ١٦٠٠ — ١٢٠٠ ق م العصر الحديدي الاول الفترة ١٢٠٠ — ٩٥٠ ق. م.
تغلث فلاسر الثالث ٧٤٥ — ٧٢٧ سنحاريب، ٧٠٥—٦٨١ آشور بانيبال، ٦٦٩ — ٦٢٦ امبراطورية بابل نبوخذ نصر، ٦٠٥ — ٥٦٢	السلالات ٢٢ — ٢٦	يهوذا: يوشافاط، ٨٧٢—٨٥٢ / آحاز، ٧٤٢ — ٧٢٥ / حزقيا، ٧٢٥ — ٦٩٧ / منسي، ٦٩٦—٦٤٢ / اموت، ٦٤١ — ٦٤٠ / جوريا، ٦٣٩—٦٠٩ / صدقيا، ٥٩٨—٥٨٧ اسرائيل: عمري، ٨٨٢ — ٨٧١ / مناحيم / سقوط السامرة، ٧٢١ ق. م. سقوط القدس، ٥٨٧ ق م سبي اليهود	سلمان ملك رام كوس حاير المملكة النبطية	ميشع، ٨٥٠ق.م. كوش ناداب كوش ناداب موصوري تحت الحكم الاشوري كوش ياحي كوش حالت	سانيبو بودويل عمي ناداب بالس طوبيا	العصر الحديدي الاخير، الفترة ٩٥٠ — ٥٤٩ ق م فترة حكم الفرس، ٥٤٩ — ٣٣١ ق م
الامبراطورية الفارسية، ٥٤٩ — ٣٣١ ق.م. الاسكندر الكبير، ٣٣٣ ق م المملكة السلوقية في سوريا انتشار الامبراطورية الرومانية، ٦٢ ق م. هيرودس الكبير ثورة اليهود الاولى د الثانية	سلالة البطالسة	عودة اليهود من السبي حكام محليون صغار تابعون للبطالسة والسلوقيين	الحارث الاول ١٦٩ ق م الحارث الثاني ١١٠ — ٩٦ عباده الاول ٩٥ — ٩٠ رابل الاول ٩٠ — ٨٧ الحارث الثالث ٨٧ — ٦٢ عبادة الثاني ٦٢ — ٤٧ مالكوس الثاني ٤٧ — ٣٠ عبادة الثالث ٣٠ — ٩ الحارث الرابع ٩ ق م ١ — ٤٠ ب م مالكوس الثالث ٤٠ — ٧٥ ب م رابل الثاني ٧٥ — ١٠٦ ب م.		تقلب على الحكم كل من اليهود والبطالسة والسلوقيين والانباط	الفترة الهلينية ٣٣١ — ٦٣ ق م الفترة الرومانية، ٦٢ ق. م — ٣٣٠ ب م

خضوع البلاد كلها لسيطرة الرومان سنة ١٠٦ ب م

الامبراطورية البيزنطية ٣٣٠ ب م — ٦٤٠ ب م

الفتح العربي





مؤلف الكتاب

قضى (لانكستر هاردنج) مدة عشرين عاماً في الاردن ، مديراً لدائرة الآثار. وقد ولد في مدينة (تينتسين) في الصين الشمالية سنة ١٩٠١ ، وعاش في (سنغافورة) من سنة ١٩٠٧ الى سنة ١٩١٣. وبدأ عمله لاول مرة وهو في السادسة عشرة من العمر ، كضارب على الآلة الكاتبة في مكتب أحد الناشرين ، ولكن علم الآثار كان الموضوع الذي يستحوذ على اهتمامه ، وقد كان لهذا الاهتمام ، وللصدفة الطيبة ، أثرهما في تمكينه من اتخاذ الاثار مهنة العمر بالنسبة له .

عمل في الحفريات اولا مع (السير فلندرز بتري) سنة ١٩٢٦ وظل يعمل معه حتى سنة ١٩٣٢ في منطقة غزة من فلسطين . وبعد ذلك عمل مدة اربع سنوات مساعداً لمدير بعثة (ول كم) للتنقيب عن الآثار في الشرق الادنى (Wellcome Archaeological Research Expedition) . التي اخذت تقوم بالحفريات في (تل الدوير) – ولعله لاخيش المذكورة في التوراة – حتى عام ١٩٣٦. وفي ذلك العام عيّن مفتشاً للآثار في امارة شرقي الاردن . وعندما حصلت البلاد على استقلالها عام ١٩٤٦ ، وأصبحت تعرف باسم المملكة الاردنية الهاشمية ، أبدل اسم وظيفة (هاردنج) فاصبح « مدير الآثار » . وفي عام ١٩٤٨ ، بعد نكبة فلسطين ، أضيفت آثار الضفة الغربية الى المنطقة التي تشملها مسؤوليات (هاردنج) ، ومن جملتها خرائب (قمران) والكهوف التي اكتشفت فيها (مخطوطات البحر الميت) .

أنهيت أعمال المؤلف سنة ١٩٥٦ ، ولكن علاقته بالبلاد لم تنقطع حتى اليوم اذ انه يزورها من آن الى آخر . وهو يقيم الآن في لبنان .

ويتكلم (لانكستر هاردنج) اللغة العربية بطلاقة ويكتبها كتابة صحيحة وله ولع وخبرة بالموسيقى العربية .

